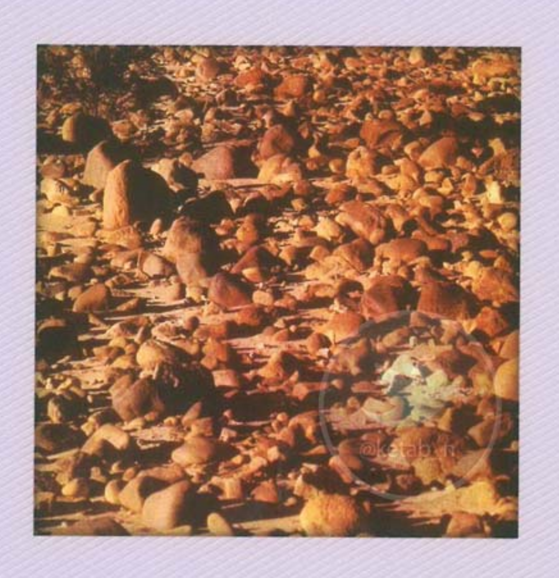
IBRAHIM AL-KONI

رواية
NOVEL

إبراهيم الكوني

يعقوب وأبناؤه







إبراهيم الكوني

يعقوب وأبناؤه



يَعْقُوبُ وأَبْنَاؤُه

يعقوب وأبناؤه / رواية عربيّة
إبراهيم الكوني / مؤلّف من ليبيا
الطبعة الأولى ، 2007



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
محمد سيبى ®

لوحة الغلاف : **مشهد صحراويّ / الصحراء الليبيّة .**
الصفّ الضوئيّ : **رشاد برس**
التنفيذالطباعيّ : **رشاد برس / بيروت ، لبنان**

ISBN 9953-36-968-2

«وأمّا إسرائيل فاحبّ يوسف أكثر
من سائر بنيه لأنّه ابن شيخوخته».

التكوين (٣:٣٧)


Twitter: @alqareah

القسم الأوّل


Twitter: @alqareah

1

يوم أمر الباشا بتطهير القصر من المرايا هرع الأمير حسن للمثول بين يديه للاستفهام عن حقيقة هذا العمل الذي تندّر به الأعيان وجرت سيرته حتى على ألسنة الدهماء، فما كان من الباشا إلاّ أن أخذ سليله البكر من يده واختلى به في إحدى زوايا القصر قائلاً أنه يريد أن يروي له سيرة. انتظر حسن بك الرواية بفارغ الصبر، ولكن الباشا مضى يتشبّث بتلابيب الصمت مغمض العينين. ويبدو أنه تعمّد صلاته في محراب السكينة (المفقودة عادة لا في زوايا القصر وحده، ولكن في أركان القلعة كلها) لكي يلجم في الابن الظمأ إلى الارتماء في أحضان الباطل الذي غرق فيه أخيراً فلم يجد للاختلاء به سبيلاً حتى هو، الأب الذي أوجده، وربّ العائلة التي ربّته، وصاحب المملكة التي أطعمته من جوع وآمنته من خوف. وعندما سمع أنفاس الأمير تتحوّل في أذنيه زفيراً شبيهاً بعواء الرياح الصحراوية تمتم دون أن يكشف عن مقلتيه:

ـ هل تنتظرك في الأسواق صفقة؟

طأطأ الأمير استحياء لا لأن الباشا قرأ أفكاره ولكن لأنه أخفق في قمع أنفاسه ففضح شهوة حاول دائماً أن يخفيها. قال الباشا:

ـ إذا كنتَ تخشى أن تفقد صفقة فلا تسمعني!

ابتسم الأمير. برطم بعبارة مبهمة. في تلك اللحظة تراجع جفنا الباشا الثقيلين عن مقلتين جاحظتين ناعستين بسبب الأرق والسّهر ومعاقرة الخمر. تكلّم بعدها فقال:

ـ في هذا القصر عاشت يوماً أجمل امرأة لا في المملكة الطرابلسية وحدها، ولكن في الدنيا كلها حتى أن رجال المملكة كانوا يشيحون بوجوههم عند مرورهم تحت نوافذ القصر خوفاً من أن تقع أبصارهم على وجهها. لأنّ كلّ مَن أبصرها جنّ، أو انتحر، أو سقط على الأقل في غيبوبة دامت أياماً. وقد هلك شعراء كثيرين بسبب الغصّة، لأن صاحب القصر حرّم على هذه الملّة التغنّي بحسنها أو ذكر حتى اسمها. ويُقال أنه قطع لسان ثلاثة دراويش خاضوا سيرة جمالها. فصارت ذكرى هذا القصاص سيفاً مسلّطاً على رقاب عشّاق حسنها الذين لم يجدوا حيلة ينفّسون بها عن كربتهم إلاّ الذهاب للموت في الصحراء أو الهلاك حزناً. ولكن عهد القدر مع المعبودة لم يكن لأجل غير مسمّى. ولهذا ما لبث أن بعث بالزمان رسولاً عندما حان الميعاد وانقضت الآجال فاختطّ في جبينها تلك العلامة المميتة التي نسمّيها بلغتنا غضوناً فتزلزلت المسكينة بالفجيعة. كانت تقف كل صباح أمام المرآة لتشاهد سيماء الزمان وتتأمّل سرّ هذا الطلسمان. ليس هذا فحسب، ولكنها مع الأيام عبدت المرآة فصارت تنهض في منتصف كل ليلة لتشاهد على أضواء القناديل ختم الزمان ذاك وهو ينسج على الجبين خيوطه التي لا تكاد تُرى في البداية، ولكنها (يا للهول!) لا تلبث أن تتبدّى مع الأيام

وشماً يطبع الجبين بوضوح قبل أن تتحوّل تالياً أخطبوطاً يلقي بأحابيله إلى العنق، ثم يحتفر أخاديد هشّة (ولكنها مرئية) على الجفون، ثم على الخدّين، ثم حول العينين. شلّ الرعب المعبودة في مرّة فحطّمت المرآة. فقدت صوابها فحطّمت المرآة لأوّل مرّة. فعلت ذلك في نوبة جنون في ذلك الصباح الذي نهضت فيه من المخدع فرأت وجهها الممزّق بسيماء الزمان.

أدركت لحظتها أن الزمان خذلها إلى الأبد. لأن الأقدار كما يبدو قررت أن تتخلّى عنها. قررت أن تقتصّ منها جرّاء الخطيئة. لأن الجمال عندما يزيد عن الحدّ أيضاً خطيئة، لأنه محاكاة للربّ. حجب لجمال الربّ. اعتداء على جمال الربّ. وعليها أن تدفع ثمن خطيئتها في النهاية قبحاً يأتي به رسول اسمه الزمان في ركاب الشيخوخة. استنجدت من فرط الفزع بالعطارين، ثم بالسحرة، ثم بالعرافين. أحد العرافين حاول أن يجد لها في الغيوب عزاء فقال لها أن الشيخوخة ليست شيخوخة الجسد إلاّ لمن عوّل على الجسد، ولا سلطان للزمان على الإنسان ما لم يعرف الشيخوخة بقلبه. يومها قررت المرأة أن تجرّب أن تحيا بقلبٍ لم تجرّب أن تحيا به يوماً. حطّمت في القصر المرايا، وطهّرت من هذه القلعة أي جرم يمكن أن يعكس خيالاً. ولكنها نسيت أن تطهّر القصر من المرايا الحقيقية لا مرايا الظلال. نسيت أن تطهّر القصر من أهل القصر الذين صاروا لها مرايا أقسى وقعاً من مرايا الزجاج المعلّق على الجدران. لم تكتشف في بداية عهدها بختم الأيام صورتها في عيون خدم القصر، ولكن الشكوك ما لبثت أن خامرتها مع الأيام. بل الشكوك تحوّلت

وسواساً. إلى أن جاء اليوم الذي أبصرت فيه أحد السابلة من نافذة القلعة. كان رجلاً طويل القامة، مفتول الشاربين، يعتمر عمامة أكابر متوّجة بالفصوص، تلتمع على جانبيها الجواهر، يتمنطق بسيف مدسوس في غمد مرصّع أيضاً بفصوص الأحجار الكريمة، مما يقطع بانتمائه إلى سلاح الفرسان. كان يخطو باستعلاء رافعاً رأسه إلى الفضاء عندما وقع بصره عليها. تلكّأ في خطوه قليلاً، ثم ابتسم. ابتسم ابتسامة غريبة قبل أن يشيح عنها ببصره ويطلق ضحكة مكتومة. أطلق ضحكة حقيقية، ضحكة تهكّم، قبل أن يختفي في زحام السابلة. فما معنى هذا؟ ما معنى البسمة الغريبة التي لم تكن لتراها غريبة لو لم تكن بسمة سخرية، بل بسمة شماتة؟ والضحكة؟ هل كانت كابوساً من كوابيس أضغاث الأحلام؟ كلاّ. بسمة الشماتة حقيقية، وضحكة الاستهزاء لم تكن كابوساً. فماذا حدث في هذا الكون الذي لم يحدث أن وقع فيه بصرها على رجل إلاّ ووقع أرضاً، ولم تبتسم فيه لمخلوق إلاّ وأصابته اللعنة؟

لم تصدّق الحسناء ما رأت. لم تصدّق فقررت أن تبحث عن سبب الكارثة في المرآة. فتّشت عن المرايا ولكنها لم تجد في القصر المرايا. ذهبت إلى البستان ووقفت على مستودع المياه. هناك، على مرآة الماء، رأت عدوّاً ولم ترَ في الماء وجهها. رأت الزمان مجسّداً بعد أن كشف لها عن وجهه. لم تحتمل المسكينة أن ترى نفسها وقد تماهت مع هذا اللغز المسمّى زماناً فقررت أن تضع حداً لهذه الإهانة. ألقت بنفسها في صهريج المياه. وعندما افتقدها الخدم وبحثوا ليجدوها طافية فوق الغمر كانت قد لفظت أنفاسها!

سكت الباشا. أغمض عينيه ثم فتحهما قبل أن يتساءل:

ـ هل تدري من هذه المرأة؟

لم يجب الأمير فقال الباشا:

ـ إنها جدّتي زينوبة!

هتف حسن بك:

ـ زينوبة؟

ـ بلى. زينوبة الخرافية التي ارتكب الجدّ الأسطوري أحمد الأكبر في سبيلها جريمته الأولى يوم أمر بطعن زوجها الأوّل خليل الأرناؤوطي غدراً!

ساد صمت. تساءل الأمير أخيراً:

ـ ماذا تريد يا أبتي أن تقول؟

أجاب الباشا ببرود:

ـ أردت أن أقول أن المرآة ليست مرآة الجدار، ولكنها مرآة القلب!

ـ الحقّ أني لا أفهم.

ـ تستطيع أن تضيف لمرآة القلب مرآة أخرى.

ـ ألا وهي؟

ـ عيون الناس!

أطلق الأمير ضحكة. ولكن الباشا لم يلتفت. أضاف:

ـ إذا قررتَ أن تخدع نفسك وتتجاهل مرآة القلب فعليك بمرآة الناس. عليك بعيون الناس التي لا تخفي خافية!

ـ هل جرّد مولانا القصر من المرايا لكي يستبدل مرايا الحيطان بمرايا الوجوه؟

ـ بلى!

ـ ولكن لماذا؟

ـ لأني لا أريد أن أبصر وجهي هذا!

تضاحك الأمير باستخفاف، تمتم:

ـ شيء لا يصدّق!

أضاف الباشا:

ـ كان الأجدر بك أن تسألني عن السبب..

تمشّى الأمير ذهاباً وإياباً، قال:

ـ بلى، بلى. كان يجب أن أسأل عن السبب.

تبسم الباشا باستخفاف. أغمض عينيه نهائياً عندما قال:

ـ لأني أكره وجهي!

توقّف البك عن الخطو. ردّد بدهشة:

ـ ماذا؟

ـ أكره جسدي هذا، ولكني لا أريد أن أكذب فأدّعي أني أكره نفسي كما يروق لبعض البلهاء أن يقولوا!

غمغم الأمير ذاهلاً:

ـ عجباً!

تكلّم الباشا:

ـ أريد أن أرى نفسي، ولكني لا أريد أن أرى وجهي. هذا كلّ ما في الأمر!

تساءل الأمير بلهجة عجز:

ـ ولكن لماذا على مولانا أن يكره رؤية وجهه؟

زفر الباشا أنفاس الإعياء. قال:

ـ لا أعرف. ربّما لأنه يذكّرني بضعفي!

صمت الابن فأضاف الأب:

ـ يخيّل لي أني سأكره نفسي يوماً فيما لو مضيت في رؤية وجهي في المرايا!

سكت لحظة قبل أن يكمل:

ـ ويوم أكره نفسي لا أريد أن أعيش!

حدّق الابن في وجه أبيه غائباً. ساعتها فتح الباشا عينيه فتحررتا من الجفنين الثقيلين لأول مرّة. التفت إلى الابن ليقول:

ـ هل فهمت الآن لماذا طردت المرايا من ديار القصر؟!

تبادل الابن مع الأب نظرة. فكّر الابن كم هو قبيح جسد الأب حقّاً: بدين البدن، مفلطح الشفتين، سمين الشدقين، رجراج البطن. تذكّر الشائعات التي يروّجها القوم عن الباشا فتساءل:

ـ هل هو الضمير؟

حدجه الأب بخمول. قال بلا مبالاة:

ـ لم أذنب في حقّ أحد، فلماذا يعذّبني ضميري؟

ـ ألاَ تبلغ مولاي أبناء القيل والقال؟

ـ الناس سوف يقولون في كل الأحوال. هذا حال الرعية منذ وُجد على الأرض سلطان ودبّت على الأرض رعية!

تردّد الأمير لحظات. تقدم نحو الباشا خطوة. قال:

ـ أخشى أن الدخان لا ينطلق في الفضاء بلا نار يا مولاي!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول أنك تغالي في محاباة اليهود، وتتهاون مع أعلاج النصارى!

ـ هل أنت من يقول هذا، أم الرعايا هم الذين يقولون؟

ـ بل الرعايا هم الذين يقولون يا أبتاه!

لاحت في سيماء الباشا ظل ابتسامة. قال ناعس العينين:

ـ أليس اليهود رعايا؟

ـ بلى يا مولاي.

ـ أليس الأعلاج رعايا؟

ـ بلى يا مولاي.

ـ ما الضرر إذاً فيما لو استخدمت دهاء اليهود وهم رعايا، واستعنت بمواهب الأعلاج وهم نصارى؟

ـ الناس يقولون أنهم سلبوك سلطاناً وُهب لك أنت ولم يوهب لهم هم!

ـ هراء! لا سلطان بلا أعوان، ولا حاكم بلا بطانة. وأحمد الأكبر لم يكن ليكون سلطان زمانه الأكبر لو لم يستعن بأعوانٍ من كل ملّة وسواعد من كلّ دين!

ـ الساعد الأيمن لأحمد الكبير هو عقله الكبير!

لمح إنكاراً في مقلة الباشا فأضاف:

ـ هذا ما يُرْوى!

قال الباشا:

ـ نلتُ عقلاً صغيراً لأني لم أطمع يوماً في أن أصير كبيراً، ولكنّي لا أظن أنه سوف يعجز في تسييس شئون مملكة لم تعد بقوّة المملكة التي كانتها في عهد أحمد الأوّل!

ـ ولماذا لا تصير المملكة في عهدك أقوى مما كانت عليه في عهد أحمد الأوّل؟

ـ لأن الممالك تبدأ من القمّة ثم تهوي إلى الأسفل!

هأهأ الأمير بضحكة. قال:

ـ هل هذه طُرفة؟

ـ بل هذه حقيقة!

ـ ظننت يا مولاي أن العكس هو الصحيح؛ لأن الأشياء كلها تبدأ صغيرة ثم تنمو إلى أعلى حتّى تبلغ الذروة.

ـ قد يصدق هذا على كل شيء في الدنيا إلاّ على الممالك!

ـ ولكن من أين لأبي بهذا اليقين؟

ـ هذا ناموس قديم قدم الممالك!

ـ ولكن لماذا على الممالك أن تتضعضع مع مرور الأيام في حين تنمو كل الأشياء؟

ـ لأن الممالك معجونة من طينة أخرى غير الأشياء. لأن الممالك معجونة بيد الشيطان!

ـ ها ـ ها ـ ها . .

ـ أنت تضحك في حين يجب أن تبكي!

ـ ولماذا عليّ أن أبكي؟

ـ لأنك سترث عنّي المملكة وهي في حال أسوأ مما نلتها أنا عن أبي!

ـ هل هي لعنة؟

تطلّع إليه الباشا بعينين جاحظتين ومطفأتين. قال:

ـ تستطيع أن تقول أنها لعنة. لعنة الممالك!

ـ ولكن . .

قاطعه الباشا وهو يحتال على بدنه ليقف على قدميه:

ـ يحسن بك أن تعود إلى صفقاتك!

2

ـ لو تمتّع علي باشا بذرّة واحدة من خصال سلفه محمّد لما تجاسرت يوماً على المطالبة بالعرش!

قالها مصطفى أبو شاقور وهو يذرع المكان ذهاباً وإيّاباً قبل أن يتوقّف فجأة ويلتفت إلى ضيفه ليضيف بيقين:

ـ يا إلهي إنه لا يصلح لشيء بتاتاً! إنه وصمة عار في جبين الأسرة القرمانلية!

ابتسم الضيف خِفْيَةً، في حين أضاف أبو شاقور بفزع مفتعل:

ـ تخيّل فيما لو نهض أحمد الأكبر من قبره ورأى هذا المسخ وهو يتربّع على عرشه!

أطلق ضحكة استخفاف. تمشّى. توقّف. أكمل:

ـ إنه لا يصحو من غيبوبة إلاّ ليغرق في غيبوبة أخرى. ولا يتحرّر من أحضان محظية إلاّ ليجد نفسه مطوّقاً بأحضان محظية أخرى!

ضرب كفّاً بكفّ. أطلق أنين وجع. أضاف بلهجة استهزاء:

ـ ويا ليت تلك الأشباح التي يعاشرها كانت محظيات حقيقية. انظر إلى الدبّ الأسود الذي يسمّيه الناس محظيته الزنجية! انظر إلى الطامّة الكبرى التي لا تمتطي بغلتها إلاّ بمعونة ستة عبيد والتي يسمّيها البلهاء «الكاهنة استير»! هل هذه بربّك نساء أم بعابع لإفزاع الخلق؟ إن الباشا في نظر الناس ليس سكّيراً فحسب، ولكنه أعمى! ها ـ ها ـ ها...

خنق ضحكته بيده ثم أضاف:

ـ قد تغفر الرعية اللّهو لصاحب الرعية، ولكنها لا تغتفر الشذوذ في اللّهو!

قال الضيف:

ـ كلّنا نلهو! من منّا لا يروق له أحياناً أن يلهو؟ الحقّ أننا لم نُخلق إلاّ لنلهو؛ ولكن للهو يوجد ناموس أيضاً. يجب أن نعرف متى نلهو حقّاً، ومتى نتظاهر بأنّنا نعمل برغم أننا في حقيقة الأمر لا نفعل شيئاً غير أن نلهو أيضاً!

تضاحك الضيف قبل أن يضيف:

ـ يخيّل لي أن خطيئة الباشا عليّ ليست في لهوه، ولكنّها في تحويل دنياه كلّها إلى لهو في لهو. وهو استهتار لا تغتفره الحياة التي تتوقّع منّا أن نطارد تلك العنقاء التي يسمّيها الناس سعادة. لأن ما معنى أن نحيا دون أن نحاول فكّ طلسمٍ؟ ما معنى أن نشقى دون أن ننتظر مفاجأةً؟

تنفّس الضيف الصعداء ثم أضاف:

ـ لا تظنّ أني أقبلت للانضمام إليك بدافع الانتقام لأسلافي الذين فتك بهم سلفك الذي وضع حجر الأساس لحكم الأسرة القرمانلية، ولكن يجب أن تتيقّن أني لا أفعل ذلك إلاّ طلباً للمفاجآت.

استنكر أبو شاقور:

ـ المفاجآت؟

ـ المفاجآت التي قد تأتيني بالعزاء. المفاجآت حرفتي منذ الطفولة. المفاجآت التي علمتني أن انتظارها أجمل من نيْلها دائماً!

ـ انتظارها أجمل من نيْلها؟

ـ في نيلها خيبة، ولكن في انتظارها الأمل. تستطيع أن تقارنها بالسعادة على كل حال!

تطلّع إليه أبو شاقور بدهشة. تطلّع إليه طويلاً. قال أخيراً:

ـ تريد أن تقول أن الإنسان لا يجب أن يفعل أيّ شيء على سبيل الانتقام. يسرّني أن أسمع ذلك. هذه سليقة تليق بسلالة نبيلة مثل عائلة آل المكّني. ولكن الانضواء تحت راية تعلن العصيان لمجرّد طلب المفاجآت هو ما لن أفهمه!

ابتسم سليل آل المكّني. قال بيقين من يعرف ماذا يفعل:

- لا يجب أن تسيء بي الظنون فتعتقد أني مغامر، واعلم أنّك إن اعتمدت عليّ فلن أخيّب ظنّك أبداً!

- يعلم الله أنه ليس سوء ظنّ بأحد، ولكن لا يجب أن أُلام إذا حاولت أن أعرف أنصاري، لأن ذلك لن يجنّبني الأشراك وحدي، ولكنه سيجنّب الأخطار أنصاري أيضاً!

عاد سليل المكّني يتبسم بغموض. قال:

- من حقّك أن تحترس حقّاً، لأن مريد السلطان قلّما يفلح إن لم يفعل. ولكن ما أردت أن أقوله هو أني لا أبحث عن نصرٍ للعدالة من وراء ما أفعل ليقيني بأن العدالة عنقاء لا وجود لها في دنيانا..

قاطعه أبو شاقور:

- مهلاً، مهلاً! هل تعتقد أن العدالة أحجية مفقودة من دنيانا حقّاً؟

- بالطبع!

ثم أضاف:

- آمل ألاّ تكون ضالّتك طلب العدالة!

- كيف أطمع بنيل العرش إذا لم يكن إحقاق العدالة ضالّتي؟ بل كيف أقنع أتباعي بسموّ رسالتي إن لم أقل لهم أني مريد عدالة؟

عاد سليل المكّني يبتسم. ابتسامة ماكرة؟ ابتسامة استخفاف؟ أم أنها بسمة إنسان عرف اليأس ففقد الإيمان؟

قال أبو شاقور:

ـ ليس هذا كل شيء، ولكن كيف انتصر في حرب كهذه إن لم أقنع نفسي بأن ما أفعله ليس نزوة أو ظمأ إلى السلطان، ولكنه تضحية بالذّات في سبيل العدالة؟

حدج ضيفه بنظرة قبل أن يتساءل:

ـ ألا تثق في العدالة؟

أجاب سليل المكني ببرود:

ـ أنا لا أثق بشيء أبداً!

استدرك بعدها ليضيف:

ـ باستثناء المفاجآت التي حدّثتك عنها منذ قليل.

تابعه أبو شاقور بفضول. تساءل أخيراً:

ـ ولكن كيف يبدو الأمر مع المفتي؟

أجاب المكّني بلا تردّد:

ـ مع المفتي يختلف الأمر كثيراً.

ـ السؤال بطبيعة الحال ليس عن صدق نوايا المفتي، ولكن السؤال هو: ماذا يريد المفتي؟

شيّع سليل المكّني بصره نحو مضيفه. تبادلا نظرة سريعة. قال المكّني:

ـ الانتقام!

ـ الانتقام؟

ـ وأنا لم أثق يوماً في إنسان يخاطر بحياته إرواءً لانتقام!

ـ ليس محمد باشا القرمانلي من طعن سلفه في حرم مسجد الباشا، ولكن أولئك الذين أرادوا إسكاته هم من فعل ذلك.

ـ هذا ما يقوله البعض، في حين تتردّد في المملكة حول مصرعه تكهنات أخرى.

تململ في جلسته. مسّد شاربيه الكثّين. ثم أضاف:

ـ ولكن ليس هذا ما يهمّ اليوم. ما يهمّ اليوم هو الخشية على العمل من أناسٍ يتعطّشون لاستنزال الثأر!

ـ هل تعتقد أن بوسعهم ارتكاب حماقات أم أن الأمر مجرّد تطيّر!

تشبّث المكّني بالصمت زمناً. ويبدو أنه ذهب في رحلة قبل أن يقول بلهجة من اغترب بعيداً:

ـ أخشى أن تلحقنا لعنته!

ـ أتظنّه جديراً بحمل اللعنة في عبّه وهو مفتي الديار الليبية؟

ـ الانتقام طبيعة في قلوب أهل السياسة لا رجال الدين الذين يفترض فيهم التحلّي بروح التسامح!

قطع أبو شاقور في المكان خطوات ذهاباً. توقّف برهة. قال دون أن يلتفت:

ـ لو فكرنا مليّاً لاكتشفنا أن الانتقام هو طبيعة دنيانا الثانية بعد اللّهو.

استفهم الضيف بإيماءة فأوضح المضيف:

ـ أريد أن أقول أن ما نفعله كلّه كثيراً ما يبدو لي الآن مجرّد انتقام بدليل أن الفوز رهين بإرواء الشهوة إلى الانتقام!

ـ ظننت أن الشهوة إلى نيل العدالة هي غايتك لا الشهوة إلى الانتقام!

ـ ألا ترى أن طلب العدالة ما هو إلا انتقام من أهل الجور؟

ـ ربّما لهذا السبب لا نحقّق العدالة؛ لأن ربّ العالمين لا يغفر الشهوة إلى الانتقام أبداً.

سكت أبو شاقور. تمشّى في المكان خطوات أخرى. قال:

ـ فلنؤجّل الحديث عن العدالة إلى يوم آخر. أمّا الآن فحدثني عن أحوال المملكة بالتفصيل.

ـ المملكة كما تركتها، كل ما هنالك أنها ازدادت في الآونة الأخيرة غلياناً!

ـ ماذا عن القبائل؟

ـ طفح الكيل بالقبائل أيضاً، ولم تجدِ حتّى تدابير ولي العهد الذي تولّى تكبيل هذه القبائل بالمواثيق.

ـ وبرغم هذا فإن الاطمئنان إلى القبائل مخاطرة!

ـ كل شيء مخاطرة!

ـ أردت أن أقول أن التحالف مع قوم تعبث بهم الأهواء ليس من الحكمة في شيء!

ـ إذا لم تتحالف مع القبائل فليس أمامك إلاّ أن تبحث عن حلفاء في صفوف أعدائك؟

ـ في صفوف أعدائي؟

ـ من هم أعلاج القلعة إن لم يكونوا أعداؤك؟ من هو صاحب

النفوذ في المملكة كلّها إن لم يكن «جورجيو» اليوناني الملقّب باسم حسن وهو أبعد ما يكون عن الحُسْن خُلُقاً وخِلقةً؟ من هي الساحرة التي استولت على عقل الباشا بعد أن صادرت قلبه إن لم تكن الكاهنة «استير»؟ من هو كاهيته، أو قائد جيشه، أو رئيس بحريته، أو خازن داره، أو أمين سرّه، أو أمين بيت ماله، أو أمين مخازن باروده، إن لم يكونوا جميعاً علوجاً يدّعون زوراً اعتناق الإسلام في حين يتسلّطون على رقاب أبناء الإسلام باسم الباشا الذي لم يعد باشا طرابلس منذ زمن بعيد، بل مجرّد شبح من أشباح القصر؟

سكت المكني. نفث أنفاس اليأس قبل أن يضيف:

ـ الفوز الذي لا يأتي من خارج أسوار المدينة يأتي من داخل أسوار المدينة. وإذا أردتَ وصيّتي فإن البحث عن الفوز من الداخل أجدى من البحث عنه من الخارج!

استنكر أبو شاقور:

ـ هل تريدني أن أبحث عن حليف بين أعلاج القلعة حقّاً؟

ـ لو فتّشت عن حليف من بين الأعلاج لما وجدت بينهم حليفاً واحداً لأن لا أحد يذهب ليطيح بسلطان يملكه جرياً وراء سلطان مزعوم. ولكن ما أردت أن أقوله أن مهاجمة الحصون من الخارج مغامرة غير مضمونة النتائج، لأنها تتطلّب جيشاً منظماً ومسلحاً تسليحاً جيداً، كما تتطلّب نفَساً طويلاً، ناهيك عن تأمين التموين لأمد طويل أيضاً. وهو ما لا طاقة لك به في حلفك مع قبائل الدواخل الملولة أوّلاً، والمتقلبة المزاج ثانياً!

تابعه أبو شاقور بفضول شديد. قال بعد صمت:

ـ ماذا تقترح؟

ـ حليفك الوحيد: الفجاءة!

ـ ها قد عدنا إلى الفجاءة!

ـ إذا لم تفلح بالمباغتة فلن تفلح أبداً!

ردّد أبو شاقور غائباً:

ـ الفجاءة!

ـ والفجاءة لا تأتي من الخارج، بل الفجاءة حرية نهدهدها في قلوبنا كما تهدهد الأم وليدها تحت قلبها قبل أن تلده من بطنها!

تقدّم منه أبو شاقور حتى وقف فوق رأسه. انحنى فوقه ليقول بصوت كالفحيح:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أريدك أن تتحصّن بأسوار المدينة بدل التنقّل في ربوع المنشية!

ـ هل تريدهم أن يقبضوا عليّ كالفأر وهم أعلم الناس بنواياي؟

ـ تستطيع أن تتنكّر في جبّة درويش كما يتنكّرون هم في أبدان المسلمين!

ـ وهل تظنّ أن فئة الدراويش في أمانٍ من عيون جواسيسهم التي لا تنام؟

ـ جبّة الدرويش ليست حصانة حقّاً، ولكن إيمان القلب هو الحصن الأوّل والأخير.

ـ لإيمان القلب يستوي المكان الذي يحويه البدن. أليس كذلك؟

ابتسم المكني. قال:

ـ إذا استودعتَ بدنك الخارج اطمأن قلبك لأنك تملك الخيار!

ـ الخيار؟

ـ بلى. هناك تمتلك خيار مميت اسمه: الفرار!

حدّق فيه أبو شاقور بذهول. ولكن المكني أضاف:

ـ والفرار عدوّ أي فلاح. أمّا في داخل الأسوار فلا أمل في الفرار. واليأس هو مبدع البطولات لا الأمل!

ساد صمت. في الخارج عوى الريح. على زجاج النافذة تساقطت قطرات مطر. تمتم أبو شاقور بلهجة غريبة:

ـ ومن يضمن لي أنك لم تأتني من قبلهم رسولاً غايته الإيقاع بي؟

على شفتي المكّني تبدّت بسمة سخرية. قال ببرود:

ـ تثق أو لا تثق. الثقة أيضاً مجازفة مثلها مثل أيّ عمل بطولي آخر. وإليك وحدك يرجع الخيار!

عاد أبو شاقور يذرع المكان. تمتم غائباً:

ـ ألا يقال أننا لا يجب أن نثق بأحد أبداً؟

ـ بلى. الثقة بالأغيار خيانة للواحد الأحد دائماً، ولكن ما العمل إذا كانت البطولة تستلزم الثقة بالأغيار أحياناً؟

فكّر أبو شاقور قليلاً. تساءل:

ـ لو قررتُ استبعاد التنكّر، فهل تتخلّى عنّي؟

المكّني لم يجب. أضاف أبو شاقور:

ـ أردت أن أقول أني لا أنوي أن أخسرك، كما لا أنوي أن أخسر نفسي!

لحظتها تكلّم الضيف بلهجة غريبة كأنها صوت المجهول:

- من ينوي أن يكسب البطولة ولا يريد أن يخسر نفسه يخسر عادةً البطولة ويخسر إلى جانب البطولة نفسه.

3

الخريف.

في هذا العام هطل الغيث مبكّراً فهلّل أبو شاقور واستبشر بالمطر خيراً. كان قد عاد منذ يومين من منفاه في تونس. واجتمع بأنصاره في بيت المفتي في المنشية. ثم بعث برسولٍ إلى المدينة لاستدعاء المكّني. جلس بعدها في البستان المبلل بقطرات الغيث، المعطّر برائحة الأرض الظمأى، يحيط به أنصار يبدون أشبه بحفنة من الغوغاء، في حين جلس في مواجهته بعض الأشياخ يتصدّرهم صاحب دار الإفتاء الذي استمرّ طوال الوقت يرجم حكم الأعلاج بأحطّ النعوت إلى أن انتهى إلى القول بأن الفاكهة في الشجرة إذا اكتمل نضجها فلا يبقى لها إلا السّقوط، والشجاع هو من يسبق أوّلاً إلى البستان ليقطفها. ساد صمت قصير قبل أن يتكلّم شيخ وقور ظلّ يمسّد لحيته الموشاة بالشيب طوال الوقت متشبّثاً بالصمت. قال:

- أظنّ أن سقوط الثمار بعد نضجها ليس ناموساً!

التفت إليه القوم وحاصروه بنظرات الفضول. أضاف مشيراً إلى شجرة في ركن البستان:

- انظروا إلى ثمار البرقوق في تلك الشجرة! لقد تيبّست في الأغصان بعض قطع الفاكهة بعد أن نضجت، ولكنها ما تزال تتشبّث بالأعراف وتأبى أن تسقط!

تساءل أبو شاقور:

ـ ماذا يريد شيخنا الفاضل أن يقول؟

رفّت على شفتي الشيخ بسمة غموض وهو يمضي في تمسيد لحيته بهدوء. قال:

ـ أردت أن أقول أن ما يقال عن أمّنا الطبيعة لا يصدق دائماً على الممالك!

حاججه المفتي:

ـ أليست مملكة الإنسان مجرّد محاكاة لمملكة الطبيعة يا شيخنا؟

ثم استدرك ليضيف:

ـ بل أنها محاكاة ركيكة أيضاً؟

أجاب الشيخ بروح اليقين ذاتها:

ـ ها أنت تضع إصبعك على الدّاء فتقول أنها ركيكة. يجب أن ننتبه إلى أن السرّ يكمن في ركاكتها هذه!

ساد صمت. تبادل القوم النظرات. همّ أبو شاقور أن يتكلّم، ولكن الشيخ أضاف:

ـ الممالك صنعتها يد الإنسان. ويد الإنسان ملطخة بخطأ مجهول لا نعلمه. ولا أريد أن أتفقّه فأقول أنه خطيئة آدم. ولكن ما أدريه هو أن في كل ما يبدعه الإنسان بصمة لا بدّ أن تعلن عن نفسها. لأنها.. لأن مظهرها يخون باطنها فتبدو ملفوفةً في سيماء بعيدة عن حقيقتها. ولهذا السبب قد يبلغ الفساد بالثمار الذروة، وبرغم ذلك لا تسقط! والأمم جرّبت أصناف جورٍ لم تعرف لها

الأجيال نظيراً في مسيرتها الطويلة، وبرغم هذا فإن الجور لا ينقشع حتى لو أدرك الذروة. وإذا شئتم يقيني فإن الإثم الذي كان دائماً عصب الممالك قد أوتي قدرة أكبر على مقاومة الزمان!

هيمن صمت جديد. من الشمال هبّت نسمة مثقلة برائحة البحر. فوق البستان تكاثفت غياهب العتمة. بعد قليل أقبل الخدم بالمشاعل.

تكلّم المفتي:

ـ هل يعني هذا أن نسكت على الجور ونقف مكتوفي الأيدي ونحن نرى المناكر تُرتكب في حقّنا وفي حقّ ديننا ووطننا كل يوم دون أن نحرّك ساكناً لتغيير ما بقومنا؟

ولكن الشيخ احتكم إلى الآية:

ـ لا يغيّر الله ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم، فاحترسوا!

هبّ المفتي في وجهه:

ـ لماذا علينا أن نحترس؟ ألن يكون ما نفعله الآن هو التغيير الذي حرّضنا عليه الكتاب؟

أجاب الشيخ ببرود:

ـ كلاّ، كلاّ. ما تنوون فعله الآن ليس التغيير الذي حرّض عليه الكتاب، بل هو تغيير الدنيا بيد مريد الدنيا لا مريد الحقّ!

ضرب المفتي كفّاً بكفّ. صاح بانفعال:

ـ لو صدق ما تقول لما بقي للجهاد معنى!

قال الشيخ بهدوء كأنه اللامبالاة:

ـ الجهاد الحقّ هو الجهاد ضد النفس لا ضد الأغيار!

همهم الخلق باستنكار. تساءل المفتي:

ـ ضد النفس؟

أجاب الشيخ:

ـ ضد النفس الأمّارة بالسوء!

ـ ولكن ماذا عن السوء نفسه؟

ـ السوء من شأن الأقدار!

ـ هل تريد أن تقول أننا يجب أن نقف مكتوفي الأيدي ونحن نرى كيف تداس المقدسات وتنتهك الأعراض وتُنتهب خيرات الأرض؟

ـ ما أتت به الأقدار تذهب به الأقدار، والانتظار الذي أعنيه ليس انتظار المكتوف اليدين، ولكنه انتظار المؤمن بآية اسمها الصبر!

حدّق فيه المفتي. مال ببدنه إلى الأمام. قال بلهجة سخرية:

ـ آمل ألا يكون حضرة الشيخ من دعاة التسليم!

في تلك اللحظة أعلن الخدم عن وصول المكني فنهض الأكابر لاستقباله، ولكنهم عندما التفتوا في نيّة لتقديمه إلى الشيخ اكتشفوا أن الرجل قد اختفى!

4

ترنّم الباشا بلحنٍ مجهول سمعه مرّة من فم عابر سبيل فراق له إلى حدّ أنه ظلّ يروّضه كلّما عصف به حنين أو لعب برأسه الراح. توقّف ليلتها عن ترديد اللحن وسأل «إستير»:

ـ ماذا يقول كتابكم عن الحياة الدنيا؟

تضاحكت المرأة بدلال كلّفها مراناً عسيراً قبل أن تتقنه، ثم قالت:

ـ الحياة الدنيا باطل يا مولانا. كتابنا يقول أن الحياة الدنيا باطل أباطيل وقبض ريح يا سعادة الباشا!

ردّد الباشا:

ـ باطل أباطيل وقبض ريح!

تناول كأساً مترعة بعصارة وردية اللّون. رشف جرعة فازدادت عيناه احمراراً وجحوظاً. همّ بأن يمسح شفتيه المفلطحتين براحة يده، ولكن النديمة الزنجية هبّت لتمسح قطرات النبيذ عن شفتيه بمنديل معطّر من الحرير. علّق الباشا ضاحكاً:

ـ آهٍ كم أعاني من هاتين الشفتين الغليظتين! هل تدرين يا «إستير» أن الأقران كانوا يعيّرونني بهما أيّام الطفولة وينعتونني بأنني زنجي؟!

ضحك حتّى استلقى إلى الوراء. أضاف:

ـ أعدائي ما لبثوا أن استغلّوا خطيئة البطن هذه فأشاعوا أن أمّي زنت مع أحد عبيدها الزنوج! ها ـ ها ـ ها...

مسح بيده عرقاً غزا جبينه. أضاف وهو يلتفت إلى محظيّته الزنجية:

ـ الخبثاء يدّعون أن سرّ ولعي بكِ يا «زهرة» إنما يرجع بأصوله إلى تلك الخطيئة!

ضحكت زهرة. ضحكت «استير» أيضاً.

قالت:

ـ الخبثاء سيدّعون في كل الأحوال يا مولانا. والإنسان لا يستطيع أن يُسكت كل الألسن حتّى لو أوتي سلطان الإسكندر الأكبر أو يوليوس قيصر!

ـ صدقتِ. لقد قالوا في أحمد الأكبر أكثر مما قاله مالك في الخمر وهو الذي لم يقل سلطاناً في هذه البلاد عن سلطان الإسكندر أو قيصر. أمّا أبي فسيرته ما تزال مضغة في الأفواه إلى يومنا هذا!

هنا تدخّلت زهرة:

ـ يُقال، يا مولانا، أن السلطان لن يأمن شرّ الرعيّة ما لم يترك لألسنة أبناء الرعية العنان!

علّقت «إستير»:

ـ أن يقولوا دائماً أهون من أن يفعلوا!

قال الباشا:

ـ ولكن قول السوء موجع!

أطلق تنهيدة قبل أن يضيف:

ـ آهٍ كم هو بليّة قول السوء!

قالت «استير»:

ـ قول السوء بليّة حتّى لو كان حقيقة، فكيف إذا كان أكذوبة؟

زفر الباشا أنفاساً بنفاذ صبر، ولكن «استير» حاولت أن تبحث عن عزاء:

ـ قول السوء نار في قلوب حتّى البلهاء فكيف بأصحاب السلطان؟

تدخّلت زهرة:

ـ ولكن قول السوء، يا مولانا، تميمة ضد السوء الأسوأ من قول السوء!

ردّد الباشا:

ـ هذا ما يقال!

ثم مال نحو «استير» ليقول:

ـ أعيدي ما يقوله كتابكم عن الحياة الدنيا فقد نسيت!

ابتسمت «استير» بخبث وهي ترمق زهرة بنظرة ذات معنى. قالت:

ـ الحياة الدنيا باطل أباطيل يا مولانا.

ـ وماذا يقول عن الحياة الأخرى؟

ـ عن الحياة الأخرى يقول: «ليس من عملٍ، ولا اختراع، ولا معرفةٍ، ولا حكمةٍ في الهاوية التي أنت ذاهب إليها»!

اكتأب الباشا. تناول الكأس بين يديه. قال غائباً:

ـ إذا كانت الدنيا باطل أباطيل، والحياة الأخرى هاوية لا خير فيها، فأين يريدنا ربكم أن نفرّ؟

ضحكت زهرة، في حين قالت «استير»:

ـ الخلاص في تقوى الله يا سعادة الباشا!

ـ هل هذا ما يقوله كتابكم أيضاً؟

ـ بلى يا مولانا.

سكت الباشا. تناول من كأسه رشفة. سقطت من شفته السفلى قطرة. همّت زهرة بأن تمسح شفتيه بالمنديل ولكنه استوقفها بإشارة. قال:

ـ أريد أن أقرأ كتابكِ هذا يا «استير» فكيف السبيل إلى ذلك؟

قالت «استير»:

ـ أن تتعلّم لغة بني عبران يا مولاي؟

ـ وكيف السبيل إلى تعلّم لغة بني عبران؟

ـ أقصر سبيل لتعلّم لغة بني عبران، بل ولتعلّم أيّة لغة في هذه الدنيا، هو: المخدع!

أطلقت «استير» ضحكة. ضحكت زهرة أيضاً. قال الباشا:

ـ هذا يعني أنّي أفشل تلميذ في هذه المملكة!

تساءلت «استير»:

ـ لماذا يا مولانا؟

ـ لأني أشاركك المخدع منذ سنين دون أن أفلح في تعلّم جملة واحدة باستثناء: «شالوم آليكم»! ها ـ ها ـ ها..!

ضحكت المرأتان بأعلى صوت، في حين أضاف الباشا:

ـ وكأنّ «شالوم آليكم» هذه كلمة أخرى غير: «السلام عليكم»!

عاد الباشا يروّض لحنه العجيب، في حين انطلقت المرأتان في حديث مهموس وهن يختلسن النظرات نحو الباشا.

قطع الباشا لحنه ليقول:

ـ أنت يا «استير» تبخلين عليّ بتعلّم لسان أهلك، في حين لم أبخل عليك حتى بقربان!

استعجبت «استير»:

ـ بقربان؟

ـ بلى. لقد قطعتُ صباح اليوم يد أحد الأشقياء لأنه رسم صورتك في لوح وذهب ليبيعه في السوق!

ـ حقّاً؟!

ـ لو وقع بصركِ على ذلك اللوح اللعين لكافأتني بما هو أكبر من لغة بني عبران يا «استير»!

ـ ماذا رسم الشقيّ في ذلك اللوح بربّ مولانا؟

ـ رسم مؤخرتك على هيئة قلعة!

ـ قلعة؟

ـ أمّا نهدك الأيسر فقد شيّعه فوق القلعة على هيئة حصن الأسبان!

ـ حصن الأسبان؟!

ـ ونهدك الأيمن على هيئة حصن الفرنسيس!

ـ لا!

ـ أعترف لكِ بأنه عمل لا يخلو من تسلية برغم ما فيه من لؤم. ولولا خوفي من البلبلة لكافأته عليه بدل العقاب الذي استنزلته بحقّه!

ثم قهقه بصوت عالٍ سمعه العسس الذين يرابطون خارج القصر!

5

قال المكّني:

ـ سمعتُ على لسان النذير كلاماً، وأنا في طريقي إليكم، ما كان يجب أن أسمعه!

تساءل أبو شاقور:

ـ وأيّ كلامٍ سمعته من النذير ولم يَرُقْكَ؟

ـ النذير يطوف الأنحاء ويطرق أبواب أهل المنشية بيتاً بيتاً مردّداً أن النصارى استولوا على القلعة والباشا قد نُحر مع عائلته، فمن الذي لقّن النذير ليقول هذه الأكاذيب.

أجاب أبو شاقور ببرود:

ـ إذا لم نهوّل فلن يهرع لنجدتنا أحد!

ـ نهوّل؟

تدخّل المفتي:

ـ لإضاعة الأثر لا بدّ من إثارة الغبار!

استعجب المكني:

ـ هل تريدون أن تستميلوا الناس لتستولوا على السراي بعون الكذب؟

قال أبو شاقور:

ـ لن يكتشف الناس الحقيقة من الأكذوبة إلاّ بعد انقشاع الزوبعة. هذا من جهة...

تساءل المكّني:

ـ وماذا في جعبتك من جهة أخرى؟

ـ من جهة أخرى فإننا لا نحتكم إلى الكذب إلاّ لانتزاع منفعتهم!

ـ انتزاع منفعتهم؟

ـ لا نفعل ما نفعل إلاّ طلباً لسعادتهم!

ـ أخشى أنهم لن يكونوا سعداء فيما لو اكتشفوا أن الأكذوبة كانت ثمن سعادتهم!

ـ لا تنسَ أننا في حالة حرب. والحرب كانت خدعة منذ خلق الخالق الخليقة!

ـ ما كان يجب أن تنسى أننا في هذه الحرب شركاء. وواجب الشريك أن يشرك الشريك في الشاردة والواردة!

ابتسم أبو شاقور وهو يقول:

ـ لقد قررنا أن نهدي لك مفاجأة صغيرة لعلمنا بأنك مريد مفاجآت!

أطلق ضحكة. قال المكّني:

ـ ليس على مريد المفاجآت أن يُفاجأ بشيء حقّاً!

تدخّل المفتي:

ـ جدير بنا أن نبحث أمر حصار القلعة بدل تبديد الوقت في هذا الجدل العقيم.

قال المكّني بلهجة استخفاف:

ـ أخشى أن القلعة هي التي تحاصرنا الآن لا نحن من يحاصر القلعة!

تطلّع إليه الأكابر بدهشة. كانوا يبحثون بنظراتهم عن تفسير.

أضاف:

- بلغني أن الباشا استنجد بزعماء الدواخل!

هبّ أبو شاقور:

- بل نحن من استنجد بزعماء الدواخل!

- وهل تلقيتم من أشياخ القبائل ردّاً؟

- بلى. ففلول قوات الشيخ عمّورة على أبواب تاجوراء!

استغرب المكّني:

- هل قلت قوّات الشيخ عمّورة؟

- بلى.

- ما أدريه أن الشيخ عمّورة صديق حميم لعائلة الباشا!

تبادل الرجال النظرات. قال أحد الشيوخ:

- آمل ألاّ تكون وعود الشيخ عمّورة خدعة!

في الركن المغمور بالعتمة، عند جذع شجرة التين، سمع الجمع ضحكة مكتومة وصوت أحد الأكابر يقول:

- وراء الأَكَمَة ما وراءها!

تدخّل المفتي:

- ليس للشيخ عمّورة مبرر واحد لكي يخون!

قال المكّني:

- بل ليس للشيخ عمّورة مبرّر واحد كي لا يخون!

خيّم صمت. في الحقول تنادت الجنادب في أغنية كئيبة كأنها مواويل الصبايا زمن الحصاد. مواويل فجيعة، ولم تكن يوماً مواويلاً للتعبير عن فرح.

خارج البستان سمع الجمع جلبة غامضة. بعد قليل تبيّنوا صهيل خيل، ودبيب حوافرها المكتوم يقترب ليزعزع الأرض. هتف أبو شاقور:

- ألم أقل لكم؟ إنهم فرسان الشيخ عمّورة..

ما كاد أبو شاقور ينهي العبارة حتّى علت صيحات موجعة حسبها المحفل في البداية صيحات حماس، ولم يدركوا أنها صرخات أناس يلفظون أنفاسهم الأخيرة إلا بعد أن اقتحم فرسان الدواخل المكان وبدأوا يروون أنصال سيوفهم من دماء الرقاب.

كان أوّل من خرّ المفتي، فاستلّ أبو شاقور سيفه في نيّة للدفاع عن نفسه، ولكن، كما اتضح، بعد فوات الأوان، لأن فارساً مزمّلاً بعمامة سوداء عاجله بغتة بضربة من سيفٍ خرافيّ فطار رأسه عن جسده.

وقف المكّني مشلولاً وهو يشاهد كيف تدحرج رأس شريكه فوق أرض البستان عارياً من العمامة. تدحرج مسافة طويلة تحت أضواء المشاعل حتّى استقرّ عند جذع شجرة زيتون هرمة. ويبدو أن الرأس، بعد أن تحرّر من العمامة، كان سيمضي في رحلته الدامية إلى الأبد لو لم تعترضه الشجرة. ولكن ما شلّ المكّني ليس فرار الرأس إلى المجهول بعد أن تعرّى (تعرّى كأنه تطهر في رحاب الحرم من لفافة الاستكبار، كأنه يتطهّر من أعفان الدنيا ومن بدع أهل

الدنيا)، ولكن الإيماء الذي رآه في هاتين الحدقتين المثبتتين في محجرين محفورين في ذلك الرأس هو سرّ الشّلل. كان الإيماء مزيجاً من الاستفهام، والعجب، والتسليم، والسخرية؛ ولكن بلا ظلّ لا لندمٍ ولا ليقين.

أمّا الجسد فلم يهوِ أرضاً حتى بعد أن فقد ربّه بأمدٍ طويل. بل انتصب باستعلاء الأنصاب لا بكبرياء الجلاميد الصمّاء كما تخيّل. استمرّ واقفاً، ممسكاً في اليد اليمنى بمقبض السيف الذي جرّده من غمده، ولكن الأقدار لم تمهله لاستخدامه، في حين فزّ من قمّة البدن الخاوية، المشيّعة فوق المنكبين اللاّمباليين، دم خامل شبيه بمياهٍ شحيحة في نبعٍ جبليّ كسول من منابع جبل نفوسة!

6

في السراي تكلم الباشا فقال:

- التعبير عن الاستياء تمهيد للعمل، لأن الأقوال ما هي إلاّ البدائل الشرعية للأفعال!

صاح حسن بك:

- ولكن الكلّ يقول في هذه المملكة، يا أبتي، فلماذا تريد أن تقتصّ من أشقّاء أبيك ومن شقيقك من دون الناس جميعاً؟

- أن يتكلّم الأغيار عنّي بالسوء رذيلة يمكن أن تُغتفر، ولكن أن يتكلّم عنّي أبناء العائلة المالكة بالسوء فتلك رذيلة تنذر باقتراب الشرّ!

- ولكن لماذا يا مولانا؟

ـ لأن أحدهم أخي الشقيق، والأربعة الباقون أخوة الأب. والأخوة يجب أن ينصروا أخاهم ظالماً أو مظلوماً، لا أن يغتابوه كما يغتابه الأعداء!

ـ ما يقولونه ما هو إلاّ لغو يردّده الناس في المجالس لتزجية الوقت أو لطلب التسلية، ولا أظنّ أنه يستوجب القصاص الرهيب الذي تريد أن تستنزله بحقّهم!

ـ لا أستنزل بهم سوى القصاص الذي يستنزله الملوك بأعداء الملوك!

هبّ حسن بك واقفاً. قطع في المكان خطوات. صاح:

ـ إذا كنت لا تريد أن تتقي فيهم الله، يا أبتي، فما أجدرك أن تتقي فيهم خلق الله!

هتف الباشا:

ـ أفصح!

ـ أنت لا تدري يا مولاي أن هلاكهم سوف يجرّ علينا شروراً أكبر بكثير من الشرور التي تنتظرها منهم فيما لو وهبت لهم حياتهم!

ـ لماذا؟

ـ الناس، يا مولانا، الناس! أنت لا تحيا بين الناس يا أبي كما أحيا أنا. إن سخطهم أخطر بكثير من مكائد الأقرباء ومن مؤامرات كل الأعداء. وصاحب السلطان الذي وهبه الله قدْراً من دهاء يغفر خطايا هؤلاء إكراماً للناس وأخذاً بجاه الرعية التي لن تنسى لمليكها هذا المعروف أبداً!

ابتسم الباشا باستهزاء في حين أضاف حسن بك:

- الحاكم الحكيم هو الذي يغفر الخطايا حتّى لقتلة سدّدوا له طعنات الخناجر، لأنه يعرف أنه لن يشتري بهذا الغفران حسن ظنّ أهل الأرض وحدهم، ولكنه سوف يشتري غفران السماء أيضاً!

قال الباشا دون أن تفارق بسمة الاستخفاف شفتيه:

- لا تسبّ الحاكم حتّى في سرّك! هذا ما يقوله لسان السماء!

توقّف حسن بك عن خطوه. التفت نحو الأب. قال بلهجة يأس:

- هذه عبارة مستعارة من سماء «إستير» يا أبتي لا من سمائنا. هذه وصيّة مستعارة من ربّ «إستير» لا من ربنا. كنت أعرف أن «إستير» وراء هذه المكيدة.

ولكن الباشا حذّره بسبّابته:

- احترس أن تغتاب «إستير» حتّى في غيابي، ناهيك عن اغتيابها في حضوري!

- الكلّ يعرف أن «إستير» لا تكره شيء في هذه المملكة كما تكره كل ما له صلة بآل القرمانلي. إستير تكرهني أيضاً، يا مولاي، لأنها تنوي أن تحطّم نواميس الممالك فتورث العرش لابنك الأصغر بدل ابنك البكر!

عاد الباشا يتوعّد بسبّابته:

- إيّاك أن تردّد في سمعي الهراء! واعلم أني إذا كنت أريد أن أقتصّ من أعمامي ومن شقيقي الأصغر فإنما أفعل ذلك إكراماً لك

لأن العرش الذي يريدون أن يسلبوه من بين يديك هو عرشك أنت لا عرشي أنا!

ـ بل هو العرش الذي يريده الكل في هذا القصر لشقيقي يوسف لا لي أنا بداية بالخدم ونهاية بك أنت يا أبي، مروراً بالأعلاج والربابنة والحريم وحتّى الأم!

لوّح الباشا بيده في الهواء كأنه يتوعّد عدوّاً مجهولاً في حين أضاف حسن بك:

ـ إنّهم يريدونك أن تتخلّص من آل القرمانلي ظنّاً منهم أنهم سندي الأخير كي يزيحوني من طريقهم أيضاً. . .

قاطعه الباشا:

ـ هل جئت لتفسد عليّ ما تبقّى من يومي؟

ـ بل جئت يا مولاي لأنقذك من خطأ. .

ـ ها ـ ها. .

ـ الدنيا لم تستفق بعد من هول الدماء التي سُفحت للقضاء على تمرّد أبي شاقور. وليس من الحكمة أن نضيف إلى ذلك السيل قطرة دم أخرى اللّهم إلاّ إذا كنّا ننوي أن يبلغ السيل الزُّبَى!

ـ أنت لا تملّ الحديث عن عصيان ذلك الوغد لتذكّرني بأنّك أنت من أنقذني!

ـ بلى. أنقذك حلفي مع الشيخ عمّورة الذي سخرتَ منه يوماً، ولكني لم أفعل ذلك لأتباهى، ولكن ليقيني بأني عندما أنقذك فإنما أنقذ نفسي!

ـ لقد برهنت لي بما لا يدع مجالاً للشكّ بأن الصفقات تنقذ حتّى الحياة أحياناً. ها ـ ها ـ ها.

ـ ذلك لأن الحياة، كما يبدو، صفقة لا تختلف عن أيّ صفقة تجارية!

ضحك الباشا. اغتصب حسن بك ضحكة أيضاً. قال الباشا فجأة:

ـ المشكلة الآن ليست في أقطاب الكيد الخمسة، ولكن المشكلة في ذريّتهم!

حدّق الابن في عين الأب بذهول. حشرج بصوت بحيح كأنه مخنوق بالعبرة:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

أجاب الباشا ببرود:

ـ أردت أن أقول أن المشكلة ليست في التخلّص من عصابة الكيد، ولكن في الكيفية التي يجب أن نتخلّص فيها من ذرّيتهم!

هتف حسن بك بذهول:

ـ من ذريّتهم؟

ـ اعلم أن ذريّتي في خطر ما ظلّ على قيد الحياة مخلوق واحد من سلالتهم!

ـ ولكن.. ولكن سلالتهم ما هي إلاّ سلالتنا!

ـ لا جدوى من قطع رأس الحيّة إذا تجاهلنا صغار الحيّة!

ساد صمت. همس حسن بك كأنه يخاطب نفسه:

ـ لا أصدّق ما أسمع!

ثم أضاف:

ـ أيفعل هذا من يقول عنه الناس أنه أرحم الآباء؟ أيفعل هذا من يقول عنه الناس..

قاطعه الباشا:

ـ إذا فعلت هذا فإنّي سأفعله من أجلك!

ـ من أجلي، أم من أجل يوسف؟

أجاب الباشا ببرود:

ـ من أجلك ومن أجل يوسف ومن أجل أحمد أيضاً!

ـ ولكن ماذا عن الوازرة التي يقول الكتاب أنها لا يجب أن تزر وازرة أخرى؟

لوّح الباشا بيده في الهواء تعبيراً عن الاستياء. قال وهو يهمّ بالنهوض:

ـ لا تفسد عليّ يومي أكثر مما أفسدت!

تقدّم البك خطوتين كأنه ينوي اعتراض طريق الأب. قال:

ـ إذا فعلت شيئاً بالأبناء فسوف تفقدني إلى الأبد!

استفهم الباشا بنظرة فأضاف البك:

ـ سأهاجر إلى تونس. سأهجر كل شيء وألتجىء إلى أشراف مراكش!

رمى الأب بنظرة تحدٍّ قبل أن يستدير ليخرج بخطوات واسعة كأنه يلوذ بالفرار.

في مقهى «الأعمدة الأربع» لم يتنازل صاحب البياض عن اشمئزازه منذ فقد حميمه القديم الذي خرج ولم يعد من رحلة سفر.

اليوم أيضاً لم يفت صاحب البياض أن يعبّر عن اشمئزازه ما أن اقتعد كرسياً في ركن المقهى المشرف على تقاطع الشوارع الأربعة كأنها جهات الدنيا الأربع:

ـ أليس قصاصاً أن يحيا الإنسان في وطنٍ يُنحر فيه الأعزّة كما تُنحر الخراف دون أن يحرّك الخلق ساكناً؟

بصق جانباً، ثم لفظ من فمه سبّةً فاحشةً في اللحظة التي أقبل فيها نادل المقهى حاملاً له قهوته التقليدية الخالية من صنوف خمورٍ يقال أن الرجل كان يروق له أن يطلق عليها اسم «قطرات الترياق» في السنوات الخوالي عندما كان يرتاد المقهى برفقة حميمه الغابر، ولكنه ما لبث أن تنازل عن ترياقه هذا بعد غياب القرين برغم أنه لم يتنازل عن زياراته الخالدة إلى المقهى ولا عن تعليقاته الغريبة حول الأحداث السخيّة التي تشهدها المملكة سيّما ذلك الضرب من الأحداث الذي لا يروق لأهل المدينة أن يتحدّثوا عنه إلاّ إيماءً، وربّما همساً إذا غلبهم سلطان اللسان على أمرهم فتجاسروا.

اليوم أيضاً تحدّث الناس إيماءً على أمل أن يخلوا في الليل إلى ذويهم أو أحبابهم ليحدّثوهم همساً عمّا سمعوا في الصباح. وربّما لهذا السبب راق لهم أن يسمعوا الرجل الملفوف بالغموض والبياض والاستياء وهو يعبّر بصوتٍ عالٍ ما أعجزهم الخوف أن يعبّروا عنه

بعضلة اللسان. لم يفت النادل أيضاً يومها أن يحذّر الرجل كما اعتاد أن يفعل دائماً:

- يحسن بمولانا أن يحترس، لأن كل ما يراه حضرته هنا ما هو إلاّ الآذان التي لا ترتوي من سمع!

حدجه الرجل بعين مختومة بحوَل قبل أن يقول باستياء:

- هذا من دواعي سروري، لأني لا أقول القول إلاّ لأُسمع الناس قولي!

ولكن النادل مال على الزائر ليهمس في أذنه:

- أريد أن أذكّر مولانا المبجّل بأن الأعزّة الذين تحدّث عنهم لم يُنحروا كما تُنحر الخراف إلاّ لإخفاقهم في قمع عضلة اللسان!

بصق صاحب البياض جانباً قبل أن يقول بسيماء اشمئزاز:

- ولماذا نحيا إذا تنازلنا عن ألسنتنا؟

ابتسم النادل بخبث وهو يقول:

- نستطيع أن نحيا كما يحيا الكلّ: ببطوننا!

كتم ضحكة في اللحظة التي شيّع فيها صاحب البياض رأسه المتوّج بطربوش ناصع البياض ليقتنص إيماء السخرية في مقلة النادل. تكلّم وهو يشيح ببصره جانباً:

- فهمت. تريدنا أن نحيا حياة البهائم!

- ولماذا حياة البهائم يا مولانا؟

- لأن الإنسان إنسان بلسانه لا بجوفه!

- ولكن ماذا نفعل يا مولانا إذا كنّا لا نلاقي حتوفنا إلا بسبب ألسنتنا؟

ـ ذلك لأن خالق الخلق أراد لنا أن نحيا أبطالاً!

ـ هل يرى مولانا أن القول بطولة؟

ـ القول ليس بطولة وحسب، ولكنه ألوهة!

ـ ألوهة؟

زفر الرجل بضجر قبل أن يجيب:

ـ اللسان ليس هبة الربّ، ولكنه رسول الربّ في قلب الإنسان. أمّا البطن فهي نائب إبليس في أبداننا!

انتصب النادل فتبدّى شقيّاً في وقفة تلك اللحظة. سأل:

ـ ولكن ألا نستطيع أن نحتفظ بوصيّة الله هذه دون أن نفقد رؤوسنا؟

تابع الرجل السابلة في الطريق. قال بعد صمت:

ـ الموت قدر صاحب البطولة. لأن من يحمل وصايا الربّ في قلبه كمن يحمل كنوز الدنيا في يده: السيف مسلّط على الرقبة!

تمتم النادل غائباً:

ـ ما أعسر هذا!

ولكن صاحب الغموض لم يرحمه:

ـ تسخرون من الدراويش بألسنتكم وترون فيهم مجانين، في حين تكبرونهم بينكم وبين أنفسكم لأنكم لا تملكون إلاّ أن تحسدوهم على شجاعتهم في القول!

تذكّر النادل أن صاحب البياض صار درويشاً في أعين الناس منذ السنوات البعيدة التي فقد فيها قرينه فصار يجلس في المقهى وحيداً ليحاور أشباحاً مجهولة ويروي لنفسه سِيَراً غريبة بأعلى صوت.

تأمّله النادل طويلاً. قال قبل أن ينصرف:

ـ صدق مولانا: نحن لا نكبر الدراويش إلاّ لهذا السبب!

8

مَثُل الخازندار بين يدي الباشا مكتئباً فانتهره الباشا:

ـ إيّاك أن تحدثني عن خواء الخزانة!

ولكن الخازندار لم يرحمه:

ـ وكيف يريدني مولاي ألاّ أحدّثه عن خواء الخزانة إذا كان الجدب قد حرق الزروع، وقطاع الطرق أجفلوا تجارة القوافل، وتجّار النصارى فرّوا خارج البلاد كما تفرّ الفئران من السفينة التي تشرف على الغرق خوفاً من الطاعون الذي يحوم حول حدودنا الغربية بعد أن تفشّى في تونس؟ أمّا قطعنا البحرية فما زالت تعاني من البطالة منذ فرّ «فيلي» من الخدمة، ومنذ استودعتم «بيجون» السجن وأقعدتم «بيالاص» عن العمل إرضاءً لملك فرنسا!!

أنصت الباشا بعينين مغمضتين، وعندما انتهى الخازندار من سرد تقريره المبتسر سكت الباشا زمناً قبل أن يفتح جفنيه عن عينين حمراوين أجهدهما السهر ليقول:

ـ وبأيّ حيلة تريدنا أن نخرج من الورطة؟

طأطأ الخازندار قبل أن يتجاسر فيرفع رأسه لينظر في عين الباشا:

ـ ليتها مجرّد ورطة يا مولانا. إنها نكبة!

استغرب الباشا:

ـ نكبة؟

ـ الناس بدأوا يهلكون في الدواخل بسبب المجاعة يا مولانا بعد أن هلكت قطعانهم. وشبح هذا الغول زحف على الساحل أيضاً في وقتٍ يلوح فيه في الأفق شبح غول أدهى!

ـ غول أدهى؟ وهل هناك غول أبشع من الجوع؟

ـ بلى يا مولانا. هناك الطاعون!

لوح الباشا بيده في الهواء مستنكراً:

ـ أجارنا الله من الطاعون!

ثم أضاف بلهجة وعيد:

ـ لماذا تريد أن تفسد عليّ يومي؟

ـ لم ألتجىء إلى مولاي إلاّ بعد أن فقدت الحيلة فرأيت أن أحتكم إلى رحابكم علّنا نجد مخرجاً يجيرنا من الخراب!

ـ وماذا تريدني أن أفعل؟

تململ الخازندار في جلسته. قال بعد تردّد:

ـ لو أطلقتم يد فرسان البحر فربّما أفلحوا في إنقاذ ما يمكن إنقاذه يا مولانا!

تساءل الباشا مغمض العينين:

ـ وهل بحريّتنا في وضع يسمح لها بارتياد البحر حتّى تستطيع أن تعود لنا بأسلاب؟

ـ الحقّ أنها لم تكن يوماً في وضع أسوأ ممّا عليه اليوم!

ـ أرأيت؟ تريدون أن تزجّوا بنا في حرب مع أمم النصارى،

وتنسون أننا نقف على مشارف هذا البحر عراةً فيما لو تعرّضنا لقصف القنابل!

شيّع جفنيه، ثم عاد فأغمضهما قبل أن يضيف:

ـ تتصرّفون كأنكم تعيشون عهد القرمانلي الأكبر، ولا تدرون أن البنيان الذي تشيّده بطولات الأسلاف لا بدّ أن يتضعضع يوماً على يد الأخلاف. لأن هناك زمن للشروق، وهناك زمن الأفول!

أنصت الخازندار بذهول. ثم بحث عن العزاء طويلاً فلم يجد غير السُّكر سبباً. بلى، بلى. الباشا ما يزال ثملاً. وهو أخطأ في المثول بين يديه صباحاً. كان يجب أن يستأذن في المثول بين يديه بعد القيلولة. ولكن لا مفرّ الآن من البحث عن مفرّ. وهو لم يقبل على الباشا خاوي اليدين كعادته، ولكنه آثر أن يرهب الباشا بأشباح المصائب قبل أن يخرج له من جعبته الخلاص، أو السبيل إلى الخلاص بالأصح. قرّر أن يجسّ النبض بعبارة: «لو سمح لي مولاي. .» التي اعتاد أن يمهّد بها طريقه نحو الخلاص، ولكن الباشا انتفض في جلسته فجأة كأنه يصحو من كابوس ليقول:

ـ منذ قديم وأنا أسائل نفسي: لماذا يروق للبلايا أن تحلّ على الديار أفواجاً؟

سكت الخازندار انتظاراً لفرصة أنسب. قال الباشا:

ـ في القصر عبيد زائدون عن الحاجة. تستطيع أن تبيع منهم الشطر الأكبر بالمزاد!

شيّع الخازندار نحوه وجهاً شاحباً فوجده قد أغمض عينيه، وربّما نعس من جديد. تململ في جلسته. تجاسر إلى درجة عبّر فيها عن استيائه بإطلاق تنهيدة ضيق. قال:

ـ مولانا يعلم حال السوق في أزمنة البلاء. إن الكساد في أوجه بسبب المجاعات وفرار النصارى!

فتح الباشا عيناً واحدة. قال:

ـ حسناً! مطابخ القلعة ملآنة بأواني الذهب. ما حاجتنا إلى أواني الذهب إذا كان الناس يموتون جوعاً؟ تستطيع أن تأمر بصهرها وبيعها، على الأقل القسم الأكبر منها فيما إذا اعترضت النساء!

عاد فأغمض عينه فتجاسر الخازندار:

ـ لو سمح لي مولاي باقتراح...

لم يتكلّم الباشا. سكن في جلسته وانتظمت أنفاسه حتى أيقن الخازندار أنه نام. ولكنه قرّر أن يكشف عن خطّته حتّى لو لم يجد آذاناً صاغية. حتّى لو أسمع ما جاء من أجله الحيطان. قال:

ـ يعلم مولانا مدى السلطان الذي حققته «إستير» في أوساط التجّار اليهود بفضل حظوتها لدى مولانا. وأعتقد أنها لن تبخل بنجدتنا فيما لو تفضّل مولانا..

هبّ الباشا كالملدوغ:

ـ يستحيل! هل تريدونني أن أتذلّل لأطلب نجدةً من حُرْمة؟ هل احتاج للاستدانة من التجّار إلى وساطة امرأة؟ كلاّ، كلاّ. لن أفعل حتى لو اضطررت لبيعكم جميعاً في الأسواق!

سكت الخازندار. عاد الباشا إلى رحابه. ولكن الخازندار لم يمهله:

ـ حسناً يا مولاي. هناك مخرج آخر. مخرج أخير ووحيد...

لم يستجب الباشا فأضاف الخازندار:

ـ بالأمس صادر رجالنا خمسة عشر طنّاً من الزعفران النقي بعث بها أحد شيوخ الدواخل إلى أحد تجّار الساحل الذين تهرّبوا من دفع المكوس لعدّة أعوام متتالية.

استغرب الباشا:

ـ هل قلت خمسة عشر طنّاً من الزعفران؟

ـ بلى يا مولاي!

ـ أيعقل أن تنبت أراضي الدواخل خمسة عشر طنّاً من الزعفران؟

ـ إنها أرض ليبيا يا مولانا التي تغنّت الدنيا كلها بخصوبة أرضها وأكلت الأركان كلها من خيرها. إنها تستطيع أن تجود بخمسة عشر من الأطنان من أندر صنوف الزعفران في زمن الجدب فكيف بزمن الغيوث؟

لمع في عين الباشا وميض. ويبدو أن غنيمة الزعفران انتشلته من غفوته تماماً. قال:

ـ وكيف السبيل للاستيلاء على هذه الأطنان؟

أجاب الخازندار باسماً:

ـ بالمصادرة يا مولاي!

استعجب الباشا:

ـ بالمصادرة؟ بأيّ حقّ؟

في عين الخازندار لاح خبث. قال:

ـ لقد أخبرت مولاي بتهرّب التاجر من المكوس طوال أعوام!

ـ تهرّب تاجر الساحل من المكوس، ولكن الشيخ في الدواخل هو صاحب السلعة!

ابتسم الخازندار. قال:

ـ نحن لم نصادر البضاعة من صاحبها، ولكنّنا انتزعناها من يد التاجر الذي استلمها بحكم القانون!

ـ بحكم القانون؟!

ـ أجل يا مولاي. التهرّب من دفع ما استحقّ من مكوس جرم يعاقب عليه القانون كما يعلم مولانا!

سكت الباشا. أسبل جفنيه حتّى أيقن الخاندار أنه سيعود إلى غيبوبته مرة أخرى. قال باسترخاء:

ـ افعل ما تراه صائباً، ولكن احترس أن تزجّ بنا في فضائح!

هلّل الخازندار:

ـ يستطيع مولاي أن يعتمد عليّ!

تأهّب للانصراف. ولكن شخير الباشا استوقفه. انتصب في مواجهته لحظات. قال بصوت مسموع قبل أن يستدير ليخرج:

ـ الآن تستطيع أن تنام بسلام!

9

بعد منتصف الليل خرج من بوابة القلعة موكب صغير مكوّن من بغلة جسيمة تعتليها سيّدة مفرطة البدانة، يسير على ميمنتها ثلاثة عبيد بقامات ماردة، كما يدبّ على ميسرتها ثلاثة عبيد آخرين بقامات

فارهة أيضاً لحفظ التوازن. فكان ثالوث الميمنة يهرع لإسناد المرأة كلّما ترنّحت ومالت إلى السقوط يميناً. أمّا ثالوث الميسرة فكان يسرع لنجدتها كلّما أعجزها البدن ومالت يساراً.

عَبَر الموكب الكئيب، الملفوف بالصمت والظلمة والغموض، أزقّة المدينة الخالية من المارّة حتّى بلغ مشارف بيت مكوّن من طابق واحد، مطوّق ببستان تتناثر في أرضه أشجار النخيل، يبدو مميّزاً وأنيقاً إلى جوار بقيّة الأبنية في حارة اليهود حيث تتلاصق الجدران في زحامٍ حميم شبيه بزحام المقابر في الجبّانة.

توقّف الموكب أمام الجدار فهرع جمع العبيد ليتعاونوا في إنزال ربّة الموكب عن بغلتها الجسيمة. ترنّحت المرأة بين أيديهم وهي تخطو على الأرض بعسر شديد نافثةً أنفاساً سخية، مطلقةً صوتاً غريباً شبيهاً بخوار الثور. ولكن العبيد لم ينصرفوا إلاّ بعد أن أدخلوها البيت، وأجلسوها على الأريكة في دار الجلوس، ثم قبّلوا يديها المنفوشتين مثل رغيفين من الخبز، وتمنّوا لها ليلة سعيدة بعبارة جنونية من تلقين الباشا:

ـ فليجعل الله لملكتنا نوم الليل ميتة صغرى، وليبعث الله ملكتنا في الغد ليكون لها النهار حياةً كبرى!

خرج العبيد فأقبلت خادمة عجفاء، خلاسية السيماء، تحمل وعاء ملآناً بالماء الساخن الممزوج بالأملاح ورحيق الأعشاب وعقاقير أخرى حادّة الرائحة مجهولة الأسماء.

وضعت الوعاء عند قدمي مولاتها، ثم بذلت جهوداً بطولية كي تشيّع قدمي «الملكة» لتضعها في وعاء الغمر، فتنفّست المرأة

الصعداء ولعنت الملوك بصوتٍ عالٍ في اللحظة التي أقبلت عليها فتاة حسناء تحمل سيماء الأمّ برغم أن الحظّ حالفها فخالفتها في البدانة. تبسّمت عن صفين ناصعين من الأسنان قبل أن تقول وهي تعقد يديها حول صدرها النافر:

ـ من يسمعك وأنت تسبّين الملوك سيجزم لا محالة بأنّك لن تطأي أرض القلعة مرّة أخرى!

قالت «الملكة»:

ـ إذا كان قدرنا أن يصادر الملوك أجسادنا، فالعزاء أن نرجمهم بألسنتنا يا ميزلتوب!

قالت ميزلتوب وهي تميل بمنكبها نحو عمود الرخام الأخضر الذي نهبه الباشا من آثار لبدة الكبرى ليقدّمه لأمّها هدية:

ـ ولكنّهم يستطيعون أن يستأصلوا ألسنتنا أيضاً يا أمي!

ـ يستطيعون أن ينتزعوا ألسنتنا من أفواهنا، ولكنهم لا يستطيعون أن يستولوا على أرواحنا!

تضاحكت ميزلتوب بمرح وهي تواجه أمّها بحجّة جديدة:

ـ ولكن بمقدورهم أن يصادروا أرواحنا أيضاً، يا أمّاه، إذا شاءوا!

ـ هراء! لا يستطيعون أن يصادروا إلاّ أرواح ضعاف النفوس!

ـ كلّنا ضعاف نفوس يا أمّاه!

قالت الأمّ باشمئزاز:

ـ لا يسْحق فينا النفوس إلاّ هذه الأبدان الكريهة!

كتمت الإبنة ضحكة في حين أضافت الأم:

ـ أصوم عن الطعام أيّاماً كاملة، ولكن يكفي أن أضع في فمي بعدها قطعة خبز يابسة لأجد أن بطني انتفخت أكثر من ذي قبل، ووزني تضاعف!

ـ هذه لعنة الجسد يا أمّي! ألم يكن السبب في نكستنا الأولى؟

تنهدت الأم. أغمضت عينيها. استسلمت لعمل الخادمة التي شرعت في تدليك قدميها. قالت:

ـ لسوء الحظ أننا لا نستطيع أن نتحرّر من هذه الحمولة إلاّ إذا نمنا نومتنا الكبرى!

ـ ولكن أي نفع نرتجي من النومة التي لا نستطيع أن نصحو منها؟

لم تجب الأمّ فعمّ صمت شوّشته برطمة الماء بين يدي الخادمة وهي تنهمك في تدليك قدمي مولاتها.

قالت الأم:

ـ أنتِ لم تحدّثيني عن آخر فصول السيرة مع ملككِ الأصغر!

اكتأبت ميزلتوب فجأة وهي تجيب:

ـ لا همّ لمليكي الأصغر هذه الأيام سوى شقيقه الأكبر!

ـ هذا هو حال الرجال. إنّهم يفضّلون أن يفنوا أعمارهم في العراك على أن يحيوا الحياة!

ـ إنّه يقول أنه يفضّل أن ينحر نفسه بسيفه على أن يحيا في مملكة يحكمها حسن بك!

ـ سيدي يوسف على حقّ. حسن بك مخلوق خطر جدّاً، ويجب أن نشكر «يهوه» لأنه أوجد في الدنيا من يتصدّى له!

اشتكت ميزلتوب:

ـ إني أخشى عليه من حسن بك يا أمّاه!

تنهدت الأمّ. اعتدلت في جلستها. رمقت ابنتها بعين غائبة في لفافات الشحوم قبل أن تقول:

ـ المرأة لا يجب أن تخشى على الرجل من الرجال. المرأة يجب أن تخشى على الرجل من النساء!

استفهمت ميزلتوب بنظرة. قالت الأم:

ـ يجب أن تجدي السبيل إلى إجباره على الزواج منكِ، بدل تبديد الوقت في الثرثرة عن عراكه مع أعدائه.

ـ وهو يقول أنه لا يستطيع أن يأمن رأسه فكيف يزجّ بامرأة لتشاركه الخطر؟

ـ هراء! حسن بك لن يفلح في نيل المملكة برغم أحلافه مع زعماء القبائل، وبرغم الأموال!

ـ سيدي يوسف يرى غير ذلك.

ـ سيدي يوسف لا يعلم شيئاً عن نقاط ضعف شقيقه، كما لا يعلم شيئاً عن مكامن قوّته أيضاً.

ـ سيدي يوسف يتحدّث عن استكباره!

استنكرت الأم:

ـ استكباره؟ كان يجب أن يتحدّث عن حبّه للمال بدل أن يتحدّث عن الاستكبار. وريث عرش يعشق المال لا يصلح سلطاناً. بالأمس

احتكر السلع بمجرّد أن بلغته الأنباء التي تتحدّث عن المجاعة وعن اقتراب الوباء كي يبيعها بأسعار خرافية عندما تحلّ الطامّة!

ـ عمّي حاطوم اشتكى لي منه قائلاً أنه نهب صفقة من بين يديه بعد أن هدّده بالسجن. كان المسكين يبكي كالطفل ويتوسّل كي أبلغك بأن تتوسطي لدى الباشا.

زفرت الأم أنفاسها. قالت باكتئاب:

ـ حبّه للمال ليس كل شيء، بل هناك ما هو أسوأ من حبّه للمال!

ندّت عن ميزلتوب آهة. أضافت إستير:

ـ الغموض!

تعجّبت ميزلتوب:

ـ الغموض؟

ـ إنه يخفي أمراً!

تساءلت الإبنة:

ـ هل هناك ما يمكن أن يُخفيه أكثر مما أظهر؟

ـ بل ما يخفيه هذا الداهية أكثر مما يظهر. إنه يحلم بأنه رسول!

ـ رسول؟!

ـ والأسوأ من كل هذا أنه رسول كاذب في حين يظنّ أنّه رسول حقّ!

ـ يا ربّي!

ـ ولكنه برغم كل هذا لن يفلح. لن يفلح لا لأنه رسول زور، ولكن لأن الناس ضدّه!

ـ سيدي يوسف يقول أنه استطاع أن يغشّ الأهالي ليفوز بحبّهم!

ـ هراء! لقد فاز بعطف قبائل الدواخل حقّاً، ولكن أهل الدواخل ليسوا أهل المملكة!

ـ أهل الدواخل ليسوا أهل المملكة؟

ـ أهل المملكة هم أهل الساحل. أهل المملكة هم أهل المدينة. أهل المملكة هم أهل القلعة. أهل المملكة هم أهل القصر. وكلّ هؤلاء لا يكنّون لحسن بك عطفاً!

حدّقت ميزلتوب في فراغ الدار المغمور بضياء الشموع الشاحب. قالت:

ـ ظننت أن أصحاب هذه البلاد هم أهل الدواخل.

ابتسمت «إستير» بمرارة. قالت بنبرة يقين:

ـ أصحاب هذه البلاد شيء، والحكام الذين يملكونها شيء آخر. أريدك أن تعلمي أن معشر اليهود أيضاً أهل دواخل، ولم ينزحوا من الجبل إلاّ في الأعوام الأخيرة. ولكن ما أردت أن أقوله أن قدَر السواحل في هذه البلاد أن تُحكم بغير أهلها دائماً. هكذا كان منذ القدم. ربّما لأن أهلها لا يرون في سواحلها إلاّ حصناً يتعمّدون أن يراقبوه عن بعد تاركين سهول الصحراء حدّاً يفصل بينهم وبين كل من سوّلت له نفسه القيام بغزوهم.

التقطت أنفاسها. أضافت:

ـ ليبيا لم تكن يوماً وطناً، ولكنها أوطان. شمالها وطن، وجنوبها وطن. شرقها وطن، وغربها وطن. وبرغم هذا ظلّت وطناً واحداً موحّداً عبر كل الأزمان!

انتهت الخادمة من غسل قدميها ثم شرعت في تجفيفهما بمنشف تخين، في حين لانت سيماء الأمّ وهي تغمز ابنتها لتقول:

- ولكن دعينا من هذا وحدّثيني عن للاّعويشة!

تقدّمت ميزلتوب وجلست إلى جوار الأم. قالت:

- لا أظنّ أنّنا سنفلح في مسعانا يا أمّاه!

- لماذا؟

تردّدت ميزلتوب لحظات قبل أن تقول:

- لا أدري، ولكن يخيّل لي أنها تحبّ زوجها حبّاً جمّاً!

قاطعتها الأمّ:

- هراء! لا تحبّ المرأة زوجها حبّاً جمّاً إذا كان زوجها يحبّ المال حبّاً جمّاً..

أطلقت ضحكة تهكّم وهي تضيف:

- أعني إذا كان زوجها يحبّ شيئاً آخر. لأن المرأة كالربّ لا تشرك بنفسها أحداً!

ابتسمت ميزلتوب أيضاً. قالت:

- يخيّل لي أن سيدي أحمد لا يبالي بها كثيراً.

- هراء! سيدي أحمد يعشق النساء، والنساء تعشق سيدي أحمد، لأنه يهبهن الوقت الذي ينفقه شقيقاه الأبلهان في حشد الصفوف لتصفية بعضهما. مَنْ الحكيم الذي قال أن المرأة تعشق حوذياً وهبها وقته وتهجر ملكاً وهبها مملكةً وبخل عليها بوقته؟

أطلقت إستير ضحكة. أضافت:

ـ ولماذا لا تفضّل المرأة الحوذيّ الذي وهبها وقتاً على الملك الذي بخل عليها بالوقت؟ أليس الوقت هو الحياة؟!

ثم قرصت ابنتها في عجيزتها قبل أن تقول:

ـ استمري في مسعاك. إيّاك أن تيأسي! واعلمي أن في إلقاء للآعويشة في مخدع سيدي أحمد فرصتنا للانتقام من نبيّ الزّور حسن بك!

10

أقبل قائد الجيش للمثول بين يدي الباشا منذ الصباح لينقل لمولاه أسوأ الأخبار. قال أن قوّات مصطفى القرمانلي الطامع الجديد في العرش تحاصر المدينة بعد أن تلقّت دعماً لا يستهان به من قبائل الدواخل.

وعندما تساءل الباشا عن معنى عبارة «لا يستهان به» طأطأ قائد الجيش قبل أن يعترف بالأحداث التي شهدتها غريان:

ـ لولا زلزال غريان، يا مولانا، لما تجرّأ الوغد مصطفى على حصار طرابلس!

تعجّب الباشا:

ـ زلزال غريان؟

تكلّم صاحب الجيش منكس الرأس:

ـ بلى يا مولانا. في غريان زلزال...

كان الباشا قد هجع للنوم مع مطلع الفجر. وكان يمكن أن ينعم

بنصيبٍ من راحة لولا عدوّه القديم: الأرق! ليس هذا فحسب، ولكنه رأى في منامه كابوساً ظلّ يكتم أنفاسه حتّى اللحظة التي أيقظه فيها الخدم بناء على إلحاح قائد الجيش. وعندما أنصت ليسمع أنباء السوء كان يعاني صداعاً مميتاً، بل وغثياناً أيضاً، فذهب به الحال إلى الظنّ بأنه ما يزال يحيا كابوسه في المنام.

حدج صاحب الجيش المنتصب أمامه بنظرة امتزج فيها المرض والعجز والوعيد، ولكن قائد الجيش لم يرحمه:

ـ شيخ المحاميد استولى على قلعة غريان!

ذهل الباشا:

ـ شيخ المحاميد استولى على قلعة غريان؟

ـ وأتلف المدافع الستة عشر المنصوبة فوقها!

ـ ماذا تقول؟

ـ هذا ليس كل شيء يا مولاي..

تلوّى الباشا في مقعده وغزت وجهه سيماء شحوب. دلّك صدره بيده ظانّاً أن قلبه سينفجر. ولكن قائد الجيش لم يتراجع:

ـ اغتال عساكر الحامية جميعاً يا مولانا، ثم حرق المخازن في الثكنات.

أطلق الباشا أنّة وجع عميقة قبل أن يصيح:

ـ هل جُنّ؟

ـ بل هو الذي يتهمنا بالجنون يا مولاي!

ـ بأيّ حقّ؟

سكت صاحب الجيش لحظة. اختلس نحو الباشا نظرة قبل أن يجيب:

ـ صفقة الزعفران يا مولاي!

ـ صفقة الزعفران؟

ـ يتهمنا بالاستيلاء على حلال ماله يوم أمرتم بمصادرة قناطير الزعفران من وكيله في طرابلس قبل أن يُستودع السجن!

أطلق الباشا آهة وجع جديدة. ولكنه مدّ يده ليصفع جبينه هذه المرّة بدل صدره. صاح بصوت أشبه باستغاثة:

ـ اللعنة! اللعنة!

ثم بصوت كالخوار:

ـ اللعنة على الخازندار! هاتوا الكلب مغلولاً بالحديد لأدوس على رقبته بقدمي هذه!

بذل جهداً بطولياً ليقف على قدميه، ولكن بدنه خذله، حاول مرة أخرى وهو يئن ويتوجّع حتى أن قائد الجيش هالته سيماء الشحوب في وجه الباشا فهرع لمساعدته في اللحظة التي انهار فيها الباشا على مقعده بعد أن تخلّت عنه قواه، فقرع جرساً بالجوار. دخل الحاجب، ولكنه وقف في المدخل مشلولاً بسبب الخوف. صاح فيه الباشا:

ـ الخازندار! غلّوا الخازندار في الحديد وأقرعوه بالفلقة قبل أن تدخلوه عليّ مسلسلاً في الحديد!

تراجع قائد الجيش خطوات إلى الوراء. تمتم ببلاهة:

ـ مولانا! مولانا!

ولكن الباشا أفلح في النهاية في الوقوف على قدميه دون مساعدة أحد. زأر:

ـ لقد التقطتُ هذا الكلب من شوارع نابولي وهو يقتات النفايات بسبب فقره ووضاعة أصله، وصنعت منه رجلاً، ثم أخطأت مرّة أخرى، بل ارتكبت جرماً في حقّ نفسي وفي حقّ آل القرمانلي يوم زوّجته ابنتي. وها هو يكافئني الآن بمكيدة!

تدخّل صاحب الجيش:

ـ لا أريد يا مولاي أن أدافع عن أحد، ولكن الحقّ أن الخازندار لم يفعل ما فعل إلاّ يوم وجد نفسه في موقف لا يُحسد عليه!

استنكر الباشا:

ـ في موقف لا يُحسد عليه؟ أيّ موقف يمكن أن يبرّر توريطي في فضيحة مع شيخ المحاميد؟ لقد حذّرته من الزجّ بي في فضائح يوم أذنت له بالاستيلاء على قناطير الزعفران التي ادّعى أنها مِلْك أحد التجّار الذين أذنبوا لأنهم تهرّبوا من دفع المكوس طوال أعوام!

اعترف صاحب الجيش:

ـ فليسمح لي مولاي: لقد فعل الخازندار ما فعل مضطرّاً!

ـ مضطرّاً؟ يزجّ بنا في حرب مع قبائل المحاميد ثم تقول أنه مضطرّ؟

ـ لو لم يفعل لزجّ بنا في حرب مع عساكر جيشنا يا مولاي!

تقدّم الباشا نحو صاحب الجيش خطوة. ترنّح ولكنه اعتدل في وقفته قبل أن يتساءل بدهشة:

ـ ما معنى حرب مع عساكرنا؟

طأطأ صاحب الجيش. قال:

ـ كان الجيش يتململ يا مولانا لأن العساكر لم يقبضوا معاشاتهم منذ أشهر!

تمتم الباشا:

ـ ماذا تقول؟

ـ لولا صفقة الزعفران لشهدنا ثورة أسوأ يا مولانا!

ـ ولكن.. ولكن لماذا أخفى عنّي أمر العسكر؟

سكت صاحب الجيش لحظة. قال:

ـ فضّل أن يتحمّل نتائج إخفاء الحقيقة عن مولانا على إقلاق راحة مولانا!

هدّده الباشا بسبّابته:

ـ إيّاك أن تنتحل له الأعذار! لأن النتائج كما ترى أسوأ ألف مرّة من الاعتراف بالحقيقة!

ارتجّ بعنف قبل أن يضيف:

ـ أجدر بك الآن أن تخبرني عن السبيل للخروج من هذا المأزق بدل تضييع الوقت في البحث له عن أعذار!

ـ ما زال حسن بك يبذل الجهود لإنقاذ ما يمكن إنقاذه!

ـ هل نقف مكتوفي الأيدي انتظاراً لجهود حسن بك؟

تردّد صاحب الجيش قبل أن يقول:

ـ أستطيع أن أؤكّد لمولانا بأن الدعي مصطفى لن يتمكّن من اقتحام أسوار المدينة!

تهكّم الباشا:

ـ هل هذا كلّ ما تستطيع أن تعدني به؟

ـ إننا نرسم الخطط للإنقضاض أيضاً يا مولانا.

ردّد الباشا:

ـ الانقضاض.

ثم بلهجة يأس:

ـ في هذه القلعة يتسكّع حولي آلاف الأبطال زمن الرخاء، ولكنّهم يتبخّرون جميعاً ما أن تقرع أجراس البليّة!

سكت صاحب الجيش فعمّ سكون لم يدم طويلاً، لأن صرخة عويلٍ حادّة انطلقت من حنجرة امرأة في الجناح الذي يسكنه الخازندار، فتجهّم الباشا لأن تلك المرأة لم تكن سوى ابنته الكبرى للاّ زكيّة!

11

ـ إنّه ليس مكابراً فحسب، يا أبتي، ولكنه جشع. هل رأى الخلق حاكماً جشعاً؟

كان سيدي يوسف يتنقّل في البلاط بقامته القصيرة كأنه يتقافز، في حين استرخى الباشا في عرشه وبدأ يعاند النعاس. أضاف سيدي يوسف:

ـ لقد صدّع الدنيا بأساطير الكذب عن مزايا شخصه المبجّل، وها نحن نكتشف حقيقته في أوّل يوم في أوّل محنة. فليرنا الآن بطولاته المزعومة!

توقّف في مواجهة الباشا فجأة. قال:

ـ إنه يتشدّق أمام الملأ قائلاً أنه هو، حسن بك القرمانلي، حاكم المملكة الفعلي، أمّا على باشا القرمانلي فليس سوى دمية!

تململ الباشا في عرشه. تساءل بخمول:

ـ هل قال هذا حقّاً؟

ـ ولماذا لا يقول ذلك إذا كان يسمح لنفسه باقتراف أقبح الخطايا فلا يجد منك إلاّ التشجيع؟

الباشا: التشجيع؟

سيدي يوسف: هذا ما يقوله الكلّ. أنت تبارك أطماعه لأنّك تشاركه الغنائم التي يستولي عليها من الناس بحدّ السيف!

الباشا: هل يقول الناس هذا أيضاً؟

سيدي يوسف: ولماذا لا يقول الناس ذلك أيضاً؟ ألا ترى أن هذه هي الحقيقة؟

الباشا: إيّاك أن تمتحن صبري!

سيدي يوسف: أنت تنتظر اليوم الذي سيجيئك فيه خبر مصرعي على يديه يا أبتي!

الباشا: هذا ما يقوله عنك أيضاً!

سيدي يوسف: وهل صدّقته؟

الباشا: أنا لا أعرف أيكما أصدّق: هو يدّعي أنّك تخطّط لقتله، وأنت تقول أنه يخطّط للتخلص منك!.

سيدي يوسف: حسناً! لماذا لا تحتكم إلى ساحة أحمد الذي يقف على الحياد؟ إنه شقيق لكلينا، هو شقيقه الأصغر، وأنا شقيقي الأكبر، ولا أظنّ أن سيدي أحمد سيخفي عنك الحقيقة خوفاً منّي.

الباشا: ولماذا لا يخافك أحمد إذا كان حسن بك يخافك؟ بل لماذا لا يخافك شقيقاك إذا كانت المملكة كلّها تخافك بما في ذلك صاحب المملكة؟

أطلق الباشا ضحكة عالية أدهشت سيدي يوسف، ربّما لأنها لا تتناسب أبداً مع سكينة الباشا، أو بالأصح، مع خموله.

سيدي يوسف: أنت تسخر منّي يا أبي كأنّك تنتظر هلاكي القريب على يدي هذا الدّعيّ. كأنّ هلاكي هو الذي سيجلب الرخاء إلى هذه المملكة الشقية!

الباشا: اعترف أنّك لا تحلم في دنياك بشيء كما تحلم باليوم الذي ستتربّع فيه على هذا العرش!

عاد الباشا يتضاحك بمرح رغم سيماء الإعياء التي تلوح في عينيه. أضاف:

ـ انظر إليه! ألا ترى أنه الإغواء المجسّد الذي يفوق كل إغواء؟

عاد الباشا يتضاحك ملء الشدقين. ويبدو أنه استيقظ من غفوته الخالدة نهائياً. قال:

ـ لا تحاول أن تخفي عنّي! لقد ضبطتك متلبّساً في أحد الأيام

بالجلوس في هذا المقعد خلسةً. تربعتَ في جوفه باضطراب العابد الذي يتبتّل في المعبد، في المحراب، ونسيت أنه ليس عرش الربّ، ولكنه مجرّد مقعد ملفّق من أعواد الخشب. ها ـ ها ـ ها. .

سيدي يوسف: هل تسمح لي بالانصراف يا مولاي؟

صاح فيه الباشا وهو يمسح دموعاً فزّت من مقلتيه من فرط الضحك:

ـ إياك أن تفعل. لو ذهبت الآن لفعلت المستحيل كي أحرمك من معبودك هذا إلى الأبد. ها ـ ها. . لماذا لا نستمتع بقول الحقّ من حين لآخر؟ لماذا لا نعترف بما نعشق؟ حسن بك يعشق المال كما قلت لي منذ قليل، وأنا أعشق النساء، أمّا أنت فتعشق العرش. أنت الوحيد في هذه العائلة الذي يعشق ما يجب أن يُعشق حقّاً. لأنّ عشق المال غباء، وعشق النساء أيضاً غباء بالنسبة لإنسان يستطيع أن يعشق السلطان، لأن بالسلطان وحده نستطيع أن ننال الركنين الآخرين في هذا الثالوث الرهيب. ها ـ ها. . اعترف أنّك أشطرنا جميعاً لأنّك قفزت إلى القطب بضربة واحدة!

تململ الباشا في جلسته. أضاف ضاحكاً:

ـ لماذا عليك أن تجرّب الجلوس على هذه المقصلة خلسةً إذا كنت تستطيع أن تفعل ذلك علناً؟ اقترب خطوة لأني أريدك أن تجرّب هذا الجواد أمام عينيّ! هل تدري لماذا أريدك أن تفعل ذلك؟ لأني أوتيت نصيباً من كهانة، أو فلنقل من نبوّة، عندما أخبرني الطير بأنّك أنت صاحب هذه الغنيمة وليس حسن بك ولا شقيقك أحمد. ألا يُقال في أسفار اليهود أن الطير هو الذي يخبر الحاكم بما كان، وبما هو كائن، وبما سيكون، وليس الجواسيس؟ ها ـ ها ـ ها. .

مسح الباشا دموعه بمنديل الحرير الموسوم بأجرام كالفراشات.
أضاف:

- الحقّ أن المرء ليس في حاجة لاحتراف الكهانة كي يقرأ الغيوب: يكفي أن يرى بعين ويسمع بأذن ويفكّر بعقل كي تحلّ النبوّة في القلب. أم أني أخطأت؟

رفع بصره نحو الابن، ولكنه اكتشف أن سيدي يوسف اختفى!

12

في جناح حسن بك كانت للاّ عويشة قد فرغت من زينتها للتوّ عندما أقبلت لزيارتها ميزلتوب. قامت لاستقبالها بعينين ضاحكتين، وذراعين مرمريين ذهبيين، وصدر نافرٍ فاتنٍ. احتضنتها، ثم قبّلت خدّها الأيمن(في حين لثمت الضيفة خدّ مضيفتها الأيسر) قبل أن تقودها من يدها لتجلسها على فرش منفوش بالأرياش ومطرّز بخيوط الذهب. كانت للاّعويشة تكافح لتخفي عن صديقتها لهفتها إلى سماع أنباء الفضائح التي يضيق بها قاع المدينة، وأحوال الوجه الآخر لمجتمع الأكابر الذي لا تعبر أخباره بوّابات القلعة المنيعة إلاّ بعد أن يعبر أسوار المدينة ويبلغ في سعيه تخوم الدواخل.

أمرت وصيفتها أن تأتي بالمرطبات، في حين غرقت في مقعد منفوش ما لبث أن ابتلع جسدها الفاتن (كأنه أحضان رجل عاشق) حتى كاد يخفيه تماماً. حدّقت في عيني ضيفتها بحدقتين نجلاوين مفترستين مشعّتين باللهفة والشهوة والفضول. قالت:

- هيّا حدّثيني عن كل شيء، ولا تنسي أننا سجينات في هذه القلعة، ولسنا طليقات أمثالكنّ!

استرخت ميزلتوب في مقعدها قبل أن تقول:

ـ لا حديث للناس غير حصار المدينة، وغليان القبائل، وشبح الطاعون الذي يقرع الأبواب!

حدجتها للآعويشة بخبث. غمزت بحدقتها النّجلاء كأنها مقلة غزالة قبل أن تقول:

ـ دعك من حصار المدينة وغليان القبائل وشبح الطاعون، فهذه أنباء بلهاء تستهوي الرجال البلهاء، أمّا نحن معشر النساء فلا تروي ظمأنا إلاّ الأنباء الأخرى التي تعرفينها جيّداً!

تضاحكت ميزلتوب كاشفة عن أسنان نقيّة وهي تقول:

ـ لو سمعك حسن بك وأنت تنعتين بلايا المملكة بالبلاهة لأساء بك الظنّ!

للآعويشة: لن يضيرني لو أساء بي الظنّ لسببٍ كهذا، لأنه ككلّ الرجال يعلم أن التطاول في اللعبة المضحكة التي يسمّونها سياسة ليس مضيعة للوقت فحسب، ولكنه بهتان أقرب إلى الإثم!

قطبت ميزلتوب جبينها لحظة. قالت:

ـ لا أظنّ أن الرجال يعلمون ما يفعلون كما تقولين. ربّما أفاق بعضهم من غيبوبته يوماً، ولكن ذلك اليوم لا يأتي عادةً إلاّ بعد فوات الأوان. أعني في اليوم الذي ينسل فيه الوقت من بين أيديهم كما يتسلل الماء من بين أصابعنا فيسمعون النادبون يطوفون في السوق بعدما انفصم الحبل، وانكسر كوز الذهب، وتحطّمت الجرّة على العين، وانقصفت البكرة فوق فوهة البئر!

كانت للاّعويشة تتطلّع إليها بعينيها النجلاوين مستفهمةً مستعجبة، فأوضحت ميزلتوب:

ـ هذا ما تقوله أسفارنا عن يوم الساعة!

مضت للاّعويشة تلتهمها بعينيها الشهوانيتين باسمةً، ثم أزاحت خصلة شعرها التي انسدلت على وجهها لتقول:

ـ دعينا من السيرة التي تطفو على سطح المدينة، وحدّثينا عن السير التي تتخفّى في جوف المدينة. لقد أشيع أن للاآمنة تكاد تموت حزناً على فراق الحاج عبد الرحمن الذي عاد سفيراً للمملكة في بلاد الإنجليز!

اعتدلت في جلستها لتضيف:

ـ يقال أنه لم يعد إلى أوطان ما وراء البحور كسفير للمملكة في بلاد الإنجليز فحسب، ولكن سفيراً في السويد أيضاً.

ـ أظنّ أن للاآمنة آخر امرأة يمكن أن تموت حزناً على فراق رجلها!

ـ لماذا؟

ـ لأن للاّ آمنة لا تعدم من يسلّيها!

لمعت آيات الفضول في عيني للاّعويشة. مالت نحو ميزلتوب لتهمس:

ـ هل في حياتها عشّاق؟

ـ لا أدري. ولكن ما أدريه أنها لا تعاشر إلاّ أُسر النصارى من قناصل الدول الأجنبية حتّى أن ربيبتها تشكو من استهانتها ببيت الزوجية!

ولكن للاّعويشة لم تستسلم:

ـ ما سمعته أن صلتها بقنصليات النصارى ليست صلة بريئة!

ابتسمت ميزلتوب فأضافت للاّعويشة:

ـ لماذا لا تريدين أن تعترفي بأنها تُدخِل الرجال الأروام إلى مخدعها خفيةً؟

ـ أن تدخلهم إلى مخدعها أعسر من أن تدخل هي إلى مخادعهم!

ـ هل ترين في هذا فرقاً؟

ـ لا أنكر أن النتيجة لن تختلف في كلا الحالين!

أطلقت للاّعويشة ضحكة ماكرة. غزا وجنتاها احمرار. قالت بصوت كالهمس:

ـ كيف تستطيع المرأة أن تدخل إلى مخدعها رجلاً غريباً؟

أجابت ميزلتوب ببرود أشبه باللامبالاة:

ـ المرأة لا تُدخل إلى مخدعها رجلاً غريباً اللهمّ إلاّ إذا كانت مستهترة. المرأة الحقيقية تدخل إلى مخدعها عشيقاً!

تساءلت للاّعويشة همساً:

ـ وكيف تستطيع المرأة أن تتخذ عشيقاً؟

رفعت ميزلتوب رأسها. حدّقت في عين للاّعويشة فرأتها تشتعل فضولاً ولهفةً وألقاً غريباً آخر كأنه الشهوة. أجابت:

ـ تتخذ المرأة الحقيقية عشيقاً لأن العشق أنفس صنوف الشّعر، ولا أحد في الدنيا يستطيع أن يتفوّق على المرأة في عشق الأشعار!

هيمن صمت قصير. تمتمت للاّعويشة:

ـ اعترف أني أعشق الأشعار حتّى أني لا أعجب من شيء كما أعجب من القدرة على قول الأشعار. أجزم أن الشعراء إذا لم يكونوا سحرةً فهم من يستحق أن يفوز بلقب البطولة!

ـ والعشيق هو شاعر المرأة النبيلة حتى لو لم يكن شاعراً.

ـ هل تريدين أن تقولي أنه بديل عن الشعر؟

تردّدت ميزلتوب قبل أن تقول:

ـ العشق شعر المرأة، كما الشعر عشق الرجل.

سكتت للاّعويشة قبل أن تتساءل همساً:

ـ وكيف تحتال النساء على رجالهنّ ليتخذن عشّاقاً؟

ـ تستطيع المرأة أن تتخذ عشيقاً إذا أرادت حتى لو وضعها رجلها في قمقم!

عمّ صمت. أقبلت الوصيفة تحمل المرطبات فوق طبقٍ من ذهب منمنم بنقوش غامضة. وضعت الطبق فوق منضدة مصنوعة من أخشاب الآبنوس المطعّم بعروق الذهب. همست للاّعويشة ما أن خرجت الوصيفة:

ـ ما أجسر النساء!

ـ أنت لستِ في حاجة لأن تعجبي من جسارة النساء.

استفهمت للاّعويشة إيماءً فأوضحت ميزلتوب:

ـ لأن العشّاق في متناول يديك!

استغربت للاّعويشة:

- في متناول يديّ؟!

سكتت ميزلتوب لحظات قبل أن تحدّق في عيني مضيفتها لتقول:

- في الجناح المجاور أعرف رجلاً كتب في محاسنك شعراً دون أن تتنازلي عن كبريائك فتجودي عليه ببسمة امتنان!

هتفت للاّعويشة:

- هل تمزحين؟

- وفوق هذا فهو الرجل الوحيد الذي لا يحبّ المال كما يحبّه بقيّة الرجال، ولا يحسن الظنّ بالسياسة في البلاد كما يفعل بقيّة البلهاء في البلاد!

تطلعت للاّعويشة إلى ميزلتوب وشرعت تلتهمها بعينيها النجلاوين في ذهول. حشرجت أخيراً:

- أراهن أن هذا الرجل لن يكون إلاّ جنّاً إذا لم يكن عنقاء مغرب، لأني لم أرَ في هذا القصر رجالاً، بل أشباحاً!

- إنه أقرب لك من حبل الوريد!

- إنّك تقتلينني بسيوف الفضول!

تبادلتا نظرة. عَبَرت ميزلتوب إلى قلبها من وميض مقلتيها، سكنت الوسوسة لتهمس لها بالنبوءة. هبّت للاّعويشة كالملدوغة. تمتمت بفزع:

- سيدي أحمد؟!

ابتسمت ميزلتوب، ولكنها لم تنبس. في حين تسكعت للاّعويشة

في البلاط جيئةً وذهاباً. كان قلبها يعلو ويهبط كأنه يريد أن يمزّق ستور الفستان ليفرّ. برطمت بعبارات مبهمة قبل أن تستند إلى الجدار. قالت:

ـ كيف لم ألحظ ذلك قبل اليوم؟

عادت إلى الوراء. وقفت فوق رأس ميزلتوب. قالت:

ـ ولكني أحب حسن بك.

تكلّمت ميزلتوب باستخفاف:

ـ أنت تحبين حسن بك، وحسن بك يحبّ المال!

ـ ماذا تقولين؟

ـ أقول أن المرأة لا تستطيع أن تحبّ رجلاً لا يحبّها. المرأة تحبّ رجلاً يحبّها حتى لو كان صعلوكاً وهي ملكة: المرأة لن تحبّ رجلاً لا يحبّها حتى لو كان ملكاً وهي وصيفة!

أطلقت للاّعويشة أنيناً. تشبّثت بقلبها وهي تتسكّع. في عينيها النجلاوين وجع. في سيماء وجهها بلبلة. في قلبها ما هو أسوأ من البلبلة. في قلبها بلبال. تساءلت كأنها تخاطب نفسها:

ـ تُرى هل يحبّ حسن بك المال حقّاً؟

أجابت ميزلتوب بلهجة استهزاء:

ـ أغفري لي، ولكن سيرة حبّ حسن بك للمال على كل لسان!

ـ حقّاً؟

ثم بلهجة غريبة:

ـ وماذا يقول سيدي أحمد؟ هل يرى أن حسن بك مجنون بالمال أيضاً؟

ـ سيدي أحمد يعشق الحسناء حقّاً، ولكنه ليس أعمى إلى الحدّ الذي لا يرى فيه حبّ حسن بك للمال.

ـ هل تظنين أنه يحتقرني يا ميزلتوب؟

ـ ولماذا عليه أن يحتقرك؟ إنه يعشقك، والرجل الذي يعشق قد يحترق غيرةً، ولكنه لا يحتقر معشوقته أبداً!

توجّعت للاّعويشة بصوت عالٍ. قالت:

ـ يا لي من بلهاء!

ثم انهارت على الفراش المزحوم بالنمارق بجوار ميزلتوب.

13

لم يكد حسن بك يخلع أقنعته (نياشينه، سيوفه، عمامته) تمهيداً لأن يسترخي حتى قالت له للاّعويشة بلهجة لا تبشّر بخير:

ـ بلغني أنّك قررت الزواج من كبرى بنات الكاهية الكبير!

أجابها ببرود:

ـ ولماذا لا أتزوّج من كبرى بنات الكاهية إذا كان الشرع قد أباح لي أن أتزوّج أربعة؟

وقفت للاّعويشة فوق رأسه، ولكنها تطلّعت إلى النافذة المفتوحة على البحر. سكتت أمداً وهي تسرح عبر المدى الأزرق كأنه يستعير زرقته من السماء العارية، الملفوف بالسكون كأنه بحيرة، الممتدّ بلا نهاية حتى يلتئم بالأفق، قالت:

ـ لم أفاتحك بالأمر لأعترض على شرع ولا لأستنكر أن تتخذ

لنفسك امرأة أخرى، كل ما هنالك أني توقعت أن أسمع هذا من لسانك أنت لا من ألسنة الأغيار!

ـ وماذا أفعل إذا كانت ألسنة هؤلاء الأغيار تسبق ألسنتنا كأنها تقرأ نوايانا؟

سكتت للأعويشة. ركبت البحر الذي لم تركبه يوماً ويمّمت شطر المجهول. قالت من مطيّة الأسحار المتجهة صوب جزائر الحرية:

ـ أرجو أن تراها قبل أن تدخل بها المخدع!

هجع البك في فراشه. تمدّد على السرير. استرخى. سأل:

ـ ماذا تريدين أن تقولي؟

ـ لو قلت لك أنها قردة فسوف تكذّبني ظنّاً منك أن الضرّة امرأة ترى ضرّتها قردةً حتّى لو كانت غزالة!

ابتسم البك. سكت. تكلّم:

ـ هل تستطيعين أن تدبّري لي معها لقاء؟

ـ لماذا تطلب منّي أنا أن أدبّر لك معها لقاء؟

ـ لكي أكون عند حسن ظنّ امرأتي الأولى التي أنجبت لي ابنة، ولكنها بخلت عليّ بولي العهد!

ـ لم أيأس بعد من إنجاب ولي العهد برغم أننا لم نسمع بولي عهد يجاهد في طلب ولي العهد!

ابتسم حسن بك. قال:

ـ لا يكيد لي يوسف وأحمد إلاّ ليقينهما بأني صاحب السلطان الفعلي في هذه البلاد!

ـ احترس فللجدران آذان وعيون وألسن!

ـ ولماذا عليّ أن أحترس إذا كان الجميع يدري أن الباشا فقَد السلطان منذ زمن بعيد، ولم يعد في القلعة سوى شبح!

رفع إليها بصره. أضاف:

ـ أَهْدَى له محمود خوجة بعد عودته من مصر جارية شركسية لم تشهد هذه القلعة لجمالها مثيلاً، فهل تدرين ماذا فعل الباشا؟

تطلّع إليها، ولكن للآعويشة لم تعد من رحلتها الخرافية إلى جزائر واق الواق، فأضاف:

ـ لقد اختلى بها لحظات، ثم خرج غاضباً وأمر بتزويج الحسناء لأحد الأعلاج يقيناً منه بأنها لا تستطيع أن تنافس «الملكة إستير» في المخدع!

ضحك ملء شدقيه. أضاف:

ـ تخيّلي أن مواهب المسخ «إستير» تفوق مواهب الحسناء الشركسية! أليس هذا مرضاً؟ أليس هذا شذوذاً مهيناً؟ أنلوم بعدها الرعية في أن تتندّر؟

ولكن للآعويشة قالت شيئاً آخر:

ـ هناك رذائل أسوأ من رذيلة عشق الملكة إستير!

تطلّع إليها مستفهماً، ولكنها تكلّمت دون أن تعود من رحلتها:

ـ حبّ المال!

قال بهدوء:

ـ من منّا لا يحبّ المال؟

ـ يجب أن نسعى لكسب المال، ولكن ليس إلى حدّ ينسينا محبّة ذوي القربى!

ـ لا يحبّ الرجل المال إلاّ لينفقه على ذوي القربى!

سكتت المرأة. ربّما لأنها توغّلت في رحلة المجهول أكثر ممّا ينبغي. تمتمت بعد زمن:

ـ يُقال أن حاجة المرأة إلى وقت الرجل أكثر من حاجتها إلى ماله!

ـ لو وهبها وقته ولم يهبها ماله لبصقت في وجهه وانفضّت من حوله!

أطلق ضحكة. احتوى رأسه بين يديه، ثم أسبل جفنيه، في حين تساءلت المرأة:

ـ هل عَنَّ لك أن تقول الشّعر يوماً؟

تساءل باستنكار دون أن يفتح عينيه:

ـ الشّعر؟

ـ بلى!

تضاحك باستخفاف، ولكنه لم ينبس. بعد قليل انتظمت أنفاسه. ولكن المرأة لم تستسلم:

ـ أنت لا تعرف ما معنى أن تسمع المرأة من الرجل أشعاراً!

سمعت منه شخيراً، بدل أن تسمع جواباً. ولكنّها لم تأبه أبداً، لأن جسدها وحده انتصب بجوار النافذة. أمّا حقيقتها فقد تخطّت

البرزخ وأشرفت على تخوم المجهول حيث تقوم في اليمّ جزائر الحرية التي تتغنّى فيها الحوريات بالأشعار.

14

في الطريق إلى ضاحية المنشية كان سؤال للآعويشة عن الشعر ما يزال يطنّ في أذنيه برغم النكبات التي تحيق بالمملكة. لقد أفلح منذ أيام في فكّ الحصار عن المدينة بعد أن طوّح بفلول العصاة بعيداً إلى الدواخل. ولكن الخراب الذي ألحقه هؤلاء الأوباش بحقول الضاحية أفسد عليه نصره وكاد أن يحوّله هزيمة. وها هو يجد نفسه يدفع ثمن خطايا الباشا الذي سحق أعمامه غيلةً بحجّة التآمر فلم يجد مصطفى (الذي أفلت من المذبحة بأعجوبة) مفرّاً من امتشاق السلاح والمطالبة بالعرش. ويبدو أن الحظّ أيضاً صار له حليفاً. فالمجاعة غذّت استياء أهل الساحل، كما شجّعت قبائل الدواخل على التمرّد. والطاعون الذي يحوم بالتخوم ويزحف نحو الشرق من تونس أجّج البلبلة في قلوب ضعاف النفوس ودفع بلهاء القلعة إلى ارتكاب حماقات أدّت إلى إشعال فتن مع زعماء القبائل، بل وحتّى إلى العداوة كما حدث مع الشيخ «مخيريق» بسبب فضيحة الزعفران. وعليه هو الآن أن يبحث عن حلول لكل هذه العُقد. يشقى هو في سبيل الفوز بالحلول في حين يرقد الباشا في أحضان إستير ليجني الثمار. يضع هو رأسه في فوهة المدفع في حين يعدو يوسف بجواده ليصطاد الغزلان في الخلوات المجاورة ثم يعود إلى القصر ليتشدق بأحقيّته في العرش بدله هو فيجد الدعم من الباشا، ومن إستير، ومن

بطانة الأعلاج، وحتى من شقيقه أحمد. . هذا الذئب المتنكّر في جرم حَمَل حتّى أنه لا يتردّد في اقتراف المنكر. يكتب قصيدة لإغواء امرأة! بل يستأجر دعيّاً ليقول باسمه قصيدة يغوي بها مخلوقاً لا حول له ولا قوّة. يغوي بها امرأة وأيّ امرأة؟ امرأة أخيه! وها هو ينضمّ إلى عصابة البلاط التي لا همّ لها إلاّ الكيد له وحرمانه من الجلوس على العرش. ها هو يستغلّ بدوره انهمامه ببلايا المملكة لينضمّ إلى الزمرة اللئيمة التي تمتحن صبره ولا ترى في تسامحه إلاّ بلاهةً. ففي الساعة المشئومة التي نطقت فيها عويشة لفظة «شعر» أدرك أن وراء الأكمة ما وراءها ليقينه بأن المرأة لا تشتهي سماع الأشعار إلاّ إذا استيقظت فيها الغانية. والشعر الذي لم يكن يوماً في وجدان المرأة سوى سلطان الإغواء لا ينزل ساحة هذه البلهاء وحْياً، ولكنه يُقبل ممتطياً صهوة جوادٍ ناصع البياض يسمّيه أهل البطالة «فارس الأحلام». وهو ما يعني أنه إبليس المتنكّر في ثياب رجل. بلى، بلى. حنين المرأة إلى الأشعار أمر لا يبشّر بخير أبداً، لأنه ليس سوى الخطوة الأولى للتحرّر من الستور. الخطوة الأولى للتحرّر من الأقنعة!

وبرغم أنه لم يكن في حاجة إلى حجّة إلا أنه اختلى بالوصيفة فاستنطقها. قال لها أنه اشتمّ رائحة مخلوق لا يمتّ بصلة إلى سلالات الإنس في هذا البيت فاعترفت في الحال. قالت أن جنيّةً قامت بزيارة مولاتها في هذا اليوم. قال لها أنه سمع من فم مولاتها وصيّة مريبة لا تدخل بيتاً إلاّ خرّبته فقالت أن الجنيّة «ميزلتوب» هي التي وضعتها في فم سيّدتها.

ثمّ تطوّعت فتحدّثت بالتفصيل عن المكيدة، تحدثت عن الخطيئة، تحدّثت عن القصيدة! لأن ما هي الأشعار في القصائد إن لم تكن الزغاريد التي تبشّر بالخطيئة؟؟

15

أفلح الجيش في الاستيلاء على خيام رعاة الشيخ «بن مخيريق» الذين كانوا يقومون برعي مواشي هذا الزعيم بسهل «الجفارة» ففرّك الباشا يديه وقرّر أن يصنع من هذا الحدث نصراً يهديه لضعاف النفوس في المدينة بمناسبة حلول عيد المولد النبويّ. ففي صباح اليوم الذي سبق العيد استيقظ الأهالي على صوت النذير وهو يعلن نبأ مفاده أن الجيش كسر شوكة الدّعي مصطفى المدعوم من أوباش الدواخل، فلعلعت الدور بزغاريد النساء، ونفخ أهل الطرب في فوهات المزامير، في وقتٍ كان فيه وريث العرش يندس في ركنٍ خفيّ بجناحه بالقصر ليشاهد محاسن مخطوبته التي وصفتها للاّعويشة بـ«القِرْدة»، والتي أقبلت لزيارة الضرّة المأمولة قبل أن يأتي اليوم الذي سيُعقد فيه القران لتصبح الضرّة الحقيقية.

دخلت سليلة الكاهية الأكبر ترتدي ثوباً أخضر مزبور الأطراف بعروق الذهب. فوق الفستان استلقى لحاف ناصع مطرز الأطراف أيضاً بخيوط الذهب. كانت طويلة القامة حتّى تكاد تنحني في مشيتها إلى الأمام من فرط الطول. كشفت عن شعر أشقر وجيدٍ مرمريّ ما أن تحرّرت من اللحاف، ولكنه لاحظ حَوَلاً في عينيها الدعجاوين، ثم.. ثمّ اعوجاجاً منكراً في الفمّ. أمّا قوامها فكان مثالياً إذا قورن

حتّى بقوام للاّعويشة! فلماذا لا يُدْخل إلى مخدعه امرأة حولاء؟ لماذا لا تشاركه المرأة فراشه بثغر أعوج؟ أليس القوام هو النصيب الذي كُتب عليه كرجل أن يحتضنه في المخدع ساعة تنطفىء الأضواء فتُعمى العين عن رؤية العين ويختفي من الدنيا الثغر باستقامته أو باعوجاجه؟ ولكن. .

ولكن المصيبة أن الرجال لا يقترنون بالنساء إرضاء لأهوائهم، ولكنهم يفعلون ذلك نزولاً عند رغبات الأغيار. فالعطب في بدن المرأة خطيئة لا تغتفر في ناموس أولئك الذين آلوا على أنفسهم ألاّ نتزوّج إلاّ استجابةً لأذواقهم، ولا نرتدي إلاّ ما يروق لهم، ولا نغنّي إلاّ ما يطربهم، ولا نأكل إلاّ ما يحلو لهم هم لا ما يحلو لنا نحن! وهو لن يتورّع في أن يسفّه هذا الناموس لو انتمى إلى سواد الناس الأعظم، أو حتّى إلى طبقات بعض الأكابر كالتجّار مثلاً، ولكن كيف يستطيع أن يخالف هذا الناموس وهو أمير، بل ليس أميراً فحسب ولكنه الوريث الذي يُنتظر أن يعتلي عرش المملكة بين ليلة وأخرى، لأن الكلّ يؤمن بأن الباشا يمكن أن يقضي نحبه بين لحظة وأخرى بسبب حياة البهائم التي اختار أن يحياها؟

كلاّ، كلاّ. صاحبة الفم الأعوج والعين الحولاء لن تليق حتى لو كانت سليلة سلطان الأستانة نفسه لا سليلة كاهية ملك طرابلس، سيّما بالنسبة لرجلٍ يستطيع أن يضمّ إلى حريمه حسان المملكة كلّها.

أزاح الستارة وخرج من مخبأه بهدوء. تقدّم ببرود لينحني تحيّةً للمرأة التي شلّها الذهول. خاطب للاّعويشة بلهجة أشدّ بروداً وهو يشير بسبّابته إلى الفتاة:

- قررتُ اليوم أن أتخلّى لكِ عن هذه الآنسة!

ثمّ خرج من هناك في نيّة لاستنطاق شقيقه أحمد بشأن القصيدة، فيما كانت سليلة الكاهية تسقط على الأرض مغشياً عليها!

16

في جلسة بعد منتصف الليل قالت إستير تخاطب الباشا:

- كيف لا يتنازل البك عن ابنة الكاهية إذا كانت زنوبيا قد استطاعت أن تستولي على قلبه منذ زمن بعيد؟!

كان الباشا قد أفرغ في جوفه قارورتين ملآنتين بالمنكر منذ بداية السهرة، ثم أحضر الخدم القارورة الثالثة مع أطعمة العشاء. أمّا إستير وزهرة فلم تفلحا في القضاء حتّى على القارورة الأولى، ممّا أثار استياء الباشا فقرّرت إستير أن تسترضيه على طريقة شهرزاد فبدأت تتفنّن في رواية الفضائح كعادتها.

تساءل الباشا:

- هل تظنّين أن سبب تخليه عن بنت الكاهية هو زنوبيا؟

رشفت إستير من كأسها جرعةً. أجابت:

- من عرف مواهب هذه المرأة في الإغواء وحده يستطيع أن يجزم أنها السبب!

تدخّلت زهرة:

- تكفي رؤية زنوبيا للوقوع في أشراكها!

احتسى الباشا جرعة من كأس مستعارٍ من القارورة الثالثة قبل أن يقول:

ـ لا أذكر أن بصري وقع على هذه المخلوقة!

هتفت إستير:

ـ هذا من حسن حظّنا يا مولانا!

تَمَّنَتْ زهرة على عبارة إستير:

ـ أجل يا مولانا. لو وقع بصرك عليها لعشقتها في الحال!

تضاحكت المرأتان في حين قال الباشا:

ـ لم يجعل الله لي نصيباً في ملل الحسان!

غمزت إستير رفيقتها قبل أن تتساءل:

ـ لماذا يناصب الباشا الحسان العداء؟

تناول الباشا قطعة جبن. ألقى بها في فمه وشرع يمضغها باشمئزاز. مضغها طويلاً قبل أن يبتلعها بعسر. قال:

ـ لأني لم أجد في الدنيا أقبح من الحسان!

استنكرت إستير بلهجتها الماكرة التي تمتزج فيها السخرية بالفضول، الهزل بالجِدّ، العجب من كل شيء بالاستهتار بكل شيء:

ـ كيف يكون الحُسن قبيحاً يا مولانا؟

أجاب الباشا بلا إبطاء:

ـ يكون الحسن قبحاً عندما تكون صاحبة الحسن غبيّة، أو مستكبرة، أو باردة، أو.. تافهةً. ولا أحسب أنكنّ ستنكرن تفاهة الحسناوات، بل وبلادتهن أيضاً!

تدخّلت زهرة:

ـ بعض الحسناوات لا ينقصهن الخبث!

قال الباشا:

ـ الخبث نعم، ولكن الذكاء هيهات!

ضحكت المرأتان. تساءلت إستير بخبث:

ـ هل يعني هذا أن مولانا يفضّل القبيحات؟

الباشا: أنا أفضّل ما يبدو للناس قبيحاً!

زهرة: هل يعني هذا أن الباشا اختارنا من دون النساء جميعاً بسبب قبحنا؟

الباشا: اخترتكنّ من دون نساء الأرض بمظهركنّ الذي يبدو للناس قبيحاً!

إستير: وهل يخفي مظهرنا شيئاً آخر غير القبح؟

الباشا: بلى. مظهركنّ يخفي حُسْناً!

ضحكت المرأتان بسعادة حقيقية، في حين أضاف الباشا:

ـ مظهركنّ يخفي حُسْناً لا يراه إلاّ الباشا!

ضحكت المرأتان. ضحك الباشا أيضاً. قالت زهرة:

ـ هذا وسام على صدرينا يا مولانا!

قالت إستير:

ـ لو سمعك حسن بك لتميّز غيظاً!

ـ يسعدني أن يتميّز حسن بك غيظاً!

ضحكت زهرة، ولكن إستير أضافت بتجهّم:

ـ لا أعرف لماذا يكرهني حسن بك.

ـ يكرهك لحظوتك عندي!

سكتت إستير فأضاف الباشا:

ـ يكرهك أيضاً لأنّك لستِ امرأة، ولكنّك رجل!

ـ رجل؟

ـ بل أقوى من أيّ رجل!

ـ هل يقصد مولاي قوّة البدن، أم قوّة..

قاطعها الباشا:

ـ قوّة الروح وقوّة البدن أيضاً!

أطلق الباشا ضحكة. ضحكت إستير أيضاً. قالت زهرة:

ـ الباشا قال الحقّ: من يجرؤ من رجال المملكة كلّها أن يصارعك؟

ضحك الجميع. ولكن إستير ما لبثت أن عادت إلى سيرة البك:

ـ الحمد للربّ لأني لست الوحيدة التي يناصبها حسن بك العداء!

تفلسف الباشا:

ـ من لا عدوّ له لا قيمة له!

ـ أخشى ما أخشاه أن يسخّر أجيراً يطعنني بالخنجر غيلةً!

ـ لا أظن أنّك مهدّدة إلى هذا الحدّ.

سكتت إستير لحظة. أضافت:

ـ لا أدري كيف يمكن لإنسان كهذا أن يتولّى العرش!

ـ العروش تربّعت فيها حتّى القردة!

ـ أن تتربّع في أجوافها القردة أحياناً أفضل من أن تتربّع فيها بعض أجناس الإنس!

تطلّع إليها الباشا بعينين غزاهما لون الحمرة. تساءل:

ـ ماذا تريدين؟

طأطأت إستير، في حين بدأت زهرة تتنقّل ببصرها بين الباشا وبين إستر. رفعت إستير بصرها نحو الباشا. قالت بغموض:

ـ أنت تعرف ماذا أريد يا مولانا!

تبادلت مع الباشا نظرة طويلة. قال الباشا:

ـ لا أستطيع!

عمّ سكون. الأنفاس وحدها ظلّت تُسمع في محراب السكون. تكلّم الباشا:

ـ لو فعلت ما تريدين لاستهنت بناموس العروش. وبرغم ما تشيعه ألسنة النميمة من استهتاري بالشرائع إلاّ أني أستطيع أن أفخر بأني لم أخالف أيّ ناموس سنّته الأجيال!

سكت. مدّ يده فاختطف الكأس. احتسى جرعة قبل أن يضيف:

ـ والحقّ أن عدم رغبتي في مخالفة الناموس ليس السبب الوحيد الذي يثنيني عن حرمان حسن بك من العرش!

لاح الفضول في عيني إستير الجاحظتين، في حين أضاف الباشا:

ـ إذا كان الناس يرونني مريد نساء، ويرون في يوسف مريد حُكم، فإنّهم لا بد أن يروا في حسن مريد مال أيضاً!

هتفت إستير:

ـ بالطبع يرى الناس في حسن بك مريد مال. بل لا يرون فيه يا مولانا إلاّ مريد أموال!

تطلّع الباشا إلى إستير وابتسم. قال:

ـ أحسنتِ. ها أنت تنجدينني بالبرهان على حسن اختياري!

استنكرت إستير بنظرة فأضاف الباشا:

ـ أركان الدنيا في عرف الرجال ثلاثة: امرأة ومال وسلطان. ألن توافقيني على هذا؟

هزّت إستير رأسها إيجاباً، فمضى الباشا:

ـ إذا كنت أنا مريد النساء في هذا الثالوث، ويوسف مريد السلطان، فلا بد أن يكون حسن بك الركن الثالث في الثالوث كمريد للمال. فكيف تريدينني أن أستغني عن حسن دون أن تتزعزع أركان المملكة بقصاص؟!

هيمن صمت جديد. تكلم الباشا بلهجة غريبة:

ـ الكلّ يدري أن حسن بك يكرهني، كما أعترف بأني لا أميل إلى حسن كثيراً برغم أنه بكر أبنائي. ولكن الرباط الخفيّ الذي يشدّني إليه أقوى منّي. ربّما لأنه الخطيئة!

تساءلت إستير بدهشة:

ـ الخطيئة؟

أجاب الباشا غائباً:

ـ في الخطيئة سرّ لا يعلمه إلاّ عتاة الخطاة. الخطاة وحدهم يستطيعون أن يحبّوا بعضهم بعضاً كما لا يحب إنسان إنساناً آخر!

ساد السكون من جديد. ولكن الباشا تناول كأسه بين يديه وانكفأ عليه كأنه يقرأ في السائل نبوءة. أمّا إستير فراقبته غائبة قبل أن تهجم على مائدة العشاء لتدفن غيظها في صنوف الأطعمة!

17

أَمَر حسن بك باستدعاء سيدي أحمد للمثول بين يديه. ولكن شقيقه تنصّل من الحضور متحجّجاً بوعكة مفاجئة مما استفزّ البك وضاعف من شكوكه.

قام يذرع البلاط ذهاباً وإيّاباً في اللحظة التي دخل فيها الحاجب معلناً وصول رسول من قائد الجيش. أَذِنَ له بإيماءة فخرج الحاجب ليدخل الرسول. أدّى التحية بالباب فأومأ له برأسه. كان ضابطاً يافعاً، نحيل البُنْية، قصير القامة، أزرق العينين مما يقطع بانتمائه إلى سلالة الأعلاج. انتظر إشارة البك، ولكن البك استمرّ يخطو ذهاباً وإيّاباً. قال غائباً:

ـ انطق!

ولكن الرسول لم ينطق، بل أدخل يده في جيبه وأخرج منه قرطاساً ملفوفاً في رقعة. تقدّم خطوتين ليقدّمه للبك، ثم تراجع خطوتين وانتظر بجوار ضلفة الباب. استخرج البك القرطاس من ثنايا المظروف. قرأ القرطاس، ثم تمهّل قبل أن يلوّح بيده في الهواء كأنه يطرد عن وجهه ذبابة. طأطأ. انتصب في وقفته ليأمر الرسول:

ـ تستطيع أن تنصرف!

أدّى الرسول التحية قبل أن ينصرف. تمتم البك:

ـ صدق الوالد: لا يروق للبلايا أن تقبل إلاّ أفواجاً!

انكبّ على القرطاس من جديد. قرأ خطاب قائد الجيش: «الوضع يسير من سيء إلى أسوأ. بالأمس انضمّت قبائل الصحاري الوسطى إلى المتمرّدين. وقد باغتت جحافل سيف النصر فرقتنا المرابطة بمسلاّته فأبادتها واستولت على عدد من المدافع وشحنات البارود. وقد وضع هذا الشيخ شرطاً غريباً لمفاوضتنا هو عزل عدوّه القديم رمضان الأدغم من منصبه كوالٍ لمصراته. الدّعي مصطفى الآن في وضع أفضل ممّا كان عليه في أيّ يوم مضى برغم انسحابه إلى الجبل ليتحصّن بحمى شيخ المحاميد. أفيدونا بالتدبير عاجلاً..».

عاد يهزّ القرطاس أمام وجهه كأنه مروحة. خاطب نفسه بصوت مسموع:

ـ عزل الأدغم في ظلّ الهزيمة شرط مهين!

ألقى بالقرطاس على المنضدة. تسكّع عبر البلاط ذهاباً وإيّاباً. تسكع زمناً قبل أن يتوقّف فجأة كأنه تلقّى إلهاماً. قال بصوت مسموع أيضاً:

ـ المرابطون!

ثم بعد لحظة صمت:

ـ إذا لم يتدخّل الأولياء فلن أضمن العاقبة!

تقدّم من المنضدة وقرع جرساً فدخل الحاجب. أمر بإبلاغ الأعوان الإعداد للخروج. مكث في البلاط بضعة دقائق، خرج.

التفّ حوله الأعوان والخدم والعسس بمجرّد خروجه. تكلّم كبير الضبّاط:

ـ الموكب بانتظار مولاي!

فأعلن البك:

ـ إلى الضاحية!

ردّد كبير الضباط ببلاهة تخفي سؤالاً يخشى أن يلقيه:

ـ إلى الضاحية..

فأوضح البك وهو يتحرّك عبر الممرّ الطويل المظلم ليلاً نهاراً:

ـ إلى أولياء المنشية!

أضاف:

ـ حالاً!

ولكن كبير الضبّاط طلب اليقين قطعاً للشكّ:

ـ نعم يا مولاي: إلى أضرحة المنشية!

حدجه البك بصرامة. ثم عاد فابتسم. أوضح بلهجة تسامح:

ـ بل إلى أولياء المنشية الأحياء لا الأموات أيها الغبيّ!

غمغم كبير الأعوان بلهجة اعتذار:

ـ بلى، بلى. إلى أولياء المنشية الأحياء يا مولاي!

بلغ نهاية الممرّ مطوّقاً بالحاشية. ولكنه توقّف في الزاوية عندما تذكّر القصيدة. قال بصوت عالٍ أثار دهشة الحاشية:

ـ لن أذهب إلى أولياء المنشية!

فهتف كبير الضبّاط:

- بلى. لماذا على مولاي أن يذهب إلى أولياء المنشية إذا كنّا نستطيع أن نأتي بأولياء المنشية إلى مولانا؟

البك لم يبتسم. ربما لأنه لم يسمع. ولكنه استدار فجأة ليأمر:

- إلى جناح سيدي أحمد!

فأعلن كبير الأعوان ليُسمِع بقية أفراد الحاشية:

- إلى جناح سيدي أحمد!

عاد على عقبيه عبر الممرّ الطويل الأظلم. الممرّ أفضى إلى ممرّ آخر لا يقل ظلمة. بعد مسافة تفرّع إلى ممرات كثيرة كلّ ممرّ يفضي إلى أحد الأجنحة. ولكن جناح سيدي أحمد ما زال بعيداً. لأنه يقع إلى جوار جناح سيدي يوسف في ممرّ آخر مفصول عن بقية الأجنحة بباب مهيب لا يقلّ حجماً عن باب هوّارة أو باب البحر، مزبور الحواشي بآيات القرآن، يبقى مفتوحاً ساعات النهار، ولكنه يُقفل بحلول الليل حرصاً على أجنحة الحريم من وساوس إبليس الرجيم الذي يزيّن للرجل في الظلمة المنكر حتّى مع الأخت فكيف بقرينة الأخ؟

خارج البيت هلاع لملاقاتهم العسس. خليط من الضبّاط والخدم والعسس وخلاّن الزور. كانوا مدجّجين بالأسلحة جميعاً. وقفوا في مواجهة البك باستفزاز. بل بجفاء لا يخفي العداء. كانت نظراتهم تنطق بكراهة ممزوجة بالخوف. أمّا أيدي الأغلبية فتتشبّث بمقابض السيوف. شلّت الدهشة حاشية البك فاحتكموا إلى السيوف أيضاً. ولكنه استوقفهم بإشارة من يده. قال:

ـ لم آتِ لأشنّ على شقيقي غارة، ولكنّي أتيت لأداء فريضة زيارة القريب إذا مرض!

ولكن الاستنفار استمر فاضطرّ البك أن يتجرّد من سيفه ويسلّمه إلى كبير ضبّاطه قائلاً:

ـ سأتجرّد من سلاحي إذا كنتم تشكّون في أمري، وسأدخل بيت شقيقي أعزلاً!

أومأ للحاشية بأن تبتعد فتراجع الأعوان خطوات. تنحّى عسس سيدي أحمد أيضاً فتقدّم من البك أحد الخدم. مشى أمام البك عبر دهليز معتم كأنه قبو. انتهى الدهليز إلى ممر أنيق ملفوف الجدران بستائر منسوجة من صنوف الخزّ الملوّن. أفضى الممرّ إلى ردهة مفروشة بالسجّاد المستقدم من بلاد الأعاجم، والأرائك المستوردة من البندقية. ولكن الخادم الزنجي النحيل عبر الردهة إلى رحاب دارٍ ذات أسقف عالية مفروشة بسجّاد أفخم من سجّاد الردهة، تنتشر في زواياها الأرائك المطعّمة بعروق الذهب، تستلقي في أحضانها الطنافس الموسّمة أيضاً بشرائط الذهب. أمّا ستائر النوافذ المطلة على المرفأ فموشّاة في أطرافها بخيوط سخية من الفضّة.

انحنى أمامه الخادم قبل أن ينصرف فانشغل البك بتأمّل لوحة معلّقة على الجدار لامرأة رومية عارية في اللحظة التي دخل فيها سيدي أحمد بحلّته الرسمية المزيّنة بالذهب، متمنطقاً بسيفه المغمور في غمد الذهب أيضاً، وجهه يشعّ بالعافية. قال البك:

ـ عشٌّ جميل!

ثمّ التفت إلى شقيقه ليضيف:

ـ يليق بإغواء الحسان!

قال سيدي أحمد:

ـ كان يمكن لهذا العشّ أن يصير أجمل لو لم ينتهكه سيدنا البك بجيشه!

ابتسم البك فتساءل سيدي أحمد بتحدٍّ:

ـ هل جئت لترهبني؟!

عاد البك يتلهّى بتأمّل اللوحة. قال:

ـ العكس أصح: جئتُ للاطمئنان على صحّتك فاعترض طريقي جيشك!

سيدي أحمد: وهل يحتاج الأخ أن يقوم بزيارة للاطمئنان على صحّة أخيه مدعوماً بمفرزة الجند؟

البك: هذه ليست مفرزة. إنها حاشية. أم أنّك نسيت أنني بك هذه المملكة؟

ابتسم سيدي أحمد باستخفاف. قال باستخفاف أيضاً:

ـ وهل أجرؤ فأنسى؟ هل يجرؤ مخلوق في هذه المملكة، بل في هذه الدنيا، أن ينسى أن سيدي حسن هو البك؟

خطا جانباً. تطلع إلى المرفأ عَبْر النافذة. أضاف:

ـ بل نحن لا نجرؤ أن ننسى أنّك البك الذي انتحل دور الباشا قبل أن يُوارى الباشا التراب!

البك: كثيراً ما يخيّل لي أني أسمع لغة سيدي يوسف عندما أسمعك في الآونة الأخيرة!

سيدي أحمد: لست في حاجة لأن أستعير صوت سيدي يوسف كي أسمعك الحقيقة!

استنكر البك:

ـ الحقيقة؟ ليس عليك أن تتباهى بقول الحقيقة إذا كانت الأكذوبة قد جرت على لسانك اليوم مرّتين: مرّة عندما تظاهرتَ بالمرض كي تتنصّل من وزر المثول بين يديّ، لأنك لا تتوقّع أن يذهب الجبل إلى محمّد عندما لا يذهب محمّد إلى الجبل كما يقول النصارى. أمّا في المرّة الثانية..

قاطعه سيدي أحمد:

ـ هل أكذوبة أن أجنّب نفسي التهلكة؟

حسن بك: التهلكة؟

سيدي أحمد: الوصيّة التي قررت أن أتخذها شعاراً هي: «لا تثق في أحد!».

البك: ولماذا قررتَ فجأة ألاّ تثق بي؟ هل أذنبتَ في حقّي حتى تنتظر منّي كيْداً؟

سيدي أحمد: يقولون أن صاحب الصولجان ما هو إلا مكيدة متنقّلة!

البك: ها أنت تنتحل الحجج لكي لا تعترف بأكذوبتك الثانية!

سيدي أحمد: أيّ أكذوبة ثانية؟

تقدّم نحوه البك خطوات: عقد يديه وراء ظهره. حدّق في عينيه. قال بهدوء يعِد بوعيد:

ـ القصيدة!

حدّق سيدي أحمد في عينيه أيضاً. تساءل بدهشة:

ـ أيّة قصيدة؟

ـ أنت تدري عن أية قصيدة أتحدّث!

استنكر سيدي أحمد:

ـ هل تريد أن تتهمني بقول قصيدة أم بإخفاء قصيدة؟

ـ بكليهما معاً!

ضحك سيدي أحمد. ضحكة عصبية اغتصبها اغتصاباً. قال:

ـ قول الشعر هو ما لم يخطر ببالي يوماً. ثم.. ثمّ أن من يقول الشعر لا يخفي الشّعر. الشعر هو الشيء الوحيد الذي نقوله لنذيعه لا لنخفيه!

حسن بك: هذا عندما يكون الشعر شعراً. أعني عندما يكون الشعر بريئاً!

سيدي أحمد: هل هي قصيدة هجاء؟

البك: بل هي قصيدة غزل!

سيدي أحمد: غزل؟

سكت البك. استمرّ يحدّق في عيني شقيقه ويرتجف. لاحظ سيدي أحمد رجفته فخطا إلى الوراء وهو يتساءل:

ـ لمن أوجّه الغزل في القصيدة المزعومة؟

ولكن حسن بك خطا نحوه خطوتين. في عينيه لاحظ الشقيق إيماءً مريباً. إيماء غريب كان من السلطان بحيث استنزل في قلبه الإلهام. هتف باستغراب:

ـ للاّ . .

لم يجرؤ على استكمال الاسم فهرع البك لنجدته بهزّة من رأسه. لحظتها تراجع سيدي أحمد خطوة. انهار على الأريكة. تمتم غائباً:

ـ هذه نميمة! كيف تصدّق أنّي أستطيع أن أرتكب إثماً كهذا؟

تزعزع اليقين في قلب البك. تطلّع إلى البحر من النافذة. قال:

ـ هل تظنّ أن ميزلتوب تجرؤ على الترويج لكذبة كهذه؟

ردّد سيدي أحمد باستنكار:

ـ ميزلتوب؟

قال البك:

ـ لو كانت في قلبي ذرّة شكّ لما تجرأتُ على الدخول إلى بيتك مجرّداً من السلاح لألقي في وجهك بتهمة كهذه؟

ـ ولكن هذه فتنة!

نهض واقفاً. خاطب أخاه:

ـ كان الأجدر أن تبحث عن سرّ هذه المكيدة في بيت إستير، أو في مخدع سيدي يوسف!

ولكن البك لم يلتفت. استمرّ يتطلّع إلى السفن في المرفأ. فوق رايات السفن حلّقت النوارس في أسرابٍ كثيفة. في البُعْد استلقى البحر الأبدي بلونه الأزرق ولا مبالاته الخالدة. قال البك:

ـ أنت لا تدري أني لم أحبّ أحداً في دنياي سواك. أحببتك أكثر مما أحببت أمي وأبي. لا أعرف لماذا يخيّل لي أن الأشقاء الأكبر سنّاً يحبّون أشقاءهم الأصغر سنّاً أضعاف ما يحبّ الأصغر سنّاً

أشقاءهم الأكبر سناً. ربّما لأن الشقيق الأكبر يجمع الأخوّة في الدّم مع إحساس الأبوّة أيضاً. في قلب الشقيق الأكبر يسود الإحساس بالمسؤولية تجاه الشقيق الأصغر. نوع من الإنابة عن الأب إلى جانب الإحساس بالأخوّة. هذا يجعل من محبّة الشقيق الأكبر لأخيه الأصغر محبّة خطرة. نوع من مرض يحاول الشقيق الأصغر أن يتحرّر منه بأي ثمن، فلا يملك لتحقيق ذلك إلاّ أن يكرهه!

سكت لحظة. أضاف:

ـ لقد حيّرتني كراهتكما لي دائماً، وكان عليّ أن أتألّم طويلاً لأجد الجواب. بلى. من يحبّ أكثر ممّا ينبغي عليه أن يدفع الثمن! ولولا عبادتي لجناب الحريّة لقتلتكما معاً!

تساءل سيدي أحمد بحشرجة كالهمس:

ـ الحرية؟

أجاب البك دون أن يعود من رحلته البحرية:

ـ أجل. السرّ هو الحرية. لقد نجوتما لأن كراهتكما لي ما هي إلاّ ضرب من تحرّر. لأنكما في قرارة نفسيكما على يقين من قدرتي على إبادتكما لا بسبب الكراهة ولكن بسبب الحبّ. أجل، أجل. لا تستعجب: الحبّ هو الذي يميت لا الكراهة. ورفض حبّ المخلوق ما هو إلاّ فرار إلى الحرية. هل تدري لماذا؟

لم ينتظر على سؤاله جواباً. أضاف:

ـ لأن الدراويش على حقّ عندما يقولون أن عشق المخلوق خطر بقدر ما يكون عشق الخالق نجاة من الخطر!

انتزع البك نفسه من رحلة البحر. التفت إلى شقيقه ليقول:

ـ إذا كان الخالق غيّور على مخلوقه إلى الحدّ الذي يغويه بالحرية كي يتخلّى عن عشق المخلوقات ويعيده إلى حضيرته، فكيف تريدني ألاّ أستشعر الغيرة على للأعويشة التي جلبت لي العزاء بعد أن فقدتكما إلى الأبد؟

لم يتكلّم سيدي أحمد فأضاف البك:

ـ أنتما لم تكتفيا بكراهتي فحسب، ولكنكما أضفتما إلى الكراهة ما هو أسوأ من الكراهة: الاحتقار!

تمشّى أمام النافذة. قال:

ـ ظننتما كما ظنّ الجميع بأني لا أحرص على انتزاع المكوس إلاّ لحرصي على جمع المال، ونسيتما أن لا مملكة بلا مكوس. ليس هذا فحسب، ولكن ما غاب عنكما كان أسوأ يوم أنسَتكما الظنون الغاية من جمع المال، ولا تدرون أن المال وحده يستطيع أن يحقق لنا الحرية ما دمنا قد اخترنا حياة أهل الدنيا لا حياة أهل الزهد في الدنيا!

تطلّع إليه سيدي أحمد بنظرة شكّ فأضاف البك بيقين:

ـ صدّق أو لا تصدّق، ولكن المال حرية. حرية دنيوية، فليكن، ولكنها حرية. والأيام وحدها ستبرهن من منّا على حقّ، ومن منّا على باطل!

تبادل مع شقيقه نظرة قبل أن يستدير ليمضي.

18

قال حسن بك للباشا ما أن مَثُل بين يديه:

- يسعدني اليوم أن أزفّ لك بشارة!

حدجه الباشا بارتياب في حين أضاف البك:

- تنازل زعماء القبائل عن كبريائهم وقبلوا الصلح!

سكت الباشا. قال بعد لحظة:

- يؤسفني أن يقبلوا الصلح بعد أن حقّقوا غلبة!

- هل تعني مصرع الأدغم؟

هزّ الباشا رأسه إيجاباً. قال حسن بك:

- تلك لم تكن غلبتهم، يا أبي، بقدر ما كانت غلبتنا نحن!

استنكر الباشا:

- غلبتنا نحن؟ نفقد على أيديهم أَوْفَى ولاتنا ثم تحاول أن تقنعني بأن هذا المصاب كان غلبتنا؟

أجاب حسن بك بيقين:

- بلى، يا مولانا، تلك كانت غلبتنا لسبب لن يُخْفَى على أحد.

تطلّع إليه الأب بنظرة شكّ، بل بنظرة تنطق بإيماء كأنه الكراهة. تساءل:

- عن أيّ سبب تتحدّث؟

ولكن حسن بك خاطب الأب بحججه كأنّه يقرأ في قرطاس:

- رمضان الأدغم لم يكن يوماً أوفى الولاة ولكنه كان أسوأ

الولاة! وسيف النصر لم يصرعه ليتخلّص منه بقدر ما صرعه ليخلّصنا منه!

استنكر الباشا:

ـ يخلّصنا منه؟

ـ بلى. لقد اشترط هذا الزعيم أن نعزل له هذا العدوّ عن عمالة مصراته كي يقبل مجرّد التفاوض. وهو شرط مهين لنا فيما لو قبلناه، برغم أن الخلاص من طاغية كالأدغم عمل من شأنه أن يجنّبنا متاعب جمّة في المستقبل فيما لو حققناه في ظلّ ظروف أخرى غير الاستجابة لشروط الخصم. وقد تحمّلنا قليلاً فتولّت الأيام حمل الوزر عنّا. وها هو سيف النصر يعرض المصالحة بعد أن زال سبب عداوته لنا بسبب زوال الأدغم فيتطوّع بإرسال ابنه لنا كرهينة ليبرهن لنا على حسن نواياه.

ـ هل أنت على يقين أنه سيرسل ابنه كرهينة؟

ـ لقد ذهب إلى أبعد من هذا يا أبتي، لأنه أقنع الشيخ بن مخيريق كي يبعث أيضاً بابن أخيه رهينة!

ـ لا أصدّق!

ابتسم حسن بك لأوّل مرّة. أضاف:

ـ كما تُقْبِل البلايا أفواجاً، يروق لها أيضاً أن تُدبر أفواجاً!

تكلّم الباشا بلهجة شكّ:

ـ ألن تكون هذه مناورة؟

أجاب حسن بك بيقين:

ـ أنت لا تجهل عُرف القبائل. إن كلمة الزعيم عهد، والعهد في يقينهم ناموس مُنزّل!

ـ ومتى سنسعد باستقبال الرهائن؟

ـ في الأمد الذي تستغرقه مسافة الطريق.

تململ الباشا في عرشه. في وجهه لاحت سيماء بلبلة. قال:

ـ هذا حسن جدّاً، ولكن ماذا عن الدّعيّ مصطفى؟

سكت حسن بك. نهض من مقعده. تمشّى في البلاط. تقدّم من الباشا. قال بلهجة ذات معنى.

ـ شوكة مصطفى انكسرت فاعتصم بصخور الجبل!

ـ ماذا يعني اعتصامه بصخور الجبل إذا كانت شوكته قد انكسرت كما تقول؟

ـ هذا يعني أنه لم يعد يشكّل على المملكة خطراً برغم لجوئه إلى قبائل المحاميد!

حدّق الباشا في عيني حسن بك. تساءل:

ـ هل تريد أن تقول أن شيخ المحاميد أجاره كعادته؟

ـ بلى!

ـ وكيف يدّعي الجنوح إلى السلم ويبعث لنا بابن أخيه رهينة إذا كان يجير في دياره الدّعي مصطفى؟

تسكّع البك أمام الأب لحظات. توقّف. قال:

ـ أن يحتكم الزعيم، في عرف القبيلة، إلى السلم أمر لا علاقة له بإجارة من استجار بحمى القبيلة. أعني..

سكت حسن بك قبل أن يكمل فتساءل الباشا:

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أننا لسنا الآن في وضع يسمح لنا بدفع القطّ إلى الجدار!

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أن الحكمة تقتضي أن نقبل بالسلم بأيّ ثمن ونترك للذئب الجريح فرصة الفرار بعيداً!

سكت الباشا. برطم بعبارة مبهمة. تساءل:

ـ ما هي آخر أخبار الوباء؟

زفر البك بإعياء. قال بلهجة كأنها اليأس:

ـ انتظرنا أن يأتي من الباب، ففوجئنا به وقد دخل من النافذة!

ـ ماذا؟

ـ انتظرنا أن يغير على زوارة قادماً من تونس، ولكنه تخفّى في بطن سفينة ليكتم أنفاس أحد الحمّالين في تاجوراء!

ـ بلاء!

هتف الباشا، ثم أضاف:

ـ لا يتخلّى عنّا بلاء إلاّ لينزل ساحتنا بلاء!

تفلسف البك:

ـ ما الدنيا إلاّ ساحة تتبادل فيها البلايا الأدوار!

ولكن الباشا قفز إلى سماء أخرى:

ـ والويل ثم الويل لمن يجد في النساء العزاء!

تساءل البك بدهشة:

ـ النساء؟

غمز الباشا بعينه الحمراء ليقول بلهجة خبث:

ـ نعم. النساء! لماذا تكابر؟

ـ أكابر؟

ـ بلى. لماذا لا تريد أن تعترف؟ لماذا تفعل خِفْيَةً ما تستطيع أن تفعله في وضح النهار؟ هيء ـ هيء ـ هيء..

كتم ضحكته الغريبة قبل أن يضيف:

ـ تفعلون في الخفاء ما تنكرون عليّ فعله في العلن. أليس هذا نفاقاً؟

أفاق البك من دهشته. ابتسم. انتصب في مواجهة الأب. قال:

ـ أبي ينسى أنه صاحب عرش. وليس على صاحب العرش أن يفعل أمام الملأ ما يستطيع أن يفعله في الخفاء، سيّما إذا تعلّق الأمر بمعشر النساء.

أغمض الباشا عينيه. هدأ في عرشه. انتظمت أنفاسه حتّى أيقن البك بأنه نام. ولكنه ما لبث أن سمع من شفتيه سؤالاً:

ـ هل تنازلت عن ابنة الكاهية بسبب زنوبيا حقّاً؟

أطلق البك ضحكة استخفاف. أجاب:

ـ لماذا لا أتنازل عنها بسبب للأعويشة؟

تضاحك الباشا فترجرج بدنه في عرشه. قال مغمض العينين:

ـ الخبثاء يقولون أنّك أطلقت اسم «زنوبيا» على ابنتك تيمناً بمعشوقتك زنوبيا!

ـ الخبثاء من يقول ذلك أم الخبيثات؟

فتح الباشا عيناً في حين استمرّ يغمض عيناً. قال:

ـ أنت تعني إستير، فليكنّ! اعترف أن إستير هي من قال ذلك إذا كان هذا يعني في عرفك شيئاً.

ـ بلى يا أبتي. هذا يعني أنه نميمة عندما تقوله إستير!

ـ لا أعرف لماذا تتحامل على إستير!

ـ لأن إستير هي السّوس الذي ينخر كيان هذه المملكة!

ـ أنت تكرهها لأنها الوحيدة في هذا القصر الذي لا يخشى قول الحقيقة!

استنكر الابن:

ـ الحقيقة؟

أغمض الباشا عينه الأخرى. سَكَنَ في عرشه. تمتم:

ـ حقيقتك أنت بالذّات!

ثم أضاف:

ـ ولكنها برغم كل هذا لا تمانع في أن تمدّ لك يد الوفاق!

ـ الوفاق؟

ـ قررتُ أن أعقد صلحاً بينكما!

ـ الأجدر بك أن تعقد صلحاً بيني وبين شقيقيّ لا صلحاً مع إستير!

ـ أملك سلطاناً على إستير، ولكني لا أملك سلطاناً على أخويك!

تسكّع البك عبر البلاط مرّة أخرى عاقداً يديه وراء ظهره. قال:

- في كل الأحوال أنا في غنى عن الصلح مع كل هؤلاء. هل تدري لماذا؟ لأن الإنسان الذي يعرف ماذا يريد لن يكون في حاجة لمدّ يد الصلح لأناسٍ يعرف أن مصالحتهم لن تعدو أن تكون استبدال عدوّ معلن بعدوّ خفيّ!

تمتم الباشا من رحاب غيبوبته الأبدية:

- إذا كان عدم الثقة في الأغيار حكمة الدنيا، فإن الثقة في النفس أكثر مما ينبغي خطيئة.

سكت البك. تمشّى. عاد إلى سيرة إستير:

- لا أعرف يا أبي كيف تتهاون مع هذه السوسة التي بلغت بها الجرأة حدّاً تتطاول فيه على شرف وريث العرش!

ردّد الباشا بصوت كالهمس:

- شرف وريث العرش..

- أنت لن تنكر أنها هي التي بعثت بابنتها التي ورثت عن أمّها مهنة القوادة لتحرّض للآعويشة للارتماء في أحضان عشيق زعمت أنه كتب في محاسنها قصيدة شعر. فهل تدري من هو هذا العاشق المزعوم؟

أجاب الباشا باشمئزاز:

- أعرف، أعرف. ولكن الحكمة أن نتجاهل مكائد الحريم التي لم يحدث في تاريخ الممالك أن خلا منها قصر من القصور!

تطلّع إليه البك بذهول، ولكن الباشا كان قد أغمض عينيه واستسلم لغيبوبته. هدّد حسن بك:

ـ لن يهنأ لي بال حتى أكتم أنفاس هذه الجنيّة!

تكلّم الباشا من غيبته:

ـ أخشى أنّك فوّت فرصة كتم أنفاس الجنيّة!

تساءل البك:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

أجاب الباشا مغمض العينين:

ـ لأن ميزلتوب ركبت البحر البارحة في طريقها إلى مالطا!

هتف البك:

ـ ركبت البحر في طريقها إلى مالطا؟

ـ ولن تعود إلى طرابلس أبداً!

ـ يوسف!

غمرت وجنتيه سحابة شحوب. أضاف:

ـ هذه مكيدة جديدة من محبوبك يوسف!

اعترف الباشا:

ـ يوسف محبوبي حقّاً، هل تعرف لماذا؟

لم ينتظر جواباً. أجاب:

ـ لأنه يوسف، وأنا يعقوب!

ترجرج بضحكة لئيمة قبل أن يضيف:

ـ أمّا أنت فالفرعون عزيز! ها ـ ها ـ ها..

تأمّل البك بدن أبيه المكوّم في جوف العرش مثل جوال هائل ملآن بالتبن قبل أن يستدير ليمضي. ولكن الباشا استوقفه بعبارة:

ـ البارحة انضمّ إلى قائمة أعدائك عدوّ جديد، فاحترس!

انتظر البك فأوضح الباشا بعينين مغمضتين:

ـ البارحة لفظت ابنة الكاهية أنفاسها بسبب الطعنة المميتة التي وجهتها إليها!

19

في جناح للاّ حلّومة جلس سيدي أحمد. كانت تتطلّع إليه وهو يعبث بيديه فتبتسم لأنها تعلم أنه يخفي أمراً كلّما عبث بيديه. كانت هذه عادته منذ الطفولة. وكان عليها أن تبدأ استجوابه دائماً إذا شاءت أن تنتزع منه نواياه الخفيّة. اليوم أيضاً أقبل عليها طفلاً. أقبل عليها لا ليقول لها شيئاً، ولكن ليخفي عنها شيئاً. لهذا السبب لم تجد مفرّاً من أن تمدّ له يد العون:

ـ أراك تريد أن تزفّ لي بشارة!

ابتسم، ولكنه لم يكفّ عن عبثه بيديه. قال:

ـ أجل. جئت لأقول لكِ أنّك اجمل امرأة لا في طرابلس وحدها، ولكن في الدنيا كلّها!

ابتسمت له للاّ حلّومة بعذوبة. داعبته:

ـ أما زلت تريد أن تتزوّجني كما في الطفولة؟

أجاب دون أن يرفع إليها رأسه:

ـ لو لم تكوني أمّي لما ارتضيت لنفسي امرأة سواك!

أطلقت الأمّ ضحكة. قالت:

ـ لو لم تكن صغيري الذي جئت به من بطني لما رضيت برجلٍ سواك!

ابتسم سيدي أحمد. شيّع نحوها رأسه. قال بغموض:

ـ ما دامت الأقدار قد قررت أن تفرّق بيننا عندما جعلتنا أمّاً وابناً فلا مفرّ من اللجوء إليك لتبحثي لي عن عروس!

هتفت للاّ حلّومة:

ـ لولا خوفي من العُرف لأطلقت زغرودة!

ثم أضافت:

ـ شرف لنساء المملكة لو اخترت منهنّ امرأة!

ولكن سيدي أحمد طأطأ ليقول:

ـ سعاد!

عبست للاّ حلّومة. تساءلت:

ـ سعاد ابنة الكاهية؟

أومأ سيدي أحمد برأسه إيجاباً فعمّ صمت. تطلّعت إليه الأمّ بارتياب. تساءلت فجأة:

ـ هل هذه نكاية؟

رفع إليها بصره ثم عاد فطأطأ من جديد. تمتم:

ـ نكاية في حقّ مَنْ؟

ـ بالأمس القريب تخلّى البك عن شقيقتها الكبرى فماتت المسكينة كَمداً. واليوم تتقدّم أنت لخطبة شقيقتها الصغرى. أفلن يرى الناس في هذا نكاية في حقّ أخيك من أمّك وأبيك؟

ـ أخي من أمّي وأبي لم يستشرني يوم قرّر أن يتنازل عن شقيقتها الكبرى، فلماذا عليّ أن أتخلّى عن شقيقتها الصغرى إكراماً له؟

راقبته الأمّ بشكّ برغم ارتسام البسمة العذبة على شفتيها. قالت:

ـ لا أريد لكما خصاماً بسبب امرأة!

ـ لا يختصم الرجال إلاّ بسبب امرأة!

ـ يختصم بسبب امرأة الرجال لا الأشقاء!

ابتسم سيدي أحمد باستخفاف. قال:

ـ أيقنتُ يا أمّي أن الأشقّاء هم الأعداء، بل ألدّ الأعداء!

توعّدته الأمّ:

ـ إيّاك أن تمضي بعيداً كما مضى شقيقك يوسف!

تمتم الأبن:

ـ يؤسفني أن يكون يوسف على حقّ.

ـ وصيّتي لك: لا تفعل شيئاً أبداً على سبيل النكاية!

ثم مالت نحوه لتتساءل:

ـ ولكن أخبرني: هل القصيدة هي السبب؟

ـ القصيدة المزعومة كانت القشّة التي قصمت ظهر البعير!

ـ بالأمس سمعتُ من ألسنة الجواري أبياتاً منها!

سدّد للأم نظرة دهشة. تساءل:

ـ كيف تسمعين من ألسنة الجواري أبياتاً من قصيدة لا وجود لها؟

ـ إذا أُشيع أنها وُجدت فإنها موجودة حتّى لو لم توجد!

ثم أضافت:

ـ أم أنّك ما زلت تجهل الحياة في البلاط؟

عاد يعبث بيديه. قال:

ـ كان يمكن أن تكون أكثر فتنة حقّاً لو لم تكن امرأة أخي!

في عينيها تألّق إيماء غريب. سدّدت نحوه نظرتها المشحونة بالوميض. داعبته بلهجة العبث:

ـ إغواء امرأة الأخ ليس خطيئة كبيرة إذا قورن بإغواء الأمّ!

غزت وجنتيه سيماء شحوب. قال:

ـ ما زلتِ أجمل امرأة في الدنيا، ولو لم تكوني أمّي لما اخترت امرأة سواكِ!

أطلقت الأم ضحكة. سألت بلهجة من يخاطب نفسه:

ـ تراني أجمل امرأة في الدنيا، ويرى الباشا «إستير» أجمل امرأة في الدنيا!

اكتأبت فجأة. أضافت:

ـ لو اكتفى باتخاذ إستير محظية لهان الأمر، ولكنه لا يمّل من أن يتباهى بأنه هجر فراش أم البنين منذ أمدٍ طويل جدّاً إكباراً لإستير!

عاد سيدي أحمد يعبث بأصابع يديه. قال:

ـ ما يفعله أو يقوله يعيبه هو، لا أنتِ!

زفرت للاّ حلّومة أنفاس الإعياء. قالت:

ـ لم أشكّ لحظة في أن القصيدة بدعة من تلفيق ميزلتوب، ولكنّي لا أريد أن يصير السفساف سبباً للقطيعة بينك وبين أخيك!

ـ وماذا تريدينني أن أفعل إذا كان هو الذي اختار القطيعة؟

ـ تذكّر أن سعادتي في دنياي رهينة بسعادة أبنائي!

سكت سيدي أحمد فأضافت الأم:

ـ أنت تعلم في كل الأحوال أن ما تهوى دَيْن في رقبتي، وسوف لن يهنأ لي بال حتّى لو كان القربان الذي سأدفعه هو رقبتي هذه، فكيف إذا كان مجرّد امرأة؟

التقطت أنفاسها. أضافت:

ـ ثِقْ أن «سعاد» مِلْك يمينك منذ اليوم ليس ليقيني بأنها تستطيع أن تُدخل إلى بيتك السعادة، ولكن تحقيقاً لسعادة الأمّ التي لا تقارن بسعادة عندما تأتي بامرأة لوليدها. فهل تغفر لي أنانيّتي هذه؟

20

في مقهى «الأعمدة» جلس صاحب البياض مبكّراً. وقد راق له اليوم أن يجود بلعناته على الولاة السفلة بصوت عالٍ. كما لم يفته أن يعرّج على الأدغم لينال على لسانه نصيبه من اللعن بدل أن يطلب له الرحمة. وعندما سأله صاحب المقهى عن سرّ العداوة بينه وبين المرحوم أجاب بأن الولاة أجدر من أسيادهم الملوك بنقمة الربّ الواردة في الآية الكريمة: «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزّة أهلها أذلّةً». ولكن صاحب المقهى لم يستسلم في ذلك اليوم عندما حاجج الدرويش بسؤال:

ـ ولكن هؤلاء الولاة، أمثال الأدغم، ما هم إلاّ أيادي الملوك الذين يولّونهم!

فقال الرجل الغامض الذي راق لروّاد المقهى أن يخلعوا عليه لقب «درويش» منذ أمدٍ بعيد:

ـ ولكن هذا أسوأ ما في الأمر!

ـ لماذا؟

ـ لأن الأسوأ من الملك عامل الملك. والأكثر طغياناً من الطاغية هو عبد الطاغية إذا ساد!

ابتسم صاحب المقهى قبل أن يسأل:

ـ هل تظنّ أن الأمر سيهون فيما لو وَلَّى الملوك على البلدان رعاعاً؟!

أجاب «الدرويش» بلا تردّد:

ـ ومن هم خدم الملوك إن لم يكونوا رعاعاً؟

ـ ولكن الأدغم لم يحسب نفسه عبداً ولا خادماً، وإنما فاخر بنسبه الكولوغلي!

ـ ليس المهمّ ما يحسب الأدغم نفسه. المهمّ ما برهن لنا عليه بمسلكه!

ـ مسلكه؟

ـ ألم يتصرّف كأحطّ أجناس العبيد؟ ألم يعمل لحساب الباشا قوّاداً؟ ألم يبعث له ببنات أكابر مصراته ليفتضّ بكاراتهن؟ ألم تبلغ به الذلّة حدّاً أغار فيه على إحدى القبائل ليختطف سليلة الشيخ الحسناء ليقدّمها هديّة على مائدة الباشا في عيد ميلاده؟

عاد صاحب المقهى يبتسم. قال بصوتٍ مكتوم:

ـ ما أعلمه أن الحسان هو ما لا يروق للباشا!

ـ الباشا لا يعاشر الحسان طويلاً بسبب أعلمه هو الضجر! ولكن هذا الدّاء لم يمنعه يوماً من أن يعبث بهنّ ليلة أو ليلتين قبل أن يتنازل عنهنّ لعبيده الأعلاج، أو حتّى لأولاده الأوباش!

كتم صاحب المقهى ضحكة قبل أن يحذّر جليسه:

ـ أرجو ألاّ تذكر الباشا أو أبناء الباشا بسوء إذا شئت أن أجالسك!

ثم بلهجة اعتذار:

ـ تستطيع أن تسبّ الولاة الأموات ما راق لك أن تسبّ، بل تستطيع أن تسب حتى الملوك الأموات ما راق لك أن تسبّ، ولكن احترس أن تسب الأحياء في حضوري!

ولكن صاحب اللقب المهيب عاد إلى سيرة الأدغم في علاقته بالباشا بحماس أشدّ:

ـ هل تدري ماذا فعل هذا النذل قبل أن يلقى مصرعه بشهرين؟

تملّك الفضول صاحب المقهى فأضاف الدرويش:

ـ لقد راقت له ابنة أحد الأكابر فقرّر أن يتزوّجها. ولكنه رأى أن يتقرّب بها إلى الباشا قبل أن يدخل عليها. فما كان منه إلاّ بعث بها إلى السراي مرفوقة بمكتوب يقول فيه أنه سمع بناموسٍ سنّه الصقالبة في أرض الديلم أطلقوا عليه اسم «حقّ الليلة الأولى» يتنازل بموجبه العبيد لأسيادهم عن زوجاتهم قبل الدخول عليهن في ليلة الزفاف. وأضاف في رسالته قائلاً أنه يقترح تعميم هذا الحقّ في المملكة، ويطيب له أن يكون أوّل من يعلّق الناقوس في رقبة القطّة في سبيل سيادة هذا القانون. ها ـ ها. . عليه اللعنة!

أيّده صاحب المقهى:

ـ إذا كان ما تقوله صحيحاً فعليه اللعنة مرّتين!

ـ ليس هذا فحسب، ولكنه طلب من سيّده أن يعيد له عروسه حالما يفرغ منها. ولكن المسكينة وقعت في براثن سيدي يوسف عند خروجه إلى ضاحية المنشية، فما كان من هذا الوغد إلاّ أن اختلى بها في بيته الريفي بالضاحية لمدّة أسبوع. وعندما ملّها تركها هناك وأوقف على بابها عسساً ليعود إلى المدينة، ولكن أحد الخدم أخبر البك بأمرها أثناء وجوده بالضاحية فاختلى بها أيضاً ما شاء له أن يختلي. ثم هجرها ليتولّى أمرها سيدي أحمد الذي ما لبث أن ملّها أيضاً فبعث بها إلى الباشا مرفوقةً برسالة الأدغم. ولكن الباشا (المخدوع دائماً مثله مثل أيّ زوج أو فلنقل مثله مثل أيّ ملك) اكتشف أنها ثيّب فظنّ أن عامله على مصراته قرّر أن يستخفّ به فقرّر أن يلقنه درساً بأن وجّه إليه كتيبة من جنده، استولت على أمواله وخرّبت بيته وقرعت رجليه بالفلقة!

أطلق صاحب اللقب المهيب ضحكة عالية. ولكن صاحب المقهى ما لبث أن تساءل بفضول:

ـ هل تظنّ أن الباشا يمكن أن يستعير من أصقاع الصقالبة هذه العادة الكريهة حقّاً؟

ـ ولماذا لا يستطيع؟ ألم يبرهن للناس بالدليل القاطع أنه ملك الشذوذ وسلطان العبث أكثر ممّا برهن على أنه ملك طرابلس؟

كتم صاحب المقهى ضحكاً. مال نحو جليسه ليتساءل:

ـ ولكن أصدقني القول: هل سنّ الصقالبة في بلادهم هذا الناموس حقّاً؟

- لقد سَنَّ سادة الصقالبة هذا الناموس ثأراً من عبيدهم الذين أذاقوهم الويل في تاريخهم القديم!

- أذاقوهم الويل؟

- بلى. لقد تزوّج العبيد زوجات أسيادهم عندما خرج هؤلاء لغزوة إلى بلاد الفرس استمرّت ثلاثين عاماً. لم يتزوّجوهنّ فحسب، ولكن العبيد أنجبوا من بطون تلك المومسات أولاداً صنعوا منهم جيشاً جرّاراً حاربوا به أسيادهم عندما عاد هؤلاء إلى ديارهم!

- هل تجاسروا أيضاً على محاربة أسيادهم؟

- ولماذا لا يتجاسر العبيد على محاربة أسيادهم إذا كانوا قد تجاسروا على تدنيس زوجاتهم؟

- عجباً!

- لم يحاربوهم فحسب، ولكنهم هزموهم أيضاً!

ذهل صاحب المقهى:

- هزمهم عبيدهم؟

- بلى. هزمهم عبيدهم بالسيوف، ولم ينقذهم من الهلاك إلاّ السياط!

- السياط؟

- أجل. السياط! فقد اقترح أحد الدهاة أن يستبدلوا في محاربتهم السياط بدل السيوف، لأن العبد سيظلّ في يقينه عبداً حتّى لو تسلّل إلى مخدع حميمة سيّده لينجب من جوفها ولداً، وهو أيضاً سيظلّ عبداً حتى لو تشجّع يوماً وحمل في يده سيفاً!

سكت الراوي فتكلّم الجليس:

- أيعقل أن يحقّقوا بالسياط ما عجزوا عن تحقيقه بالسيوف؟

- لقد شتتوا شملهم بالسياط فعادوا من يومها إلى عبوديتهم!

غاب صاحب المقهى زمناً. تساءل:

- هذه سيرة تذكّرني بسيرة بائع الماء زمن محمّد باشا.

- تعني ابن جهنّم المتنكّر في ثياب بائع الماء؟

- يقال أنه محصّن من معدن الحديد، ولكن حتفه مدسوس في فتلات السياط!

- بلى. لقد لقى مصرعه مخنوقاً بلسان سوط!

ساد سكون. في تقاطع الشوارع الأربعة دبّ السابلة. ولكن المقهى خلا من الروّاد تماماً. قال صاحب المقهى:

- يقال أن الأطراف كادت أن تنتهي إلى اتفاق لو لم يطالب الشيخ أحمد نوّار برهائن؟

- يطيب لي أن أهنىء هذا الزعيم أطيب تهنئة!

تعجّب الجليس:

- لماذا؟

- لأنه دلّل بهذا الطلب بأنه لا يثق بالباشا ما دام الباشا لا يثق به!

- ولكن الباشا ملك!

- وهو ملك أيضاً على قبيلته!

- أيوافق زعيم في وزن شيخ المحاميد أو في وزن سيف النصر على تسليم رهائن ثم يرفض هو؟

سكت الدرويش زمناً. قال أخيراً:

ـ لو كان شيخ النوائل في حربٍ مع قبيلة أخرى لما احتاج أبداً لأن يدفع من أبناء الأكابر رهائن ليشتري السلم، لأن شريعة القبائل الوعد، أمّا شريعة الممالك فالحنث بالوعد!

ـ ولكن هل تعتقد أن الباشا سوف يتنازل؟

أجاب الدرويش بعد صمت:

ـ إذا ركب الشيخ رأسه فليس أمام الباشا إلاّ التنازل!

ـ يجب أن نعترف بأن حرب القبائل قصمت ظهر هذه المدينة أكثر مما قصمت ظهرها الحروب مع النصارى!

ـ علّة في جوف البدن دائماً أسوأ من علّة في ظاهر البدن!

تلبّست المدينة سيماء العتمة. في الشوارع خفَّ زحام المارّة. في جامع درغوت المجاور ارتفع صوت المؤذن.

21

ولكن الباشا لم يسلّم الرهائن إلى شيخ النوائل فحسب، بل استقبله أوّل من استقبل من زعماء القبائل. ثم أضاف إلى هذا الشرف عملاً آخر استنكره في البلاط الكثيرون عندما سمح للشيخ بدخول بوابة المدينة ممتطياً جواده مصحوباً بجيش من فرسانه المدججين بكامل أسلحتهم فرُفعت الأعلام فوق الحصون إكباراً له قبل أن يأمر الباشا بإطلاق قذيفة من فوهة مدفع تحيّةً. لم يكتفِ الباشا بهذه المراسم، ولكنه قدّم لضيفه هدايا نفيسة جدّاً كما يؤكّد

الرواة وكتّاب حوليّات ذلك الزمان، من بينها جواد أصيل مزيّن بسرج مطعّم بالذهب. ثم عانقه على مرأى ومسمع من أعضاء الديوان. أما الشيخ علي بن وشاح أحد كبار زعماء المحاميد، فقد نال من الباشا استقبالاً فاتراً لسرّ لا يعلمه أحد، برغم أن البعض أكّد أن الباشا فعل ذلك انتقاماً من الشيخ ابن مخيريق الذي آوى عدوّه اللدود مصطفى، حتى أن الباشا وجّه للشيخ بن وشاح ما يشبه الإهانة عندما عبّر له عن سروره بدخوله في طاعته، وكي يعبّر له عن امتنانه عيّنه زعيماً للمحاميد الشجعان!

ولكن ابن وشاح لم يبتلع الإهانة عندما أجاب الباشا:

ـ آمل ألاّ ينسى الباشا إني أنتمي إلى أسرة يولد رجالها أشياخاً. أمّا عن المكانة الأولى في هذه القبيلة فهي من نصيب شقيقي الأكبر الذي سيخلف أبي كما تقتضي أعرافنا، فإن رأى الباشا أن يزيده شرفاً فليس له إلاّ أن يبعث بتعيينه كبيراً للأشياخ!

ابتسم الباشا يومها بمكر قبل أن يقول:

ـ إذا استصغرت هبتي هذه ففي جعبتي خبأت لك عطايا أخرى شريطة أن تقدّم لي بالمقابل خدمة تافهة جدّاً!

الشيخ بن وشاح: هذا يعتمد على جنس الخدمة يا سعادة الباشا.

الباشا: قلت لك أنها خدمة تافهة جدّاً فهل تعدني؟

الشيخ بن وشاح: كيف تريدني أن أعد بما أجهل؟

الباشا: حسناً. أريدك أن تأتيني برأس أحد الأتراك!

الشيخ بن وشاح: أحد الأتراك؟

الباشا: أجل. أحد الخونة الأتراك الذي استجار بكم!

الشيخ بن وشاح: آه. أراك تقصد مصطفى القرمانلي!

الباشا: إنه ابن زنا ولم يكن يوماً ابناً للقرمانلي. أم أنك تجهل أن أمّه كانت بغْياً!

لاذ الشيخ بالصمت فتكلّم الباشا:

- لقد ضمنتُ لك الأمان قبل اليوم، وليس عليك أن تخفي شيئاً.

الشيخ بن وشاح: لم أتكلّم لأن ما سأقوله لن يروق لك يا سعادة الباشا.

الباشا: سيؤلمني أن أسمع ما لا يعجبني، ولكني سأتألّم أكثر لو لم أسمعه!

الشيخ بن وشاح: فليسمح لي الباشا بسؤال!

الباشا: تفضّل!

الشيخ بن وشاح: هل تضمن يا سعادة الباشا ما ستجري به الأقدار بعد ساعة من الآن؟

الباشا: كلاّ!

الشيخ بن وشاح: فإذا جرت مشيئة الأقدار بعد ساعة، أو بعد يوم، أو بعد سنين، بما لن يروق لك، ووجدتَ نفسك بين عشيّة وضحاها طريداً من هذا العرش، فلم تجد مفرّاً غير اللجوء إلى ديارنا، أسيسرّك عندئذٍ أن نقوم بالقبض عليك وتسليمك كالخروف ليد عدوّك؟

الباشا: أعوذ بالله!

الشيخ بن وشاح: سيرة أخرى لو سمح الباشا.

الباشا: تفضّل!

الشيخ بن وشاح: في الطفولة قمتُ من النوم يوماً فوجدتُ في زاوية الخباء أرنباً صغيراً من أرانب البرّ يرتجف بسبب البرد فوثبت عليه وأمسكت به من أذنيه. كانَ يزعق وينتفض من هول الفجاءة، ولكنّي لم أرحمه. ذهبت به إلى الأقران فنحرناه وأكلناه. وعندما عاد أبي من رحلة خارج النجع وعلم بما حدث لم يرحمني أيضاً. قال لي أن الأرنب استجار بالبيت هارباً من برد الصحراء فنحرته بدل أن تشعل له ناراً وتحسن ضيافته، وعليّ أن أدفع ثمن هذه الخطيئة. يومها حرق جلدي بالسوط حتّى أغمي عليّ يا سعادة الباشا. ثم تركني في العراء عارياً ثلاثة أيام بلياليها، فهل تريدني بعد هذا أن أضع ابن أخيك مصطفى بين يديك لتنكّل به؟ كلاّ، كلاّ. أَهْوَن لي أن تأخذني بدمه إن شئت!

الباشا: تستطيع أن ترفض بالطبع، ولكن عليك أن تعلم أن ما ترفضه الآن أنت سيسرّ الكثيرين أن يقوموا به غداً!

الشيخ بن وشاح: أستطيع أن أؤكّد لسعادة الباشا أن لا أحد يجرؤ على أن يمسّه بسوء حتّى لو فنت قبيلتنا كلّها دفاعاً عنه!

حدّق الباشا بعينيه الحمراوين المتعبتين من فرط السهر والسكر في اللحظة التي أضاف فيها الشيخ:

ـ نفعل ذلك يا سعادة الباشا لأنه استجار بنا أوّلاً، ولأنه سليل القرمانلي الأكبر ثانياً. هذا الرجل الذي أجرناه أيضاً يوماً فحقّق بسواعد فرساننا نصراً جلب الكرامة لهذا الوطن، فذقنا طعم أمانٍ

فقدناه في هذه الربوع طويلاً. ولولاه لما أنعم الله عليكم بالمُلْك اليوم!

كان الباشا قد أغمض عينيه، فانتظمت أنفاسه، وسكن في عرشه، وغاب في مملكة أخرى تختلف عن مملكته.

22

أمّا الشيخ سيف النصر فقد أناب ابنه لحضور مراسم الصلح في طرابلس فأقبل على الباشا في كوكبة من الفرسان حاملاً قرطاساً نفيساً مغموراً في رقّ جلديّ كان الباشا قد اختطّ فيه بيده عهد الأمان الذي بعث به إلى والده. ويروى كتّاب حوليات ذلك الزمان أن هذا الفتى الذي لم يجتز أعتاب السادسة عشر من عمره كان فارعاً في القامة، نبيلاً في هيئته، في لسانه تجري حكمة الأشياخ الذين بلغوا من العمر عتيّاً حتى أنه لم يجد حرجاً في أن يضع بين يدي الباشا القرطاس المدسوس في رقّ الجلد كأنه تميمة ما أن مَثُل بين يديه دون أن ينبس. وعندما تساءل الباشا عن الأمر أجابه قائلاً:

ـ هذا قرطاس الأمان الذي بعثموه يا سعادة الباشا إلى أبي!

استغرب الباشا:

ـ لقد أرسلت هذا العهد إلى أبيك ليكون بين يديه وثيقة تضمن حياته أو حياة رسوله فلماذا تعيده إليّ؟

ـ لا أعيده إلى سعادتكم لتذكيركم بالعهد، بل لأحرّر سعادتكم من وزر العهد!

ـ تحرّرني من وزر العهد؟

ـ بلى يا سعادة الباشا. أعيد إلى أياديكم عهداً قطعتموه على أنفسكم لتكونوا في حلٍّ منه أمام الملأ فيما إذا رأيتم أن تأخذونا بجريرة تبدو لكم ذنباً ارتكبناه!

تأمّله الباشا لحظات. فكّر لحظات. خاطب الفتى قائلاً:

ـ نجتمع اليوم لننسى الذنوب لا لنستعيد سيرة الذنوب. أمّا إعادة الوثيقة إليّ فهذا برهان من والدك على ثقة لن أخونها.

ـ والدي يقول أنّك تستطيع أن تسفح دمي قرباناً لإعادة السكينة إلى المملكة بعد أن زال سبب الخصومة بينك وبينه، لأن الأب لا يملك قرباناً أغلى عليه من ابنه!

تساءل الباشا:

ـ ما الذي يعنيه أبوك بحديثه عن زوال سبب الخصومة بيني وبينه؟

أجاب الفتى بابتسار:

ـ والدي يعني مصرع رمضان الأدغم يا سعادة الباشا!

عمّ المجلس صمت. أضاف الفتى:

ـ رقبتي يا سعادة الباشا بين يديك!

عبث الباشا بقطعة الجلد بين يديه. طاف وجوه أعضاء الديوان بنظرة عابرة. ابتسم بغموض. قال:

ـ عندما استجاب سيدنا إبراهيم للنّداء وذهب لينحر ابنه بماذا كافأه ربّه؟

سكت. نظر إلى البُعْد الذي تكشفه نافذة القصر المطلة على بحر ليبيا العظيم. أضاف:

ـ بالفداء لا ننال الخلاص وحده، ولكنّنا نناله ممهوراً بختم النبوّة!

ثم التفت إلى الفتى ليقول:

ـ أنت الليلة ضيفي على العشاء!

القسم الثاني


Twitter: @alqareah

1

في الأسبوع الرابع لهيمنة الوباء قام «حاييم» بزيارة للملكة إستير في منزلها الواقع في قلب الحارة.

أقبل عليها بالزيّ التقليدي الكئيب المكوّن من قلنسوة سوداء تتشبّث بصلعته كأنها رقعة جلد، وثوب فضفاض أسود أيضاً كأنّه علامة حداد سنَّت ناموسها سلالته حزناً على اغترابها الخالد.

كان قد عاد للتوّ من مقبرة القوم الواقعة غرب المدينة في الفضاء الذي يلي باب زنّاته حيث دفن ثلاثة أقرباء: ابن عمّ له كان قعيداً ومريضاً منذ أمد طويل أصابته العدوى أخيراً فلم تمهله يومين، وشقيق امرأته الأولى المتوفاة، وأحد أبناء خالته المقيم في جبل نفوسه الذي نزل المدينة لإنجاز صفقة تجارية.

ذهب إلى بيت إستير راجلاً عابراً شوارع تنتشر على جوانبها التوابيت، من شرفاتها تنطلق ولولات الفجيعة من حين لآخر، في البيوت تنام جثث أولئك الذين لفظوا أنفاسهم البارحة، أو عند الفجر، أو مع شروق الشمس، ينهمك ذووهم لتكفينهم انتظاراً لحلول ميعاد تشييعهم إلى الجامع للصلاة على أرواحهم تمهيداً لدفنهم.

في الأزقة الأضيق لا تنتشر روائح العفونة المنبعثة من الجثث فحسب، ولكن تستلقي جثث الموتى بكثافة عرقلت مرور السابلة الذين لا يكتفون بسدّ أنوفهم اتّقاء لشرّ العدوى، ولكن الكثيرين يهرعون لدسّ أنوفهم في مراهم الأعشاب الصحراوية (كالشيح أو مسحوق الحنظل أو غيرها من الأخلاط السحرية) وهم يعبرون حقول الجثث المسجاة على القارعة، في حين يؤثر البعض العودة على أعقابهم لا يلوون على شيء. وقد شاهد في طريقه رجلاً ينحني على جثة ملقاة في أحد الأزقّة في اللحظة التي انهار فيها الرجل أرضاً ليحتضنها بذراعيه بكل ما أوتي من قوة كأنه يريد أن يلتحم بها إلى الأبد. احتضنها وتمايل ميمنةً ويسرة غائباً عن الدنيا ناسياً العدوى وربما باحثاً عن العدوى التي تستطيع أن تلحقه بالجسد الملقى بين يديه. اقترب خطوات ليرى وجهاً أنثوياً شاحباً مغموراً بالدمامل وسيماء الوباء. أشاح بوجهه جانباً ومضى.

في بيت إستير استقبلته الخادمة ودعته للانتظار في حجرة الجلوس. هناك انتظر ليفكّر في حقيقة الوباء. في حقيقة الرسالة التي يحملها الوباء. لأن ما هو الوباء إن لم يكن ذلك البلاء الذي يريد لنا أن نشهد قيام القيامة ونحن ما نزال على قيد الحياة. بلى، بلى. الطاعون ليس رسالة رمزية ككل رسائل النبوّة، ولكنه رسول مجسّد مهمّته أن يرينا (بالعين المجرّدة لا بالهام الوحي) حقيقة الفناء.

دخلت إستير بمعونة الخدم فغابت بجسدها المهول في بطن أريكة واسعة جدّاً يروق لها أن تطلق عليها اسم «العرش» منذ فازت بلقب «ملكة»، منذ أطلق عليها هو (كزعيم للملّة اليهودية في هذه

الديار) اسم «ملكة» تيمناً بمحظية ملك الفرس التي أنقذت بدهائها أبناء جلدتها من العبودية.

رحّبت به إستير:

- عيد هذه الحارة أن نرى زعيم الحارة في زمن القيامة وهو على قيد الحياة!

قال حاييم:

- حارة الملّة بخير ما دامت ربّة الملّة بخير!

أقبلت الخادمة لتغرقهما في عاصفة من بخار الشيح تطهيراً للبيت من العدوى. طافت بينهما بالمبخرة حتّى أصاب زعيم الحارة الدوار. بدأ يسعل بحدّة فأومأت إستير لخادمتها بالانصراف، ولكن سحب الدخان استمرّت تتسكع في الهواء حتّى بعد انصراف الفتاة.

قال حاييم:

- لم أخطىء عندما أطلقتُ عليك لقب «الملكة إستير» يوماً، لأني لا أدري ماذا كان يمكن أن يحلّ بالملّة لولا أفضالك!

قالت إستير:

- الملة بخير ما دام زعيم الملّة بخير، فإذا كنت أنا «إستير» فأنت لا بدّ أن تصير للشعب «موسى»!

ابتسم حاييم قال:

- يبدو هذا البيت خاوياً بدون ميزلتوب!

لمع وميض في مقلة إستير المطوّقة بكتل الشحوم. قالت:

- وكيف يتحقّق الأمان لهذه الملّة بدون دفع الثمن؟

ـ صدقتِ. طريق هذه الملّة حشود قرابين منذ الأزل، لأنّ ليس لمن اصطفاه الربّ من دون الملل جميعاً أن يطمع في شيء أكثر من أن يصير قرباناً للربّ!

سكتت إستير فأضاف حاييم:

ـ ولكن أليس هناك أمل في أن تعود في القريب؟

ـ لن تعود إلاّ إذا تكرّم الطاعون واختطف البك!

ـ ولكن كيف لم تفلح وساطة الباشا؟

ـ لا سلطان للباشا على البك!

ـ وسيدي يوسف؟

• دخلت الخادمة حاملة طبقاً فضيّاً تنتصب فوقه أكواب ملآنة بعصير البرتقال، وطبق آخر يحوي قطع الكعك. وضعت الطبق بينهما على المنضدة قبل أن تنصرف.

قالت إستير:

ـ سيدي يوسف شجاع حقّاً، ولكن الشجاعة تفقد مفعولها إذا لم تؤخذ مأخذ الجدّ!

استفهم حاييم بإيماءة فأوضحت إستير:

ـ البك لا يعامل سيدي يوسف إلاّ كجروٍ شقيّ!

سكت حاييم لحظة. قال فجأة:

ـ في الأوساط الدنيا تتردّد شائعات تؤكّد أنه ثعلبان!

ابتسمت إستير. قالت:

ـ المكر بلا نفع إن لم يسنده الحظّ!

علّق حاييم:

ـ ماذا أقول؟ الحظّ هو سيّد الموقف دائماً!

إستير: وإلى أن يستيقظ الحظّ من غفوته لا نملك إلاّ أن ننتظر!

سكت حاييم. تطلّع إلى الطبق. همّ بأن يمدّ يده إلى كوب البرتقال ولكنه أحجم. لاحظت إستير تردّده فمدّت يدها الشبيهة برغيف سمين من الخبز لتتناول كوب البرتقال. ولكن حاييم لم يجاريها، بل تكلّم بعد تردّد:

ـ الحقّ أني فكرت كثيراً قبل أن آتيك في مهمّة!

سكت. أضاف:

ـ وضع القوم أسوأ مما كان عليه في أيّ يوم مضى كما تعلمين. وقد أضاف الوباء لهذا الوضع بليّة أخرى ممّا أعجز الكثيرين عن دفن موتاهم في توابيت.

تابعته إستير بسكينة كأنها اللامبالاة فأضاف الزعيم:

ـ أريد أن أتساءل عمّا إذا كنّا نستطيع أن نطمع في عون الباشا!

ساد صمت. رشفت إستير جرعة من عصير البرتقال بصوت مسموع. لحست شفتيها المكتنزتين الحمراوين قبل أن تقول:

ـ يؤسفني أن أخيّب ظنّك بشأن الباشا لسبب بسيط يعلمه اليوم حتّى أصحاب التسوّل في هذه المدينة وهو أن لا أحد يحتاج اليوم في هذه المملكة إلى العون المالي كما يحتاجه الباشا عليّ القرمانلي!

تطلّع إليها الزعيم بذهول. تساءل بعد صمت:

ـ هل صحيح ما يتردّد عن خواء الخزينة؟

ـ الخزينة لا تعاني من الخواء، ولكنها تشهد الإفلاس منذ زمن بعيد!

ـ أيعقل هذا؟

ـ ولماذا لا يعقل إذا كان الأعلاج ينهبون ليلاً نهاراً في زمن المجاعات والحروب والأوبئة؟

ـ هل صحيح ما يُقال أنه باع عبيدة ليسدّد بعض الديون؟

ـ ليته اكتفى ببيع العبيد، ولكنه باع الصحون وحلي حريمه!

تمتم حاييم:

ـ هذا نذير سوء!

ثم بصوت عالٍ:

ـ ألا ترين في هذا نذير سوء؟

لم تجب إستير فسكت أيضاً. قال أخيراً:

ـ هذا يعني أن لا سبيل للخروج من المحنة إلاّ بفرض المزيد من المكوس!

استفهمت إستير فأوضح حاييم:

ـ أعني المكوس على الملّة لتغطية نفقات التوابيت ومراسم الدفن!

ولكن إستير ما لبثت أن حذّرت:

ـ إفعل، ولكن إيّاك والمغالاة!

نظر في عينيها. اقترح:

ـ لا يجب أن تقلّ عن عشرين «محبوباً» في كل حال!

ولكن إستير صحّحت:

ـ عشرون «محبوباً» للعائلة لا للفرد!

ابتسم الزعيم، ولكنه لاذ بالصمت.

2

فَقَدَ «حاطوم» امرأته أوّلاً، ثم ابنته، ثم خادمته الوحيدة، فاضطرّ أن يشتري جارية. وجد نفسه فجأة وحيداً، مهجوراً، بل مفقوداً فاشترى الجارية. اشتراها لا لتعتني به بدلاً من خادمته التي دفنها مع مَنْ دفن من أهله، ولكن ليتّقي بها شبح العزلة. اشترى الجارية من سيدي البوني كبير تجّار المدينة بمبلغ فاحش قصم ظهره وهو الذي لم يفق بعد من الصفعة التي وجّهها له حسن بك يوم نهب من بين يديه صفقة العمر. ولكن اللعنة التي طاردته في الآونة الأخيرة ما لبثت أن اعترضت سبيله هنا أيضاً، لأن الجارية التي اشتراها أقبلت عليه ممهورةً بختم الوباء!

أجل، أجل. لقد لاحظ سيماء الطاعون بمجرّد أن كشفت الشقيّة عن وجهها، فما كان منه إلاّ أن طردها. طردها وذهب إلى سيدي البوني ليستردّ ثمنها. ولكن سيدي البوني طردها أيضاً ورفض أن يعيد له ثمنها فلجأ إلى القاضي. ولكن القاضي حدّق فيه بعينه الحولاء طويلاً قبل أن يلقي في وجهه سؤالاً:

ـ لو كنتُ أنا، قاضي قضاة هذه المملكة، هو من غشّك في الجارية فلمن ستشكوني يا ترى؟

فكّر حاطوم لحظة قبل أن يجيب القاضي:

ـ سأشكوك إلى الكاهية الكبير!

ابتسم القاضي قبل أن يسأل:

ـ وإذا لم ينصفك الكاهية الأكبر؟

ـ عندها سأشكوك إلى الباشا إن استطعت إلى ذلك سبيلاً!

ـ وإذا لم ينصفك الباشا فلمن سترفع الظلامة؟

ـ إذا لم ينصفني الباشا فلن ينصفني أحد في هذه الدنيا غير ربّ السماوات والأرض.

ابتسم القاضي. اشتدّ الحَوَل في عينيه. اعتدل في جلسته قال:

ـ أحسنت! أنصحك اليوم أيضاً أن تشكو المظلمة إلى ربّ السماوات والأرض!

استغرب حاطوم:

ـ ماذا يريد سيّدنا القاضي أن يقول؟

أجاب القاضي على سؤال حاطوم بسؤال:

ـ ألا تدري من هو سيدي البوني؟

ـ أعلم. سيدي البوني كبير التجّار!

ضحك القاضي حتى استلقى إلى الوراء. قال:

ـ لم أسألك عن مهنته، ولكني سألتك عن حقيقته؟

تعجّب حاطوم:

ـ حقيقته؟ وما هي، في رأي سيدنا القاضي، مهنة الإنسان إن لم تكن حقيقة الإنسان؟

ـ ربّما كانت حرفة الإنسان حقيقته العلنيّة، ولكنّها ليست حقيقته الخفيّة!

ـ حقيقته الخفيّة؟ وهل بوسع الإنسان أن يعلن حقيقة ليخفي أخرى؟

ـ ألم يخطر ببالك يوماً أن الإنسان ما هو إلاّ المخلوق الوحيد في هذه الأرض الذي يستطيع أن يتخذ لنفسه أقنعة؟

سكت حاطوم فأوضح القاضي:

ـ كبير التجّار حقيقة سيدي البوني المعلنة، أمّا حقيقته التي يخفيها فهي: القرون!

هتف حاطوم بدهشة:

ـ القرون؟

ضحك القاضي ملء شدقيه. قال:

ـ لا أعرف كيف خانك دهاء ملّتك القديم ياحاطوم!

مسح دموع الضحك بكفّه قبل أن يضيف:

ـ كل ما أردت أن أقوله لك هو أن البوني: تيس!

استعجب حاطوم. حدّق في وجه القاضي كأنه يحدّق في وجه مخلوق مجنون. تمتم بذهول:

ـ تيس؟!

قال القاضي وهو ما يزال يمسح دموع الضحك:

ـ أجل. البوني تيس. تيس كبير. وأسوأ ما في الأمر أنه يتباهى بأنه تيس، وإلاّ ما معنى أن يفاخر أمام الأكابر بأنه قرين أحسن حسان

المملكة وهي للاّ زنوبيا التي يعلم الجميع كما يعلم هو أنها عشيقة حسن بك؟!

في دار القضاء يومها ساد صمت. طأطأ حاطوم طويلاً حتّى أنه لم يسمع كلمة عميد القضاء الأخيرة:

ـ فكيف تريدني بعد هذا أن أحكم لك ضدّ سيدي البوني؟!

3

عاد حاطوم إلى بيته في ظهيرة ذلك اليوم بائساً. هجع في المخدع وحاول أن ينام. حاول أن ينام لا بسبب التعب، بل لكي ينسى. لا يدري كم استغرقت هجعته في بيته الخاوي، ولكنه اكتشف دموعاً تجري في عينيه بدل النعاس. بكى دون أن يدري. لم يبكِ لأنه خسر في الصفقة ثروته، أو لأنه فَقَد ما تبقّى له من مال في صفقة الجارية مع سيدي البوني، أو حتّى لأنه دفن بالأمس أهله (ليقينه بأن الطاعون لا ينزل الديار ضيفاً ليكرمنا، ولكن يأتي ليرحل بنا) ولكنه بكى، ربّما، بسبب العزلة. بكى بسبب اللعنة التي جرّدته من ذويه بعد أن جرّدته من كلّ أمواله. هذه اللعنة التي جرّدته حتى من الجارية التي اشتراها بما تبقّى لتعزيه في عزلته فجاءت مختومة بسيماء الوباء ليخسرها هي ويخسر معها ماله أيضاً. فهل قرّر ربّ الجنود أن يلقنه درساً كما فعل مع يونس جزاء خطاياه الكثيرة، أم أنه رأى أن يصطفيه لنفسه كما فعل مع أخياره وأكثر أنبيائه؟ أو لن يكون تجريده من المال والأهل والخلّ (المتمثّل في الجارية) رسالة سماوية

عليه أن يجتهد في فكّ طلسمها؟ أليس ربّ السلالة (التي يصفها الكتاب بالأمّة الصلبة الرقبة) وحده الذي يستوي انتقامه بحبّه؟ هل قرّر أن يختاره من دون الملّة جميعاً كي يخضعه للامتحان تمهيداً لبعثه نبيّاً؟ ألا تشير كل الدلائل إلى أن قسوته ما هي إلا دليل محبّته؟ ألم تحفل «التوراة» كلّها بالبراهين التي تؤكّد أن بلاياه ما هي إلاّ المقدّمة لاصطفائه؟ ألن تكون العزلة التي ابتلاه بها مجرّد أعراف لا بدّ أن يعبرها كي يتطهّر في طريقه إلى فردوس الخلاص الأبدي؟ أوَليس الخلاص هنا الشرط الأول لاستنزال الرسالة، لأن النبيّ الذي لم ينل خلاصاً لن يحقّق للشعب خلاصاً؟

نهض حاطوم من فراشه. خرج إلى الفِناء. تسكّع هناك لحظات. غزت أنفه رائحة الجثث. كانت تنبعث من جدران جيرانه بكثافة سبّبت له الدوار حتى استند إلى الجدار. تذكّر ما تردّد في الأيام الأخيرة عن لجوء أهل الحارة إلى دفن موتاهم في بيوتهم تجنّباً لدفع المكوس الإضافية التي فرضها زعيم الملّة لتغطية نفقات التوابيت والدفن. وها هي العفونة تصيبه بالدوار وتنشر العدوى في كل الأركان!

ثم.. جلس في الفناء المهجور وعاد يفكّر في العزلة. في النبوّة. فإذا كانت النبوّة تحقّق الخلود، إلاّ أنّ ثمنها العزلة. النبوّة هبة جليلة حقّاً، ولكنها ككل هبة في هذه الدنيا تخفي في جوفها خطراً. فهل يرمي قفّاز التحدّي في وجه القدر ويقبل الهبة؟

4

خرج حاطوم ليطلب الدخول على الملكة إستير. ولكن الخدم أخبروه بأنها استسلمت لقيلولة الظهيرة للتوّ، وسوف لن تستيقظ قبل العشيّ، فخرج مرّة أخرى. خرج من الحارة الموبوءة كلّها وانطلق عَبْر أزقّة المدينة المزحومة بجثث الأموات. خرج من باب زنّاته وذهب إلى مقبرة الملّة. اعترضت سبيله أسراب قوم يعودون من دفن موتاهم، وجاور في طريقه أسراباً أخرى تشيّع على المناكب توابيت الذاهبين إلى الهاوية التي تقول الأسفار أنها لا خير فيها. أدرك المقبرة فوجد زحاماً كيوم الحشر. حاول أن يشقّ لنفسه طريقاً إلى قبور ذويه، ولكنه أخفق. عاد على عقبيه وتسكّع في العراء المجاور. جلس على شاطىء البحر وانتظر. انتظر هناك حتى انحرفت الشمس في رحلتها اليومية نحو جهة الغرب. تطلّع إلى المقبرة فوجد الزحام قد تضاعف. نهض واتجه صوب المدينة.

طرق باب الملكة إستير مرة أخرى. في البستان الصغير الذي يطوق البيت وجد إستير في انتظاره. كانت تجلس في بطن الأريكة الهائلة وتحدّق في الفراغ. إلى جوارها ارتفعت ذيول دخان من أخلاط الأعشاب البرية الكريهة الرائحة. مدّت له يدها المنفوشة كرغيف الخبز ثم أومأت له بالجلوس على كرسي بائد محبوك من عيدان الخيزران. قالت:

ـ بلغني نبأ خسارتك الجديدة، ولكن حمداً للربّ أنها خسارة ما ملكت اليد التي أجارتك من الخسارة الأشرّ!

تمتم حاطوم:

ـ وهل هناك خسارة أشرّ من خسارة يفقد فيها الإنسان كلّ ما له يا إستير؟

ـ أجل. هناك الخسارة الأكثر شرّاً من كل خسارة: أن تخسر المال أهو من أن تخسر نفسك. والدليل أنّك ما زلتَ على قيد الحياة في حين ذهب أولئك الذين يملكون الكنوز إلى الهاوية التي لا خير فيها!

ردّد حاطوم:

ـ الهاوية التي لا خير فيها حفرة كريهة حقّاً، ولكن ما هو المال الذي نجمعه بالدّم إن لم يكن روحنا؟ ما هو المال إن لم يكن حقيقتنا التي إذا خسرناها فقد خسرنا أنفسنا؟

ـ وصيّة النصارى تقول: «ما نفع الإنسان أن يكسب العالم ويخسر نفسه؟».

ـ النصارى يردّدون الوصايا بألسنتهم، ولكنهم يفعلون عكسها في دنياهم!

سكتت إستير. أغمضت عينيها. استرخت في مقعدها المهيب. غابت رقبتها في لفافات الشحوم فتبدّى رأسها صغيراً كرأس الطير بالمقارنة مع حجمها الضخم. قالت دون أن تفتح عينيها:

ـ لو كان الباشا يملك سلطاناً في هذه البلاد لما بخلتُ عليك بالعون!

عمّ في الداخل سكون. في الخارج ولولت حناجر النساء بأصوات الفجيعة. في الركن تمادت ذيول الدخان بعد أن غذّتها الخادمة بنصيب أعشابٍ جديدة.

قال حاطوم:

- الحقّ أني لم أُقبِل عليك لطلب العون في خسارة الدنيا!

فتحت إستير عينيها. التفتت إليه برأس الطير. في مقلتها رأى حاطوم سيماء دهشة قبل أن يضيف:

- جئت لأروي لكِ الرؤيا!

استغربت إستير:

- رؤيا؟

اعتدل حاطوم في جلسته. ثم أسند مرفقيه بركبتيه وهو ينحني إلى الأمام ليُسمع إستير:

- البارحة زارني للمرّة الثالثة ليحدّثني عن الخروج!

تطلّعت إليه إستير بفضول في البداية. ثم ما لبث فضولها أن تحوّل دهشة. تساءلت:

- من الذي زارك البارحة؟

بَرَقت عينا حاطوم بألقٍ غامض. ارتجفت لحيته الموشاة بالشيب. قال بصوت مريب:

- لا أدري ماذا أسمّيه حتّى الآن. أستطيع أن أصفه لك في مناسبة أخرى، ولكني الآن لا أملك إلاّ أن أسمّيه «صاحب الرؤيا»، لأن المهم هو النبوّة لا هويّة رسول النبوّة!

رددت إستير:

- النبوّة؟

- أجل. النبوّة. لقد حدّثني عن الخروج بوضوح شديد!

ساد صمت. ولكن إستير استمرّت تحدّق في عيني الزائر زمناً طويلاً. قالت:

ـ ألن تكون الرؤيا وسواساً؟

ـ الوسواس لا يتحدّث عن الخلاص!

ثم أضاف بغموض أشدّ:

ـ لقد تحدّث عن الخروج بوضوح. قال لي أيضاً أن الربّ لم يجردني من حطام الدنيا إلاّ لغاية. جرّدني من الأهل والولد ومن ثرواتي لكي يحرّرني. لكي يصطفيني لرسالة!

هتفت إستير بلهجة استخفاف:

ـ رسالة؟

ـ بلى. رسالة الخروج. لا بدّ أن يستمرّ الخروج إذا شئنا النجاة!

ضحكت إستير ملء شدقيها. سألت:

ـ وإلى أين تريدنا أن نخرج؟

تراجع حاطوم إلى الوراء. أسند ظهره بعيدان المقعد. قال وهو يتطلّع إلى السماء العارية الموسومة بغياهب الغروب:

ـ الخروج إلى الحَرَم. لا خروج إلاّ إلى الحَرَم!

ـ عن أيّ حَرَمٍ تتحدّث؟

ـ وهل هناك، يا إستير، حَرَم في هذه الدنيا غير حَرَم نبيّ الخروج الأوّل موسى؟!

ضحكت إستير مرّة أخرى، قالت:

ـ هل تريد أن تقول أنه صحراء سيناء؟

ـ بلى. الخروج لا بدّ أن يكون خروجاً إلى الحَرَم. والحرم لا يكون حَرَماً إن لم يكن صحراء!

سكت. أضاف:

ـ كل صحراء هي حرم وليس صحراء سيناء وحدها، أم أنّك نسيت أمر الربّ عندما خاطب الفرعون في سفر الخروج قائلاً: «إطلق شعبي ليعبدني في البريّة!»؟ لماذا لم يقل الربّ في أمره إلى الفرعون: «إطلق شعبي ليعبدني في أرض الميعاد»؟ الربّ، يا «إستير» لم يكن ليقول ذلك لأنه يعلم أن أرض الميعاد ما هي إلاّ الأرض التي ستستحيل مجرّد أرض ما أن يسكنها الإنسان حتّى لو انتمى هذا الإنسان إلى ملّة شعبه المختار. الربّ يعلم أن الإنسان لا يسكن الأرض (حتّى لو كانت أرض الميعاد المقدّسة) ليعبد فيها الربّ، ولكنه يسكنها ليفسد فيها. يسكنها ليكفر فيها بالربّ لا ليعبد فيها الربّ. أمّا البريّة فهي المكان الوحيد الجدير بأن يعبد فيه العابر ربّه لا لأنه لا يجد فيها ما يفعله غير عبادة الربّ، ولكن لأنها ليست أرضاً أصلاً. بلى، يا إستير، بلى. البريّة لم تكن يوماً مكاناً، ولا أرضاً، ولكنها كانت منذ البداية ظلاً لأرض، ظلاً لمكان. ولهذا السبب استحقّت الفوز بلقب حَرَم، لأنها ليست في حقيقتها سوى ملكوت. أم أنّك يا إستير نسيت أنّنا أمّة عبور منذ بدء الخليقة؟ بل ونسيت أننا لم نفز باسم «عبران» إلاّ لاعتناقنا لناموس العبور منذ أجيال شعبنا الأولى؟ أم أنّك نسيت أن الربّ لم يرفض قربان قابيل ويقبل قربان هابيل إلاّ لكفر قابيل بالعبور واعتناق هابيل له؟ أم أنّك نسيت أيضاً سيرة أمّة الأخيار الواردة في «العهد» التي اختارت العبور

الأبدي ولم يخذلها الربّ إلاّ في اليوم الذي مالت فيه قلوب الأشقياء إلى النساء فذهبوا إلى الواحات لينجبوا من بطونهنّ أولاداً فنزلت عليهم لعنة العبودية، لعنة الاستقرار التي لم نكن لنتطهّر من آثامها في ربوع مصر لولا الخروج؟

كانت إستير تتطلّع إليه بقلق طوال روايته الطويلة لسيرة القبيلة. كانت تفكّر في حكمة سمعتها من أحد حاخامات «جربة» مرّة تقول أن المجانين هم الناس الأكثر عبقرية في هذا العالم حتّى أن الكلمة على ألسنتهم تتحوّل بقدرة قادر حكمةً، والحكمة تتحوّل في أفواههم نبوءة. ولهذا السبب ينعت الناس الأنبياء دائماً بالجنون في بدايات عهدهم بالنبوّة، لأن النبوّة رهينة جنون، ولولا الجنون لما وُجد الأنبياء.

قالت أخيراً:

ـ أعترف لك بأن العبور عمل لا يخلو من إغراء حقّاً، ولكن لا أظنّك تريدني في هذا الزمان أن أهجر هذا المكان إلى صحراء اللاّمكان (كما تسمّيها) ببدني هذا الذي يعجزني أن أذهب به إلى القلعة، فكيف يطيعني في الذهاب به إلى الصحراء؟

قهقهت إستير فترجرج بدنها الهائل كلّه فبدا كل طرف فيه شكوة تتمخّض بيدٍ مجهولة.

ولكن حاطوم لم يستسلم:

ـ لم نسمع، يا إستير، بطاعونٍ اعترض طريق مخلوق عابر، كما لم نسمع بوباء هاجم أهل صحراء يتنقلون في الخلوات. ولكن الطاعون لا يغير إلاّ على أهل الاستسلام الذين يستقرّون داخل أسوار

المدن، ويتخفّون وراء جدران الأبنية، ممّا يدلّ على أن الطاعون ليس سوى ذلك الجلاّد الجبان الذي يروق له أن يفتك بالجبناء!

وافقته إستير:

ـ الاستقرار في الأرض جُبْن حقّاً!

ـ لم نصبح عبيداً في قبضة الأمم، يا إستير، إلاّ في اليوم الذي خُنّا فيه العهد وتنازلنا عن عصا الترحال!

ـ صدقت. ذهبنا إلى نعيم الاستقرار فوجدنا أنفسنا عبيداً للعبيد!

ـ ما ضرّنا اليوم، يا إستير، أن نستيقظ من سباتنا ونستجير بالعبور الذي لم يخذلنا يوماً؟

ـ هيهات!

ـ الخروج لن ينجينا من الطاعون فحسب يا إستير، ولكنه سيحرّرنا من عبوديّتنا، ويعيد لنا اعتبارنا الذي فقدناه يوم فقدنا اسم «بني عابر» المستعار من العبور، وسوف يجيرنا من غول الفناء الذي يتربّص بنا!

سكتت إستير طويلاً. قالت أخيراً:

ـ ماذا تريد؟

قال حاطوم:

ـ لا أريد إلاّ عونك!

ـ عوني؟

ـ بدون عونك سوف يتهمونني بالجنون، وسوف يشي بي حاييم إلى السلطات لأودع السجن!

ـ وهل تريد أن تلبّي نداء الرؤيا دون ثمن؟ أم أنّك نسيت أن ثمن النبوّة هو الموت؟

ـ أنا لا أخاف الموت يا إستير، لأن مَنْ فَقَد كل شيء ليس عليه أن يخسر شيئاً. ولكني أخاف الإخفاق!

قالت إستير بلهجة يقين:

ـ إذا آمنت فلن تخفق!

أضافت بعد صمت:

ـ إذا آمنت فلن تخفق حتّى لو صلبوك على باب زنّاتة!

ـ لا أريد أن أموت قبل أن أرى شعبي مبعثراً في الخلاء يعبد الربّ في البريّة!

ـ أخشى أن عبور البرية في زماننا هذا أعسر منه في أي وقت مضى!

سكت حاطوم. تكلم بعد لحظات:

ـ حتّى لو صار الطاعون لصاحب الرؤيا عَوْناً؟

غرقت إستير في عرشها. غابت في دنياها. قالت:

ـ أخشى أن يكون تشبّث أهل هذا الزمان بالجدار أقوى حتى من الطاعون!

عمّ صمت. أغمضت إستير عينيها. انتظمت أنفاسها. غابت في دنياها على طريقة الباشا فظنّ حاطوم أنها نعست فقام لينصرف.

ولكن إستير نعست بالفعل حتّى أنها رأت في نومها حُلماً. رأت كابوساً فظيعاً. رأت أفعواناً كريهاً ينتصب فوق رأسها كمارد خرافيّ

ليجرّدها حلّيها التي ترتديها بعد أن فرغ من تجريدها من حلّيها المخفية ومن كل كنوزها الأخرى. كان يتناول الحلّي وقطع الذهب ليدسّها في جوفه بجشع. كأنّه يبتلعها ليتغذّى بها. ليسدّ بها رمقه. كأنّ الذهب فاكهة تصلح للأكل. كأنّ الذهب تحوّل طعاماً. ولكن الأفعوان لم يتوقّف عن ابتلاع الكنوز. بل أخرج لسانه الشره ما أن انتهى من التهام الذهب ليدسّه في منخريها. كان لساناً مشطوراً إلى نصفين. أولج في كل فتحة شطراً وشرع ينهل. ينهل وينهل حتى استشعرت الخواء فعرفت على نحوٍ غامض أنه سحب بلسانه المشقوق إلى نصفين روحها! رأت نفسها تهيم بعيداً عن جسدها المكوّم فوق عرشها فأدركت أنها هلكت. فزّت من غفوتها فلم تصدّق أن روحها عادت لتسكن جسدها. استولت عليها سعادة لم تعرفها يوماً. سعادة الأموات الذين يموتون ثم يبعثون أحياء. سعادة فقدان الحياة ثم استعادة الحياة من جديد. أدركت لحظتها أن الحياة سرّ لا يقدّر بثمن ولا يفسّر بكلم. أدركت أن عليها منذ اليوم أن تتمتّع بالسعادة لمجرّد أنها ما تزال على قيد الحياة. لمجرّد أنها تحيا.

أمرت الخادمة بأن تأتيها بجرعة ماء. شربت ثم أمرتها أن تدلق على رأسها وعاء الماء. تنفّست الصعداء قبل أن تسأل الخادمة:

ـ ماذا يعني أن يرى الإنسان أفعواناً في المنام يا «نوريّة»؟

أجابت «نورية» دون أن تتوقف عن دبيبها حول مولاتها:

ـ الأفعوان في قبيلتنا يعني عدوّاً يا مولاتي!

ـ وماذا يعني أن يلتهم الأفعوان ذهباً في عُرف قبيلتكم؟

توقفت نورية لحظة. فكّرت لحظة. قالت:

ـ الذهب في الأحلام روح يا مولاتي. ألا يُقال في الأمثال أن الذهب روح مجسّدة، كما أن الروح ذهب مبدّد؟

تمتمت إستير:

ـ عجباً!

فأضافت نورية:

ـ والذهب عند قبائل أخرى هو السلطان يا مولاتي، لأن السلطان في عرف هذه القبائل ما هو إلاّ الروح أيضاً!

غمغمت إستير لنفسها:

ـ ما أغباني حقّاً: إذا تنازلت لنبيّ الزور هذا عن شعبي فعلى مَن أبقى ملكةً؟

ثم أمرت باستدعاء حاييم في الحال. وعندما دخل زعيم الملّة أبلغته بأن حاطوم قد جُنّ، وعليه أن يتخذ بشأنه ما يلزم من تدابير!

5

عندما عاد حاطوم إلى بيته وجد الجارية الموبوءة التي دسّها له سيدي البوني في انتظاره. عيناها حمراوان جاحظتان، والدمامل المريبة تغزو جبينها وتنتشر على وجنتيها. قالت أن سيدي البوني لم يكتفِ بطردها من بيته هذه المرّة، ولكنه أصرّ أن تعود إلى بيته هو (حاطوم) لأنه هو سيّدها الجديد، وعلى عاتقه تقع المسؤولية في العناية بها وتكفينها ودفع مصاريف دفنها!

ولكن حاطوم هذه المرّة لم يغضب. بل ابتسم بغموض قبل أن يُسْمِعها سؤالاً:

- أجيبيني على سؤال: لماذا تصرّين على الموت داخل جدران؟

شدّت لحافها لتغطّي فمها، ثم طأطأت أرضاً. قالت بروح طفولية:

- لا أريد أن أموت في العراء!

- لماذا؟

- في الأزقّة يدبّ في الليل رجال يعاشرون جثث النساء!

كان حاطوم قد سمع هذه السيرة مراراً، ولكنه لم يصدّقها. قال:

- وهل يهمّ الشاة سلخها بعد نحرها؟

رمقته بنظرة من حدقة عينها الكبيرة الكحلاء. قالت:

- ربّما لن يهمّني أن تدنّس تلك الأشباح الليلية جسدي بعد موتي لولا أنّي..

طأطأت مرّة أخرى فتبدّت له طفلة أكثر من أيّ وقت مضى. شجّعها:

- لولا ماذا؟

- لولا أنّي.. بكر!

- بكر؟

ثم أضاف:

- وهل تقوم أشباح الرجال باغتصاب الأبكار أيضاً؟

أجابت بحماس مفاجىء:

- لا يبحث هؤلاء الخفافيش إلاّ عن الأبكار. ألم يسمع مولاي بالفتاة العذراء التي افتضّ بكارتها شقيقها بعد أن لفظت أنفاسها دون أن يدري؟

- هل قلتِ دون أن يدري؟

- كانت تقيم في المنشية. وقد جاءت إلى بيته في المدينة بعد أن هلكت أمّها وزوج الأمّ بالوباء. ولكنها ماتت بالوباء أيضاً قبل أن تدرك بيت شقيقها. هناك وجدها الشقيّ ملفوفة في لحافها ففعل في الظلمة ما فعل..

سكتت. سكت حاطوم أيضاً. كان الظلام قد استولى على المدينة، فتنقّل السابلة بالفوانيس هنا وهناك في وقتٍ غمر فيه قبس القمر الوليد صوامع الجوامع.

قال حاطوم:

- منذ الليلة تستطيعين أن تنامي في هذا البيت. بل منذ الليلة تستطيعين امتلاك هذا البيت لأني أفضّل أن أموت في العراء الذي يسطع في سمائه البدر، بدل الموت تحت سقوف العبيد هذه!

تمتمت الجارية:

- على مولاي أن يحمد الله ليلاً نهاراً لأنه لم يخلقه امرأة تخشى على نفسها من الدنس حتى وهي جثّة هامدة!

سكتت ثم أضافت:

- أكبر قصاص في هذه الدنيا يا مولاي هو أن يُخلق الإنسان امرأةً!

غمغم حاطوم:

ـ يؤسفني أن أهبك بيتاً لن يعود لكِ بيتاً، بل قبراً!

تساءلت الجارية بعد تردّد:

ـ هل قرّر مولاي أن يهاجر حقّاً؟

استعجب حاطوم:

ـ من أين لكِ بهذا النّبأ؟

ـ لقد سمعت الناس يتحدّثون بنيّة مولاي في الخروج من المدينة عندما كنت في طريقي إليك!

ـ بلى. سأترك المدينة ليهنأ في ربوعها البوني وأمثال البوني!

همّ بأن يذهب، ولكن الجارية استوقفته:

ـ الحقّ يا مولاي أن أشباح الليل التي تعاشر النساء وهنّ أموات ليس السبب الوحيد الذي أفزعني من الموت في العراء!

التفت إليها حاطوم فرأى في عينيها وميضاً تحت ضياء قبس القمر. اعترفت:

ـ في عقيدتنا لا تهنأ روح الإنسان الذي لفظ أنفاسه في العراء!

ـ لا تهنأ؟

ـ لا تهنأ ولا تجد لنفسها مستقرّاً!

ـ ولماذا تريد قبيلتك للروح أن تجد لنفسها مستقرّاً؟ ألم تشبع في الدنيا استقراراً؟

سكتت الجارية فأضاف حاطوم:

ـ أعجب من أناسٍ يصرّون أن يظلّوا عبيداً حتّى وهم أموات!

6

طاف حاطوم بيوت الحارة في تلك الليلة، قرع أبواباً كثيرة جدّاً، وبشّر بالخلاص نفوساً كثيرة، ولكنه لم يفلح في إقناع إلاّ القلّة.

لم ييأس.

بل استبشر بالقلّة خيراً وتذكّر أن الإخفاق كان قرين كلّ الأنبياء في بداية عهدهم بالدعوة. بل شكر الربّ بصوت مسموع لأن القطيع لم يكذّبه تكذيباً، ولم يزجّ به في النار، ولم يصلبه على العيدان، ولم يشِ به إلى رجال القرمانلي، بل ولم يرمه حتّى بالحجارة!

ذهب لينام على شاطىء البحر استعداداً لمواصلة المشوار في الغدّ. ولكنه عندما استيقظ في صباح الغد وجد حاييم يقف فوق رأسه كأنه شبح من أشباح الشرّ. حيّاه بابتسامة، ولكن زعيم الملّة سأل بجفاء بدل أن يردّ على تحيّته:

ـ بلغني أنّك قررت أن تهجرنا!

دَعَكَ حاطوم عينيه بيديه ثم غسلهما بماء البحر. غسلهما بمرأى البحر. قال:

ـ بلى. لقد قررت أن أغسل يديّ من هذه المقبرة!

ـ المقبرة؟

ـ ما هي المدينة إذا لم تكن مقبرة؟

سكت الزعيم. تسكع بالجوار. رنا أيضاً إلى البحر المغمور بأشعة شمس الصباح. قال:

ـ تستطيع أن تهجر المدينة متى شئت إذا كنت ترى فيها مقبرة

اليوم، ولكن لماذا تصرّ أن تأخذ معك في رحلتك أناساً لا يريدون أن يروا في هذه المدينة مقبرة؟

- أنا لا أجبر لمرافقتي أحداً، ولكن الواجب أن أقول لهم الحقيقة!

استنكر حاييم:

- الحقيقة؟ ومن قال لك أنهم يريدون أن يسمعوا منك، أو منّي، ما تسمّيه أنت حقيقة؟

سكت حاطوم لحظات. تابع امتداد البحر زمناً. قال:

- يا حاييم لا تلمني لأني رأيت في المنام رؤيا كان يجب أن أرويها لك قبل أن أسمعها لأيّ أحد آخر..

قاطعه الزعيم:

- دعك من الهراء، لأنك تعلم، كما أعلم، أنّنا لو استجبنا لكل رؤيا رأيناها في منامنا لزالت الدنيا منذ زمن بعيد ولما تبقّى من هذا العالم الحجر الذي يقوم على حجر!

ابتسم حاطوم بسمة غامضة. قال:

- هل خطيئة أن أدعو الناس إلى الفرار من الوباء؟ هل جريمة أن أحرّض البلهاء على النجاة؟

- لا وجود لمدينة في هذه الأرض لم يعبرها الطاعون، وبرغم ذلك لم نسمع بأهل مدينة هجروا مدينتهم فراراً من الوباء!

- إذا لم يفعلوا ذلك فذلك عارهم الذي لن تغفره لهم السماء، إذا لم يفعلوا ذلك فذلك قصاصهم الذي استحقّوه جزاء العبودية!

ـ ولكنّهم سعداء! إنهم في تشبّثهم بالمدن سعداء فلماذا تريد أن تجرّهم إلى الشقاء؟

ضحك حاطوم. نهض على قدميه. قال:

ـ إنّهم سعداء حقّاً، ولكنهم سعداء بعبوديّتهم! السعادة بالعبودية سعادة مدنّسة!

ضحك زعيم الملّة أيضاً، ولكنها ضحكة موجعة امتزج فيها الاستخفاف بالاستنكار. قال:

ـ لا وجود لسعادة مدنّسة وأخرى منزّهة. يكفي أن يكون الناس سعداء!

ـ في هذه الحال هم ليسوا سعداء بعبوديّتهم فحسب، ولكنّهم في زمن الطاعون هم سعداء ببليّتهم. سعداء بهلاكهم! هل تسمّي هذا سعادة؟

ـ أنهم سعداء بسبب صمودهم. إنهم سعداء لأنهم يرون أنفسهم أبطالاً في حربهم ضدّ الوباء. أليس الصمود في وجه عدوّ رهيب كالطاعون بطولة؟

تسكّع حاطوم على الشاطىء. أنصت لهدير الموج وهو يستيقظ من سكينة الليل ليبدأ عمله. تمتم:

ـ بطولة العبيد!

ثم بيقين:

ـ أنا أعرف ماذا يخيف هؤلاء البلهاء من الهجرة، وأستطيع أن أشفق عليهم بسبب ذلك، ولكني لن أجد لهم العذر!

تساءل حاييم:

ـ ماذا يخيفهم؟

أجاب حاطوم في الحال:

ـ المِلكيّة؟

ـ الملكيّة؟

ـ بلى. إنّهم مكبّلون بأغلال لا يستطيعون أن يتحرّروا منها هي أموالهم، بل وكل ممتلكاتهم!

سكت، ثم تساءل:

ـ أليس غباء أن نهلك بسبب مال نتركه وراءنا، أو أملاك سيرثها غيرنا؟

تقدّم نحوه الزعيم خطوتين. حاججه قائلاً:

ـ ذلك أننا لسنا يوماً شيئاً غير ما نملك سواء أكان مالاً أو بنياناً. والدليل هو أنت!

ـ أنا؟

هتف حاييم:

ـ لو لم يصادر البك مالك في تلك الصفقة المشئومة هل كنت سترى رأياً آخر؟ لو لم يخدعك البوني بالجارية هل كنت ستلجأ إلى هذه البدعة؟

أجاب حاطوم ببرود وهو يهاجر في البحر:

ـ تلك كانت رسالة. صفقة الخسارة كانت رسالة، وصفقة الجارية كانت استكمالاً، أو فلنقل إيضاحاً، لرسالة لم أفهمها من القراءة الأولى!

رفع الزعيم سبّابته في وجهه محذّراً:

ـ وصيّتي لك أن تحترس!

ـ لماذا عليّ أن أحترس؟

ـ لأنّك نسيت أمراً أردت أن أذكّرك به قبل فوات الأوان!!

التفت إليه حاطوم فالتقت نظراتهما. قال الزعيم:

ـ أنت تدّعي النبوّة في زمن يرى الأنبياء مجرّد دراويش!

ـ لا يهمّني أن يراني الناس درويشاً!

ـ إذا كان لا يهمّك أن ترى نفسك بين الناس درويشاً فلا أظنّ أنّك لن تبالي إذا ذكّرتك بأنّك تعيش في بلادٍ يعتنق أهلها دين خاتم النبيّين والمرسلين!

هيمن سكون. ولكن البحر جاهر بلسان المجهول لا لينتهك بكارة السكون، ولكن ليزيد السكون غموضاً وعمقاً. تساءل حاطوم أخيراً:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

أجابه زعيم الملّة بعد صمت:

ـ أريد أن أقول أن ادّعاء النبوّة في ديار المسلمين عقابه الموت!

7

لم تخجل للأعويشة من أن تشيع بأنها حبلت بوليّ العهد ليلة زفّ لها حسن بك بشارة تخلّيه عن كريمة الكاهية حتّى أنّها لم تكتفِ باحتضان هذه المفاجأة لزوجها، ولكنّها جادت عليه بمكافأة أخرى

يوم أنجبت له وليّ العهد هذا في أمدٍ لم يزد على السبعة أشهر فاحتفل القصر كلّه بهذه المناسبة، وأمر البك بإطعام فقراء المدينة لمدّة أسبوع، وبلغت به السعادة بالوليد حدّاً أصدر فيه عفواً شاملاً عن السجناء.

ولكن السعادة ما لبثت أن خذلت البك كعادتها دائماً؛ لأنّ وليّ العهد الذي أقبل على الدنيا في سبعة أشهر فحسب كان هشّاً جدّاً فلم يستطع الصمود أمام بسالة العدوى التي انتقلت إليه من إحدى الجواري فلفظ أنفاسه بعد يومين فقط من الإصابة.

ويُروى أن البك اعتكف في البيت الريفي بالمنشية أياماً حزناً على الوليد الضائع، وكان يمكن أن يمكث هناك أمداً أطول لو لم يستفزّه سيدي أحمد بوصيّة قاسية (بدل التعزية المرجوّة) تقول أن وفاة الوليد ما هي إلاّ رسالة قصاص إذا قرئت كما يجب أن تقرأ، لأن بعض الظنّ دائماً إثم يستوجب عقاباً، كما أن توجيه الإهانة لإنسانٍ مستضعف خطيئة أخرى تستوجب العقاب أيضاً.

كانت سعاد (شقيقة ابنة الكاهية المتوفاة التي قرّر سيدي أحمد الاقتران بها نكايةً بشقيقه كما قيل) قد أصابتها العدوى أيضاً فلفظت الشقيّة أنفاسها ليلة زفافها فخذلت الأقدار سيدي أحمد في انتقامه، برغم أنه لم يستسلم، لأنه ذهب إلى للاّ حلّومة قائلاً أنه قرّر أن يتزوّج سليلة أحد أكابر المملكة وهي فتاة تركيّة الأبوين يروي الناس عن جمالها الأساطير، فما كان من الأمّ إلاّ أن عبّرت له عن فرحتها، فلم تمضِ بضعة أيام حتّى وجد سيدي أحمد نفسه في أحضان الحسناء التركيّة التي يروي أهل الفضول عن جمالها الأساطير.

ويبدو أن زواجه من الحسناء لم يشفِ غليل سيدي أحمد، لأنّه استمر في مطاردة شقيقه بضروب الاستفزاز، ولفّق في حقّه شائعات سرعان ما اكتشف أهل السراي عريّها من الصحّة. لم يكتفِ بهذا ولكنه انضمّ إلى حزب سيدي يوسف (الذي انتهت علاقته بالبك إلى قطيعة علنية منذ أمد بعيد) فتحالف معه لعمل كل ما بالوسع للإطاحة بالبك وانتزاع العرش من بين يديه.

وبرغم شراسة الحملة إلاّ أن حسن بك لم يفقد صوابه، بل تسامح مع شقيقيه إلى حدّ أكسبه لا تعاطف الرعيّة وحدها، ولكن تعاطف عقلاء القصر أيضاً برغم تحفّظ هؤلاء في المجاهرة بآرائهم خوفاً من أن يجدوا أنفسهم طرفاً في صراع هم في غنى عنه.

ففي ذلك اليوم الذي اعتكف فيه في ربوع الضاحية ليخلو إلى حزنه، ثم تلقّى رسالة شقيقه الاستفزازية التي تذكّره بأن مصابه ما هو إلاّ القصاص الذي استحقّه جزاء آثامه في حقّ الأبرياء، لم يجد مفرّاً من كتم غيظه أيضاً لا لأنه لا يريد أن يتنازل عن كبريائه ويدخل مع شقيقيه في حرب الرعاع التي لا يستحي فيها الناس أن يتنابزوا حتّى بالألقاب، ولكن لأنه اكتشف أنه يكسب إلى صفوفه أناساً جدداً كلّما كتم غضبةً وأحجم عن ردّ الفعل، في حين يفقد شقيقاه نصيباً من رصيدهما مع كل مكيدة جديدة.

في ذلك اليوم عندما جلس في رحاب البستان المزحوم بأشجار الليمون والبرتقال والتين، ممسكاً بقرطاس سيدي أحمد، تطلّع إلى السماء العارية، فوجدها زرقاء، عميقة، لا مبالية، خالدة في لامبالاتها، في زرقتها، في عريّها، في عمقها، فابتسم. ابتسم لأنه

تذكّر جدّه محمد القرمانلي الذي لم يخسر في حياته كلّها حرباً لأنه أحجم دائماً في الدخول مع الخصوم في حرب. تذكّر السلف الأكبر، أحمد الأوّل الذي وضع بعبقريّته حجر الأساس الذي قامت عليه أمجاد الأسرة القرمانلية، لأنه هو مؤسّس ناموس النصر بوسيلة التخلّي عندما هزم أساطيل الإمبراطورية الفرنسية بتهجير المدينة من سكّانها والانسحاب إلى الدواخل. تذكّر ذلك لا ليهنّىء نفسه على النصر، ولكن ليضع الخطط الكفيلة بتحويل هذا التدبير البسيط إلى قناعة، إلى شريعة، بل إلى عقيدة. لأنه أدرك بما لا يدع مجالاً للشكّ أن صاحب التخلّي هو البطل الذي لن يهزم لا لأنه بطل بمفهوم أهل الدنيا، ولكن لأنه صاحب حكمة. والحكمة هي ذلك الصرح الذي لم تكن البطولة فيه سوى مجرّد ركن.

في ذلك اليوم الذي سلّم فيه أمره إلى ربوع الحقول، وبثّ أحزانه لرحاب السماء، كان رسول الباشا ينتظر في الخارج ردّه على رسالة مولاه. ولكنه بدل أن يحرّر الردّ على رسالة الباشا قرّر أن يتخلّى عن خلوته ويذهب بنفسه إلى السّراي. تخلّى البك عن عزلته يومها وذهب ليدخل على الباشا.

وجده مكوّماً في عرشه يغالب النعاس كعادته. فتح عينيه بخمول وأومأ له بالجلوس. ولكن البك آثر أن يخطو أمامه في البلاط كما راق له دائماً أن يفعل. قال:

ـ لا أعرف لماذا تقيم القيامة في هذه المملكة لمجرّد أن فريقاً من ملّة اليهود يريدون أن يهجروا المدينة!

استيقظ الباشا من غفوته نهائيّاً. ويبدو أنه لم يتوقّع أن يباغته البك بأمر اليهود منذ البدء فاستنفر ما يمكن استنفاره من قوى. قال:

ـ كيف تريدني ألاّ أقيم القيامة إذا كان يهود هذه المدينة هم روح هذه المملكة؟

استنكر البك:

ـ روح المملكة؟

ـ بلى، بلى. ماذا نفعل في هذه البلاد بدون يهود؟ أم أنّك نسيت أن التجارة هي سرّ الحضارة، واليهود هم سادة التجارة منذ عرف الناس التجارة؟

خطا البك أمام الباشا ذهاباً وإياباً. عقد يديه وراء ظهره. قرّر أن يتخابث دون أن يعرف هو نفسه لماذا:

ـ هل تقرع ناقوس الخطر خوفاً على مصير المملكة من كساد سلطان التجارة، أم تقرع الناقوس تلبيةً لنداء أولئك الذين سيفقدون في هذه المدينة سلطانهم على الناس بخروج ملّة من ملل المدينة تهاجر فراراً من الطاعون؟

حدجه الباشا بنظرة تحدٍّ. قال:

ـ لا تحاول أن تفتّش عن ذريعة لرمي الحجارة في وجه إستير، وتذكّر أنّك ستفقد سلطانك على الناس بسبب خروج هؤلاء قبل أن تفقده إستير!

توقّف البك. تساءل:

ـ ولماذا عليّ أن أفقد سلطاني على الناس بخروج هؤلاء؟

ـ بسبب التجارة مرّة أخرى. ستفقد صفقات التجارة. أنت تنسى أن سلطانك على الناس مستعار أيضاً من هذا المارد. التجارة كما ترى شعرة شمشون في رأسك أيضاً. ها ـ ها ـ ها..

قهقه الباشا بصوت عالٍ فترجرج بدنه كلّه إلى حدّ استجابت فيه أعواد العرش بقعقعة تنذر بالسوء.

قال البك باستخفاف:

ـ هذا ما تظنّه أنت. بل هذا ما تظنّه إستير، ويظنّه مع إستير السيّدان المبجّلان أحمد ويوسف!

ـ ولماذا عليهم أن يظنّوا غير هذا إذا كنت تصرّ أن تقدّم لهم بمسلكك الدليل تلو الدليل على صحّة هذا؟

ـ أنت لا تملّ من أن تكرّر هذا لأنك تحبّهم في حين لا تستحي أن تتباهى أمامهم وأمام الناس بأنّك تكرهني!

ـ هراء!

ـ لماذا تكرهني يا أبي؟ هذا هو السؤال الذي أردتك أن تجيبني عليه دائماً، ولكنك لم تفعل يوماً!

سكت الباشا. تطلّع إلى البك بغموض. قال:

ـ لا أملك إلاّ أن أكرهك!

تطلّع إليه الابن بحزن، ولكنه لم ينبس. أضاف الباشا:

ـ لا بدّ أن أكرهك كي لا أحتقر نفسي!

وقف البك يحدّق فيه بحزن دون أن يتكلّم. أضاف الباشا:

ـ لا أكرهك بسبب عشقك لجمع المال كما يظنّ بلهاء كثيرون في هذا البلاط، ولكن لسبب آخر غاب عنّي طويلاً قبل أن أدركه أخيراً!

أغمض الباشا عينيه. قال بصوت كأنه الحلم:

ـ لأنّك تذكّرني بأبي!

سكت الباشا. فابتسم البك بحزن. غمغم:

ـ أيّ شرّ في أن أذكّرك بأبيك يا أبي؟

لم يجب الباشا. سكن في جلسته مغمض العينين قبل أن يقول:

ـ لم يكره إنسان الأبناء كما كرههم جدّك محمد أحمد القرمانلي!

تحوّلت بسمة الحزن على شفتي البك بسمة استخفاف قبل أن يضيف الباشا:

ـ الناس يستغربون إكباري للأعلاج لأنّهم لا يدرون أنّي مدين لهؤلاء بتولّي العرش، لا لأبي!

تكلّم البك بعد صمت قصير:

ـ ما أعلمه أن جدّي عاش في دنياه عيش زهد في حين تتهمني بحبّ المال، فما وجه المقارنة بيني وبين جدّي؟

سكت الباشا زمناً. فتح مقلتيه. قال:

ـ لا أدري. ولكن يخيّل إليّ أنّك أكثر أبنائي شبهاً به، ولكن برغم ذلك لم أستسلم لهواجسي. لأني لو فعلت لحرمتك من العرش!

ـ تحرمني من العرش؟

ـ لم أفعل لسبب واحد وهو: إكباري لناموس الدنيا الذي قضى أن يتولّى العروش الابن البكر!

ثم لوّح بيده في يده الهواء ليقول:

ـ ولكن دعنا من هذا وحدّثني بما ينبغي عمله؟

غاب البك بعيداً فأضاف الباشا:

- اتهمتني منذ قليل بالخضوع لضغوط إستير ونسيت أنك المذنب الأوّل والأخير في كلّ ما حدث!

تعجّب البك:

- هل تتهمني بتدبير خروج الملّة؟

- بلى. لقد خطفتَ من ذلك البائس حاطوم صفقة العمر فصنعت منه نبيّاً دون أن تدري!

ضحك البك باستخفافٍ، في حين أضاف الباشا:

- أنت دفعت المسكين إلى اليأس، ثم ثنّى البوني فغشّه بأن باع له جارية موبوءة. أليست هذه أسباباً كافية لاعتناق النبوّة؟ ألا تدري أن اليأس هو سبب كل بليّة؟ ألا تدري أن اليأس هو سبب كلّ نبوّة؟

تضاحك البك مرّة أخرى. قال:

- لا أعرف لماذا تصرّ على منعهم من الخروج! اللّهم إلاّ إذا كنت تخشى أن يحذو أهل المدينة حذوهم فتجد نفسك بلا رعايا!

تضاحك مرّة أخرى حتّى أيقن الباشا أن البك شفي نهائيّاً من كآبته التي استولت عليه بعد فقده لوليده فقال:

- أنا لا أخشى فقدان الرعية أبداً ليقيني بأن أنصار العبودية في هذه الدنيا (إذا سمحنا لأنفسنا بتسمية أهل الاستقرار عبيداً على طريقة حاطوم) يفوقون أنصار الحرية بما لا يُقاس، ولهذا فإنهم سيركنون إلى مملكتي إلى الأبد ما طمعوا في أن أطعمهم خبزاً!

- هل تظنّ أن الطمع في نيل الخبز هو سرّ بقاءهم الوحيد؟

أجاب الباشا بلا تردّد:

ـ بلى. الأمل هو ما يستبقيهم. لولا الطمع في الخبز لانفضّوا من حولي. وإلاّ ما الذي يجعلني أبيع بالمزاد عبيدي، بل وحتّى صحوني لولا رغبتي في إطعامهم لئلاّ أفقدهم؟

ساد صمت فعاد البك يخطو في البلاط. قال الباشا:

ـ الحقّ أن ثمّة سرٌّ آخر في إصراري على منعهم من الخروج لا أعرف كيف أعبّر لك عنه!

استفهم البك فأضاف الباشا:

ـ اليهود هنا جرذان السفينة!

تعجّب البك:

ـ جرذان السفينة؟

ـ بلى. لا أعرف لماذا أحسستُ بالخطر عندما أخبرتني إستير بالأمر حتّى أني تذكرت الجرذان التي لا تهجر السفينة إلاّ إذا أشرفت السفينة على الغرق!

سكت البك. أضاف الباشا:

ـ الآن أدركت أن الفرعون لم يخطىء عندما كابر ورفض أن يتركهم يهجرون أرض مصر!

هتف البك:

ـ الفرعون لم يخطىء؟

ـ الفرعون كان على حقّ ليقينه بأن الفئران لا تهجر السفن إلاّ إذا أشرفت السفن على الغرق. وقد صدق حدسه فعلاً لأن مصر لم تعد مصر منذ هجرها اليهود. هل تدري لماذا؟

حدّق فيه البك بدهشة فأضاف الباشا:

ـ لأن العبرانيين أخذوا معهم روحها يوم خرجوا منها فلم يكن أمام الجسد الذي فقد الروح إلاّ أن يَفْنَى!

8

قالت إستير:

ـ ما يدهشني يا مولانا أن يفلح هذا الصعلوك في خلق أتباع له لا أن يدّعي النبوّة!

قال الباشا بعد أن تناول جرعة من كأسه:

ـ الناس لا يتبعون إلاّ أنبياء الزور لا لأنهم ضعاف نفوس كما قد نظنّ، ولكن بسبب ظمأ قديم قدم الإنسان إلى النبوّة!

قالت إستير:

ـ تُرى ما حاجتنا إلى النبوّة إلى هذا الحدّ؟

ـ لأننا لسنا سوى أناساً: الإنسان إنسان بالنبوّة لا بالخبز!

ـ أهي دفاع عن النفس؟

ـ إنها دفاع عن تلك الأحجية التي يسمّيها هؤلاء الدهاة روحاً وليست دفاعاً عن النفس الأمّارة بالسوء!

رشفت إستير من كأسها ثم قالت:

ـ ماذا لو اعتقلناه؟

أجاب الباشا:

ـ إذا اعتقلناه صنعنا منه بطلاً!

ـ وإذا صلبناه؟

أجاب الباشا على الفور:

ـ إذا صلبناه صنعنا منه قديساً، وربّما نبيّاً حقيقياً!

ـ ماذا لو تخلّصنا منه يا مولاي بطعنة غدر؟

ـ أخشى أن أوان طعنة الغدر قد فات بعد أن ذاع أمره بين الناس!

رشف من كأسه. أضاف:

ـ الكلّ سيعرف أن القتل كان بإيعاز منّا!

ساد سكون. قال الباشا:

ـ كئيبة تلك السهرة التي لا تشاركنا فيها زهرة. أليس كذلك؟

ولكن إستير غابت بعيداً فلم تسمع عبارة الباشا. قالت أخيراً:

ـ وجدتها!

سأل الباشا ببرود:

ـ ماذا وجدتِ؟

ـ بماذا ستكافئني إذا وجدت لك مخرجاً؟

أجاب الباشا:

ـ سوف أكافئك بتقديم هذا المخرج لكِ هديةً. ألسنا في هذه الورطة شركاء؟

ضحك الباشا. قالت إستير:

ـ لم يعد أمامنا من سبيل إلاّ أن نسلّط عليه أهل الإيمان!

ـ أهل الإيمان؟

ـ المسلمون الذين سيهولهم ادّعاء النبوّة في زمن قُفِل فيه باب النبوّة منذ ما يزيد على الألف عام!

حدّق الباشا في عينيها بنظرة غموض. أضافت إستير:

ـ أضمن لك بأنهم سوف يمزّقونه إرباً إرباً!

ولكن الباشا خذلها:

ـ تلك خطيئة لن تغفرها لي الملّة!

هيمن سكون جديد، فلم تجد إستير مفرّاً إلاّ شنّ غارة على الطعام!

9

جاء حاطوم ليحاجج إستير بعد أن أفلح في إخراج نصيبٍ من القطيع إلى رحاب البريّة:

ـ هل جئنا إلى هذه الدنيا، يا إستير، كي نستقرّ أم كي نمضي؟

أجابت إستير:

ـ لم نولد في هذه الدنيا إلاّ لنُستعبد: ألا تراني عبدة لهذا البدن؟ ألا ترى هذا البدن عبداً للأرض؟

ـ بالاستقرار، يا إستير، نحن أموات. بالارتحال نحن أحياء!

ـ هراء!

ـ لولا الاستقرار لما صرنا عبيداً للعبيد. لولا الاستقرار لما صرنا طعاماً للطاعون. أيرضيك أن يصير قطيعك طعاماً للطاعون؟

ـ ما حياتنا في هذه الدنيا إلا طاعون!

ـ هذه استهانة بوصايا التوراة يا إستير!

ـ لن أسمح لك باختلاس قطيعي!

ـ لست أنا من اختلس منك القطيع يا إستير، ولكنه الطاعون.

ـ الطاعون سوف يعبر كما عبر مراراً في هذه المدينة وفي غيرها من المدن.

ـ ولكن العبودية لا تعبر يا إستير، العبودية هي الوباء الأسوأ من الطاعون لأننا نستمرئها فلا نملك سبيلاً للإقلاع عنها!

ـ للعبودية لا يوجد ترياق ما دمتَ توافقني بأن مجيئنا إلى هذه الدنيا ما هو إلاّ صفقة نخسر بموجبها الحرية كي ننال الميلاد!

سكت حاطوم. ولكنه ما لبث أن سأل من جديد:

ـ هل ذقتِ طعم العبور مرّة يا إستير؟

حدجته إستير بنظرة شكّ. قالت:

ـ أنت لا تكتفي بأن تجرّدني من قطيعي يا حاطوم، ولكنك تأتي لتسخر منّي!

استعجب حاطوم:

ـ ولماذا أسخر منك يا إستير؟

ـ أنت تدري أني لا أستطيع أن أبلغ السراي بحملي هذا لولا مساعدة عبيد الباشا فكيف تريدني أعبر به الصحراء؟

ـ أنتِ تستنكرين لأنك لا تعلمين أن الصحراء هي الترياق الذي سيجرّدك من حملك هذا فيما لو تشجعتِ!

حدجته إستير مرّة أخرى بنظرة ارتياب. قالت:

- وكيف تستطيع صحراؤك أن تجرّدني من هذا الحِمْل؟

ابتسم حاطوم. أجاب:

- هذا سرّ الصحراء يا إستير. إنّها لا تنقذ فينا الروح وحسب، ولكنها تحرّر فينا الجسد أيضاً. كل ما تريده منّا الصحراء لتخلّصنا هو أن نتحلّى بنصيبٍ من شجاعة!

تمتمت إستير:

- لا أصدّق!

- لا تصدّقين لأنك لم تجرّبي. الاستشفاء يحتاج إلى الشجاعة، لأن صاحب العلّة كثيراً ما يتشبّث بعلله عندما يعتادها إلى درجة يرفض فيها الدواء. والاستقرار يا إستير ما هو إلاّ المرض الأسوأ من كل مرض لأننا لا نريد الشفاء منه عندما نعتاده.

سكت ثم أضاف:

- الاستقرار يربّي فينا حبّ العبودية يا إستير إلى حدّ نرى فيه الحرية بعبعاً مميتاً. العبودية هي الوباء المميت يا إستير وليس الطاعون!

سكت فسكتت إستير أيضاً. تمتم مضيفاً:

- في الحرية يكمن شفاء الجسد أيضاً يا إستير، وإذا كنتِ لا تصدّقين فاسألي صاحب عبور!

- من حقّي أن أكذّب لأنّك لا تعلم أنّي قمت بأفعالٍ يمكن أن تعدّ من البطولات في سبيل التحرّر من هذا الوزر الذي يكتم أنفاسي، ولكن محاولاتي باءت بالفشل كما ترى!

لمع في مقلتيها بلل فاستولت عليه الدهشة، ربّما لأنه لم يتوقّع يوماً أن يرى هذه المرأة الأسطورية وهي تبكي. وقد تضاعفت دهشته أكثر عندما سمعها تضيف:

ـ أنا مريضة!

فزّت من عينيها الدموع. أضافت:

ـ وأسوأ ما في مرضي أن الناس لا يعترفون بمرضي، بل ويسيئون بي الظنون عندما يتوهّمون أن أوزاني هذه ما هي إلاّ نتيجة لنهمي إلى الأطعمة!

قال حاطوم:

ـ لقد قلتِ منذ قليل أن البدن عبد. وأريد أن أخبركِ بأن البريّة لا تشفي فينا علل الأبدان بسبب الأهوية أو الشموس أو الحركة الأبدية، ولكنها تشفي البدن أيضاً لأن الروح سيّد إذا تحرّر حرّر!

تحسّرت إستير:

ـ ليتني أستطيع أن أتحرّر يا حاطوم!

ـ لن تحتاجي لتحقيق ذلك إلاّ إلى قليل من الشجاعة، صدّقيني!

ولكن إستير قالت بلهجة يأس:

ـ هيهات، هيهات!

حدّق حاطوم في عينيها طويلاً. سأل:

ـ هل الباشا هو السبب؟

أجابت وهي ترنو بعيداً:

ـ ما الباشا إلاّ أحد الأسباب!

ـ هل انتظار ميزلتوب هو السبب؟

ـ انتظار ميزلتوب أحد الأسباب أيضاً.

تأمّلها حاطوم لحظات. قال:

ـ الكلّ يملكِ مئات الذرائع التي تقعده عن الحرية يا إستير، لأن الناس يريدون الحرية هبةً تُنال، لا قرباناً يُدْفع!

ولكن إستير تشبّثت بحزنها، ولاذت بالصمت.

10

في الحفل الباذخ الذي نظّمته للاّ آمنة بمناسبة عودة زوجها الحاج عبد الرحمن من عمله كسفير للمملكة في بلاد النصارى وحضرته زهرات المجتمع الطرابلسي سرَت شائعة تؤكّد أن سيدي يوسف تسلّل إلى المكان متنكّراً في لباس امرأة. وقد أرادت للاّ آمنة أن تتيقّن من حقيقة هذه الشائعة فسألت للاّ عائشة كريمة الباشا الوسطى وعقيلة رئيس البحرية:

ـ هل سمعتِ ما قيل؟

ابتسمت للاّ عائشة بغموض. قالت بلامبالاة:

ـ سمعت!

ـ هل يُعقل أن يفعل سيدي يوسف هذا؟

أجابت للاّ عائشة بلهجة أكثر غموضاً:

ـ سيدي يوسف أمير في غرابة الأطوار!

ـ ألا ترين أن عملاً من هذا القبيل لعب بالنّار؟

ـ لا يروق لسيدي يوسف إلاّ اللعب بالنار!

تأمّلتها للاّ آمنة زمناً. قالت بفزع:

ـ أيرضيك أن يقوّض سيدي يوسف بيتي بنزوة طائشة يا للاّ عائشة؟

ـ ولماذا يتقوّض بيتك يا للاّ آمنة؟

ـ لأن الحاج عبد الرحمن لن يسكت على هذه الإهانة، وعدم سكوته كما تعلمين سوف يكلّفه حياته!

صمتت للاّ عائشة. أوضحت بعد قليل:

ـ لا أظنّ أن الأمر سيبلغ هذا الحدّ!

ولكن للاّ آمنة توسّلت:

ـ يبدو أنّك لا تقدّرين الوضع حقّ التقدير. أنت لا تدرين أن نصف النساء انسحبن من الحفل حالما انتشرت الشائعة.

قالت للاّ عائشة ببرود:

ـ وماذا تريدينني أن أفعل؟

ـ أنت الوحيدة التي يستطيع تدخّلك أن ينقذ الوضع!

ـ هل تريدينني أن أخضع نساء المملكة لحملة تفتيش؟

سكتت للاّ آمنة. قالت:

ـ لقد سمعت شائعة أخرى تقول أن صاحب هذا الفعل المشين ليس سيدي يوسف، ولكنه سيدي محمود نجل للاّزكية!

ـ هذا يزيد الوضع تعقيداً!

سألت للاّ آمنة بلهفة:

ـ لماذا؟

ـ لأن سيدي يوسف يبدو ملاكاً بالمقارنة مع ابن أخته هذا!

ـ لا!

بدأت للاّ آمنة ترتجف في اللحظة التي تقدّمت منها للاّ زنوبيا عقيلة سيدي البوني لتعرب لها عن أسفها لانسحابها، في حين علّقت للاّ عائشة على انصرافها:

ـ تعبّر للاّ زنوبيا عن أسفها بلسانها، ولكنّها لا تخفي فرحتها بقلبها لأنها تعلم أن هؤلاء الصبية لا يتنكرون في أردية النساء إلاّ جرياً وراء أمثالها!

ولكن للاّ آمنة لم تسمعها لأن عبارة للاّ عائشة الأخيرة عن شقوة سيدي محمود زعزعتها. قالت:

ـ ولكن كيف ترتضي له للاّ زكية هذا العار؟

ـ لا سلطان عليه لا من أمّه ولا من أبيه!

ـ عجباً!

ـ إنه لا يملّ من أن يقول أن من حقّه أن يفعل ما يريد ما دامت أمّه لا تستحي أن تحتقر أباه!

ـ للاّ زكية تحتقر الخازندار؟

ـ ولماذا لا تحتقره إذا كان الخازندار مجرّد علج شقيّ كان يمارس التسوّل في نابولي قبل أن يلتقطه الباشا ليصير عبداً له؟

عضّت للاّ آمنة لسانها عضّة موجعة. قالت للاّ عائشة:

ـ منذ أيام راود إحدى جواري جدّه عن نفسها وحاول أن ينالها غصباً!

ـ هل تعنين سيدي محمود؟

ـ ليس هذا فحسب، ولكنه بعث برسالة إلى للاّ حسنية التركية ليواعدها!

استنكرت للاّ آمنة:

ـ يواعد للاّ حسنية التركية عقيلة خاله سيدي أحمد؟

ـ يقال أن المكتوب كان يحوي قصيدة سطّرها الشقيّ في محاسنها ليقينه بأن لا إغواء يستطيع أن يطيح بكبرياء المرأة مثل الشّعر. لم يكتفِ بهذا ولكنه ادّعى أنه لم يستعر هذا التعبير إلاّ من سيدي أحمد نفسه عندما لفّق أبياته المزعومة في محاسن للاّ عائشة!

استنكرت للاّ آمنة حتى أن شهقة أفلتت من صدرها. تمتمت:

ـ يا للشيطان!

ثم أضافت بصوت كالهمس:

ـ ولكن لماذا اختار للخراب بيتي؟

أجابت للاّ عائشة:

ـ هل تريدين أن يعفي بيتكِ من الخراب إذا كان قد بدأ في تخريب بيوت الباشا؟

ثمّ مالت على أذن للاّ آمنة لتسرّ لها:

ـ ما حدّثتك عنه بشأن رسالة سيدي محمود إلى للاّ حسنية التركية ما زال في السراي سرّاً مكنوناً، فاحترسي!

بعد يومين فوجئت للاّ حلّومة بسيدي أحمد يقتحم عليها خلوتها شاهراً سيفه فشلّت الدهشة لسانها. ظنّت في البداية أن ابنها المدلّل قرّر أن يسلّيها بدعابة كما كان يفعل زمن الطفولة، وعندما رأت الشرّ في عينيه أدركت أن أمراً خطيراً قد حدث فاستولى عليها خوف أعجزها. ولكن سيدي أحمد لم يأبه لما حلّ بها، بل يبدو أنه لم يرها، لأنه عَبر إلى الداخل وهو يرطن بعبارات مبهمة. مضى يصدم الكراسي والأرائك وكل ما اعترض طريقه في ذلك اليوم المشئوم. في أحد الأروقة صرع أَمَةً خرجت من إحدى الغرف فولولت المسكينة من فرط الرعب. في درهة أخرى شجّ رأس أحد العبيد بمقبض السيف فعَلاَ الهرج في جناح للاّ الكبيرة لأوّل مرّة بعد أن كان طوال هذا الزمان أكثر أجنحة القصر سكوناً. هرع إلى المكان العسس فراعهم الجنون في عيني سيدي أحمد فلم يجدوا حيلة إلاّ التراجع إلى الوراء.

ويبدو أن الأمّ استطاعت أن تستيقظ من الصدمة فصرخت في وجه ولدها:

ـ يا أحمد أنت تقتل أمّك!

زلزلت الصرخة سيدي أحمد، ولكنه لم يفق تماماً من غيبته، لأنه ترنّح وبرطم في نوبة جنونه:

ـ لن أنام الليلة إن لم يشرب سيفي من دمه!

صرخت للاّ حلّومة:

ـ إذا كنت تبحث عن حسن فأقسم لك بحليبي الذي رضعته من صدري أنه لم يدخل بيتي منذ ثلاثة أيام!

صاح سيدي أحمد أيضاً:

ـ أنا لا أبحث عن حسن. أنا أبحث عن اللقيط محمود!

ولولت الأمّ:

ـ متى صار ابن زكيّة لقيطاً؟

لوّح سيدي أحمد بسيفه في وجه أمّه. صاح:

ـ الكلّ في هذه القلعة اللعينة لقطاء! الكلّ في هذه القلعة أرواح شريرة!

بكت للاّ حلّومة بصوت فاجع وهي تردّد:

ـ أنت آخر من توقّعت أن يرفع النصل في وجهي! ويلي، ويلي فأنا اليوم ثكلى!

عاد سيدي أحمد يفتّش زوايا البيت بحثاً عن ابن أخته، وعندما أخفق خرج من هناك ليقتحم بقيّة الأجنحة شاهراً سيفه مجرّداً من غمده. ويُروى أن للاّ زكيّة فرّت من جناحها ما أن بلغها نبأ النوبة الجنونيّة التي أصابت شقيقها، في حين استقبلته للاّ عائشة باسمة لتطوف به أروقة جناحها طلباً للشقي محمود دون أن تنسى التعبير عن سعادتها فيما لو تمّ القبض على هذه «السوسة» التي تنخر كيان البلاط كما راق لها أن تضيف.

وبرغم المسّ الذي استولى على سيدي أحمد في ذلك اليوم، إلاّ أنه لم يجرؤ على اقتحام بيت حسن بك فكان الجناح الوحيد الذي

نجا من التفتيش. ويبدو أن سيدي محمود قد حدس ذلك عندما تسلّل إلى بيت للاّ عويشة خلسةً لتختبىء في إحدى الزوايا. وعندما نقل الخدم أو الجواري هذا الخبر إلى سيدي أحمد أصابه سعار جديد وهمّ بشنّ هجوم على البك لو لم يتدخّل الحرس. ثم أشاع بعدها أن حسن بك هو الذي أقنع محمود بمراسلة حسنية ودبّر فصول المكيدة لينتقم منه جزاء القصيدة المزعومة. أمّا حرمه التركية فقد أغمى عليها حالما أجبرها على الاعتراف. وقد توسّلته أن يكتم الأمر تجنّباً للفضيحة، وصوناً للشرف من القيل والقال، ولكن سيدي أحمد أَبَى. وعندما أدركت أنها أخفقت أغمى عليها(عقب خروجه في طلب ابن أخته) لساعات. ثم حاولت الانتحار بالقفز من النافذة لو لم تدركها إحدى الإماء في آخر لحظة. وعندما أيقنت المسكينة بفشل مساعيها ولم يبقَ لها إلاّ الاستسلام لقدَرها سقطت صريعة المرض لأمدٍ استمرّ عدّة أسابيع.

12

خاطبت للاّ حلّومة الجواري قائلة:

ـ مَن منكنّ ستأتيني بنبأ خروج الباشا من قيلولة الظهيرة اليوم لتفوز بالجائزة؟

فما كان من الجواري إلاّ أن حدجن «سولة التونسية» بنظرة ذات معنى. للاّ الكبيرة أيضاً اختلست نظرة إلى هذه الجنيّة كما يلقبنها في البلاط. سولة تجاهلت نظراتهن وتظاهرت بأنها لم تسمع النداء، ولكنها تسلّلت خارجة إلى الردهة، ومن الردهة إلى الممر، ومن

الممر إلى جناح الباشا، لتعود إلى جناح مولاتها بعد دقائق حاملةً بشارتين بدل البشارة الواحدة: بشرى استيقاظ الباشا من هجعة الظهيرة، وبشرى فوزها بالأذن لمولاتها للدخول على الباشا.

لم تمضِ دقائق أخرى حتّى كانت للاّ حلّومة تتسلّل من جناحها (محاطةً بالخدم والجوار) لتعبر إلى جناح الباشا.

تركت الجواري في الرواق قبل أن تدخل على الباشا.

وجدته يستلقي على الأريكة أمام نافذة تشرف على البحر، يرتدي ثوباً حريرياً فضفاضاً، يمدّ رجليه السمينتين على كرسي أمامه، يحتسي القهوة باشمئزاز، ويتظاهر بالتطلّع إلى امتداد البحر. قال لها بصوت الخمول ما أن رآها:

ـ قيل لي أنّك ما زلتِ تخبّئين في عُبّكِ مرايا برغم الفرمان!

جلست للاّ حلّومة على أريكة بالجوار. قالت:

ـ كل نساء القصر يخبّئن، يا مولانا، مرايا!

ـ هذا فأل سوء!

ـ فأل سوء؟

ـ المرآة فأل سوء، والفأل الأسوأ من فأل السوء هذا هو خرق الفرمان!

ابتسمت للاّ حلّومة:

ـ المرأة لا تبقّى امرأة إذا جُرّدت من المرآة يا مولانا!

سكتت قبل أن تضيف:

ـ المرأة يا مولاي، هي المرآة!

رشف الباشا من قهوته. تطلّع إلى البحر دون أن يرى في البحر بحراً.

قال:

ـ يظنّ البلهاء أني جردت القصر من المرايا لأني لا أريد أن أرى في المرايا وجهي، ولا يدرون أني لم أفعل ذلك إلاّ لتطهير هذا البلاط من الخطيئة!

هتفت للاّ حلّومة:

ـ من الخطيئة؟

ـ أجل. ألم تقولي أن المرأة هي المرآة؟

ـ بلى.

ـ وما هي المرآة في رأيك إن لم تكن خطيئة!

ـ لم أسمع هذا قبل اليوم.

ثم أضافت بعد قليل:

ـ الحقّ أنّي لا أريد أن أخفي عليك: أشعر بإثم غامض كلّما فرغت من النظر إلى المرآة!

ـ إذا كنتُ أنا الرجل أشعر بهذا الإثم حالما أرى وجهي مطبوعاً في زجاج المرآة، فكيف لا تشعر به المرأة التي لا ترى في المرآة وجهها بقدر ما ترى شرفها، أو فلنقل روحها؟

تمتمت للاّ حلّومة بحياء:

ـ هذا عجيب!

فأضاف الباشا:

ـ المرأة التي تستمتع بالجلوس أمام المرآة تخون رجلها!

استنكرت للاّ حلّومة:

ـ تخون رجلها؟!

ـ بلى. إنها تضاجع رجلاً آخر في تلك اللحظة!

ـ لا!

ـ في بعض قبائل القوقاز رجال يطلّقون زوجاتهم ما أن يجدوا بين أيديهن مرايا. وفي بعض أنحاء الصحراء الكبرى قبائل يتبرّأ الآباء من صبايا شاهدن وجوههنّ في مرايا لأنّهم يرون أنهنّ قد فقدن عذريتهنّ!

تمتمت للاّ حلّومة بجزع:

ـ إلى هذا الحدّ؟

قال الباشا:

ـ لقد تسامحتُ معكنّ أكثر ممّا ينبغي كما ترين!

لم تنبس للاّ حلّومة فأضاف الباشا:

ـ وها أنا أجني في هذه القلعة الفضائح تلو الفضائح!

تمتمت للاّ حلّومة:

ـ لم أخذل مولاي يوماً، يعلم الله!

ـ كيف لم تخذليني إذا كان السراي لم يشهد إلاّ في عهدي خروج أميرة من أميرات البلاط للإقامة في بساتين المنشية؟!

ـ للاّ زكية خرجت بسبب دسيسة يا مولانا!

ـ هذه ليست حجّة تبرّر الخروج، لأن قصور الدنيا كلّها أوكار للدسائس!

طأطأت للاّ حلّومة فأعلن الباشا:

ـ كيف تريدونني أن أفلح في إدارة شئون هذه المملكة إذا كنت لا أنام إلاّ على فضيحة لأصحو على فضيحة أخرى؟ لماذا لا تستطيعين أن تعينيني في كبح شهوات هذه الجراء؟

تمتمت للاّ حلّومة:

ـ لم أطلب الإذن بالدخول عليك اليوم إلاّ لنجد معاً مخرجاً من محنة يتقاتل فيها الأشقّاء..

سكتت لحظة قبل أن تنفجر باكية. ويبدو أنها استعارت من دموعها الشجاعة عندما أضافت:

ـ إذا لم تفعل شيئاً فأخشى أن ينتهي الأمر بينهم إلى كارثة!

ردّد الباشا ساخراً:

ـ ينتهي الأمر بينهم إلى كارثة.. وهل هناك كارثة أكبر من الكوارث التي نشهدها على أيديهم كل يوم؟ أم أنّك تنتظرين اليوم الذي سيغرسون فيه النصل في صدري ليستولوا على عرشي؟

علا نحيب للاّ حلّومة، ولكن الباشا لم يرحمها:

ـ اطمئني، فإن هذا اليوم سوف يأتي!

سكت الباشا. ألقى بفنجان القهوة جانباً. اعتدل في جلسته في اللحظة التي كفكفت فيها للاّ حلّومة دموعها لتستعجل القول قبل أن ينهي الباشا المقابلة:

ـ بالأمس اشتكى حسن من نقضك لفرمانك الذي أصدرته بضرورة حَمْل السابلة للفوانيس عند خروجهم بعد حلول الظلام!

أطلق الباشا أنين وجع. لوّح بيده في الهواء ليقول:

ـ بلى. أمرتُ بعدم إشعال أضواء بعد المغيب لأني لم أعد آمن شرّ أولادي، لا شرور أعدائي!

قالت للاّ حلّومة:

ـ لم أخف عليك منهم في يوم من الأيام، لأني على يقين أن أحقادهم موجهة ضد بعضهم البعض لا ضدّك أنت!

ـ هراء! أحقادهم ضد بعضهم البعض التي تتحدّثين عنها لم تكن يوماً لأسباب شخصية، ولكنها بسبب كنز أقف عليه حرساً هو العرش!

ـ أدامك الله للعرش.

ولكن الباشا قاطعها:

ـ ماذا قررتِ الآن بشأن الجرو محمود؟

ـ القرار قرارك أنت يا مولانا!

ـ اسمعي فرماني بشأن هذا الجرو إذن: الزواج اليوم قبل الغد!

تردّدت للاّ حلّومة قبل أن تتساءل:

ـ ولكن الزواج مِمّن؟

ـ من للاّ فاطمة!

سكتت للاّ حلّومة. ربّما لأنها لم تصدّق ما سمعت. ولكن سحابة شحوب غزت وجنتيها ما أن استوعبت. هتفت:

ـ للاّ فاطمة؟

ـ بلى!

حدّقت للاّ حلّومة في وجه الباشا. كان بارداً، غائباً، لا مبالياً، فلم تجد مفرّاً من أن تستنكر:

ـ كيف أزوّج حفيدي من ابنتي؟

ـ إذا لم تسرعي في تزويج حفيدك من ابنتك فلن أضمن سلامة شرف زوجات أولادك، ولا شرف حفيداتك، ولا حتّى شرف بقيّة بناتك!

ـ ولكن.. ولكن كيف تريدني أن أفعل ذلك إذا كان شرع الله لا يبيح ذلك؟

أطلق الباشا ضحكة سخرية. أجاب:

ـ لا تحدّثيني عن الشرع لأن حياتكم في هذا القصر كلّها ما هي إلاّ منكر يعقبه منكر!

عقدت الدهشة لسان للاّ حلّومة. أضاف الباشا:

ـ تتباهون بأبشع الخطايا، وتقترفون أشرّ المناكر، ثم لا تستحوا أن تتشدّقوا بالشرائع. عليكم اللعنة!

نفّس الباشا عن غضبته باللعنة، ثمّ التفت إلى قرينته ليقول:

ـ أيّهما أفضل: أن أزوجها لهذا الجرو محمود بعد أن فُجِعَت بزوجها الأوّل، أم أرمي بها في أحضان أحد اللقطاء الأعلاج كما فعلت بشقيقتيها زكيّة وعائشة؟

برطمت للاّ حلّومة بعبارة مبهمة فأضاف الباشا:

ـ هناك خيار ثالث لا أظنّ أنك سترتضينه!

استفهمت للاّ حلّومة بإيماءة ترجمت لهفتها فقال الباشا:

ـ أن نستهين بشرائع الملوك فنرمي بها في أحضان أحد أبناء الرعيّة!

تمتمت للاّ حلّومة:

ـ الاستهانة بشرائع المُلْك أهون من الاستهانة بشرائع الله يا مولانا!

ولكن الباشا سخر منها:

ـ ها أنتِ تخطئين كأنّك تجهلين أن شرع الله الغفران، ولكن شرائع خلق الله لا ترحم ولا تغفر!

13

في مساء ذلك اليوم أحكمت للاّ حلّومة إغلاق باب حجرة نومها لتختلي بسولة التونسية هناك. قالت لها أن الباشا انضمّ أيضاً إلى قافلة المصابين بالخلل في هذه القلعة فرأى أن يزوّج ولداً إلى خالته، فقالت الجارية أن الإقامة في القلعة هي السبب، لأن جدران هذه الخربة العريقة موبوءة بالأرواح الشريرة منذ القدم. ثم راق لها أن تبدأ في سرد السِّيَر المثيرة عن أشباح الأوّلين الذين سكنوا هذا القصر منذ مئات الأعوام وهم يجوبون ردهاته متنكّرين في أثواب أهل القصر، إلى أن انتهت إلى القول بأن كل الفظائع التي ترتكب في هذه الخربة الظلماء لا يرتكبها من يظنّ الناس أنهم مرتكبوها، ولكنها

تُرتكب بأيدي تلك الأرواح المتنكرة في أجرام أهل القلعة. ثم اختتمت روايتها بالإعراب عن شكوكها في أن يكون الرجل الذي مثُلت بين يديه مولاتها بعد ظهيرة ذلك اليوم هو الباشا حتّى أنها سألت مولاتها عمّا إذا كانت قد تفحّصت قدميه ساعة المثول بين يديه. وعندما هزّت للاّ حلّومة رأسها بالنفي قرأت الجارية على رأسها تعويذة مبهمة لطرد الأرواح الشريرة قبل أن تعبّر عن يقينها بالقول:

ـ أرأيتِ؟ روح شيطان من عبدة الأوثان هو الذي استعار لسان مولانا الباشا، لأن عضلة المسلم لن تطيع المسلم فتتكلّم ببدعة كهذه!

قالت للاّ حلّومة بصوت الغياب:

ـ الروح الشريرة التي تلبّست الباشا ليتكلّم الكفر بلسانها ليست بنت اليوم يا سولة، ولا تنتمي أيضاً إلى سلالات الأرواح التي سكنت هذا القصر يوماً!

ظنّت سولة أن للاّ الكبيرة تطعن في صحّة روايتها عن الأرواح الشريرة التي تسكن القلعة وتتنكّر في أزياء أهلها فخاطبت سيدتها:

ـ لا ينبغي، يا للاّ، أن تشكّكي في وجود أرواح الشرّ في هذه الديار!

ابتسمت للاّ حلّومة. قالت وهي ما تزال تتأرجح بين الغياب والحضور:

ـ هناك أرواح في هذه القلعة أشرّ من أرواح الشرّ التي تتحدّثين عنها!

حدجتها الجارية باستفهام فأضافت للاّ الكبيرة:

- في هذه القلعة تسكن إستير يا سولة!

هيمن صمت تبادلت فيه المرأتان نظرات ذات معنى. تساءلت الجارية:

- هل تظنّ مولاتي أن إستير وراء إقناع الباشا بهذا الكفر؟

قالت حلّومة:

- وكيف لا تكون إستير وراء هذا الكفر إذا كانت هذه المرأة لا تملّ من أن تتباهى أمام الكلّ ما أن يسري المنكر في دمها بأنها ابنة خالة أبيها؟

شهقت سولة بصوت عالٍ. تمتمت:

- أعوذ بربّ الفلق...

ثم قرأت السورة إلى النهاية. قالت أخيراً:

- سمعت في تونس عرّافة تقول أن دين اليهود يسمح بزواج العمّ من بنت أخيه!

قالت للاّ حلّومة:

- إذا كان دين إستير يسمح بمثل هذه الزيجات فلماذا تتدخّل في عقيدتنا لتفسد علينا ديننا؟

علّقت سولة:

- ربّما لأنها تريدنا أن نتخلّى عن ديننا لنعتنق دينها!

- هي تريد أن تفسد علينا ديننا فحسب لا أن نعتنق دينها!

- ولماذا لا تريدنا أن نعتنق دينها ما دامت تنوي أن تفسد علينا ديننا؟

ـ لأننا لسنا يهوداً!

استعجبت الجارية:

ـ ألن نستطيع أن نعتنق دين اليهود إلاّ إذا كنّا يهوداً؟

هزّت للاّ حلّومة رأسها بالإيجاب، ولكنها لم تنبس. قالت وهي تعود إلى رحاب حزنها:

ـ والآن عليك أن تسمعيني كما لم تسمعيني في حياتك يوماً!

ـ كل بدني أذن صاغية!

ـ أريدك اليوم أن تستجمعي كل مواهبك لتفسدي على إستير مكيدتها!

ـ ما أنا إلاّ أداة في يد مولاتي!

ـ لقد قررت أن أكلّفك بهذه المهمّة لأن سيدي محمود لا يثق بمخلوق كما يثق بك!

في عيني الجارية تألّق إيماء سعادة. قالت:

ـ سيدي محمود يثق بي لأنه تربّى بين يدي يا مولاتي.

أكّدت حلّومة:

ـ أعرف أنه يحبّك أكثر مما يحبني، بل وأكثر حتّى من حبه لأمّه!

سكتت حلّومة. حدّقت في عيني الجارية بنظرة أفزعتها.

قالت:

ـ أريدك أن تفعلي كل ما بوسعك لإفشال هذا الزواج!

أطلقت الجارية شهقة فزع أخرى، ولكنها لم تنبس، فأضافت للاّ حلّومة:

ـ أعرف أنّك لن تعدمي الحيلة في تدبير ذلك!

لاحت في وجه سولة سيماء بلبلة. قالت:

ـ شيء واحد يخيفني في هذه المهمّة يا مولاتي!

استفهمت حلّومة بإيماءة فأوضحت الجارية:

ـ الإغواء!

هتفت حلّومة:

ـ الإغواء؟

ـ بلى يا للاّ. كما يفرح الأطفال بالدمية، كذلك يطير الرجال فرحاً عندما تزفّ لهم أمهاتهم بشرى الاقتران بامرأة!

ـ أعرف أن الرجال أطفال، والمرأة في حياتهم دمية، ولكني برغم ذلك أعوّل عليكِ!

خلعت حلّومة خاتماً ذهبياً متوّجاً بفصوص الماس ووضعته في يد الجارية. شكرتها سولة بتمتمة قبل أن تضيف:

ـ سيدي محمود طفل لا بالروح وحدها يا مولاتي، ولكنه طفل بالسّنّ أيضاً. وهو ما يعني أن فرحته بنيل عروس حتّى لو كانت خالته سيكون أكبر!

خلعت للاّ حلّومة من معصمها سواراً ذهبيّاً منمنماً بفصوص أحجار كريمة مجهولة الهوية متعدّدة الألوان، ثم وضعته في يدها. قالت:

ـ أعرف أن محموداً طفل مرّتين، ولكنّي على يقين أنّك لن تعدمي الحيلة!

ابتسمت في وجهها قبل أن تومىء لها بالانصراف. ولكنّها عادت فاستوقفتها قبل أن تفتح الباب لتقول:

ـ تنتظرك جائزة أكبر بعد الإنجاز!

14

في مقهى «الأعمدة» جلس «الدرويش» وحيداً. كان يرتشف من قهوته الخالية من «قطرات الترياق» ويرقب الشارع الخالي من المارّة الذين تحوّلوا في أيام إلى جثث تنتشر في امتداده على كلا الجانبين.

عاد في الأيام الأخيرة يحدّث نفسه بصوت مسموع بعد فرار الروّاد من المقهى خوفاً من العدوى. ولم يفته أن يلحظ الاستنكار في عيني صاحب المقهى كلّما سمعه يحدّث نفسه بالصوت العالي فقال له مرّة:

ـ مَن لا يحدّث نفسه ليس مؤمناً، فلا تلمني!

ولكن صاحب المقهى اعترض يومها:

ـ من يحدّث نفسه في نظر الناس مجنون!

ضحك دون أن يلتفت إليه. قال:

ـ هذا عماء آخر يضاف إلى عماء الناس الذين لم يروا يوماً فرقاً بين المجنون والدرويش!

قال صاحب المقهى:

ـ من حقّ الناس ألاّ يروا فرقاً بين الدرويش والمجنون ما دامت غرابة الأطوار تجمعهما!

ـ في البداية أريد أن أؤكد لك أني لست درويشاً ولا مجنوناً برغم أنّي لا أستطيع أن أقلع عن التحدّث إلى نفسي!

ـ لم يطلق عليك الناس لقب «الدرويش» إلاّ في اليوم الذي سمعوك فيه تحدّث نفسك!

ـ لن أتنازل عن حديث النفس، لأني لا أعبأ بآراء الناس.

سكت لحظة قبل أن يميل نحو صاحب المقهى دون أن يلتفت إليه:

ـ وصيّتي لك ألا تثق في إنسان لا يحدّث نفسه!

علّق صاحب المقهى:

ـ كلّنا نحدّث أنفسنا، ولكن سرّاً!

ـ ولماذا علينا أن نحدّث أنفسنا سرّاً إذا كنّا نستطيع أن نحدّث أنفسنا جهراً؟

ـ هكذا وجدنا آباءنا يفعلون!

أفلتت من فمه يومها سبّة بذيئة قبل أن يقول:

ـ لن يفلح الناس ما ظلّوا على إيمانهم بهذه الكذبة!

ـ هل تظنّ أن هذه الوصية كذبة؟

ـ كذبة لأن الإيمان الذي نرثه أباً عن جدّ ليس إيماناً ولكنه عادة!

استنكر صاحب المقهى:

ـ عادة؟

ثم أضاف:

ـ إيّاك أن تردّد ذلك بحضور الأشياخ!

ولكن صاحب البياض القديم الذي خلع عليه الناس لقب «درويش» عاد إلى حديث النفس:

ـ إعلم، إذاً، أن الحديث إلى النفس سرّاً ما هو إلاّ وسوسة النفس وليس حديث النفس إلى النفس. أريد أن أقول أن إبليس لا يروق له أن يحدّث إلاّ أولئك الذين لا يريدون أن يحدّثوا أنفسهم بصوت عالٍ.

ابتسم صاحب المقهى في ذلك اليوم بغموض قبل أن يمضي تلبيةً لنداء أحد الزوّار.

أمّا اليوم فقد تقدّم ليجلس إلى جواره هرباً من الملل الذي خلّفه فرار الروّاد من المقهى. أنصت لبرطمته الغامضة زمناً قبل أن يلقي بسؤال:

ـ ألا تخاف الوباء؟

سكت «الدرويش» عن برطمته المبهمة الشبيهة بأورادٍ مجهولة، ثم التفت لينظر في عين جليسه نظرة غائبة قبل أن يجيب:

ـ ولماذا عليّ أن أخاف الوباء إذا كنتَ أنتَ لا تخاف الوباء؟

اعترف الجليس:

ـ آهٍ لو تدري كم أخاف الوباء!

تساءل «الدرويش» بلا مبالاة:

ـ لماذا لا تقفل أبواب المقهى وتفرّ بعيداً إلى الخلاء كما فرّ حاطوم بأبناء عشيرته؟

أجاب صاحب المقهى بنبرة حزن:

ـ لأني لا أملك شجاعة حاطوم!

ـ هل ترى أن الفرار من الطاعون يحتاج إلى شجاعة مّا؟

ـ بلى!

ـ هل يحتاج الفرار إلى النجاة شجاعة مّا؟

ـ بلى. كل لجوء إلى الخلاص يحتاج إلى بطولة في ظنّي!

ـ هل يعني هذا أن الإنسان يرفض الذهاب إلى الفردوس ما لم يجرّه نبيّ مغلولاً بسلسلة السبعين ذراعاً؟

سكت صاحب المقهى لحظات. قال:

ـ كلّنا نهفو إلى الخلاص كما تهفو الفراشة إلى النّار، ولكن العقبة في أننا لا طاقة لنا به!

سأل «الدرويش»:

ـ هل تعتقد أننا لا طاقة لنا به لأنه نار؟

هزّ صاحب المقهى رأسه علامة الإيجاب، ولكنه لم ينبس. فساد في المكان صمت تخترقه ولولات النساء بين الحين والآخر.

قال صاحب المقهى:

ـ ما جدوى الفرار من الطاعون إذا كان الموت ينتظرنا في كلّ مكان؟!

تمتم «الدرويش»:

ـ صدقت. الوباء ليس في المدينة، الوباء يحيا فينا!

عاد السكون يخيّم. ولكن عويلاً انطلق من حنجرة امرأة في الشارع المؤدّي إلى البحر فغمغم صاحب المقهى بتلاوة، في اللحظة التي علا فيها صوت المؤذن من جامع درغوت معلناً حلول صلاة المغرب.

قال صاحب المقهى:

ـ برغم الموت لا نستطيع أن نميت في نفوسنا الظمأ إلى الشائعات!

تساءل «الدرويش»:

ـ الشائعات؟

ـ ما رأيك في نيّة الباشا بتزويج حفيده إلى ابنته؟

ـ كل شيء يباح إذا تضعضع الإيمان في النفوس!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ ألم تحتكم منذ قليل إلى الوصيّة التي تقول: «هكذا وجدنا آباءنا يفعلون»؟

ـ لا أفهم.

سكت «الدرويش» قبل أن يوضح:

ـ لماذا لا يستطيع الباشا أن يزفّ ابنته إلى مخدع حفيده إذا كان سلفه آدم قد ألقى بابنته في أحضان ابنه؟

ـ ولكن..

قاطعه صاحب البياض قائلاً:

ـ الإثم ليس في أن تتناكح أجساد ذوي القربى، ولكن الإثم في أن تتباغض أرواح ذوي القربى؟

ـ لو سمعك المفتي لاستباح دمك!

ـ للمفتي دينه ولي ديني!

استمرّ النواح في الشارع المجاور. عَبَر بعض الرجال نحو جامع درغوت لتأدية الصلاة. مرّوا برؤوس منكسة وهم يتمتمون بآيات الفرقان، وربّما بالتمائم.

قال صاحب المقهى:

ـ ماذا ترى بشأن خروج حاطوم؟

ابتسم «الدرويش» فأضاف صاحب المقهى:

ـ يقال أنه يحيا بين أهل الصحراء متنقّلاً على ظهور الدواب مع أبناء قبيلته الذين يمارسون التجارة في تلك البيداء ويضربون الحديد لأصحاب الخلاء، برغم أن الملكة إستير ما تزال تشيع في الحارة بأنّه نبي زور!

تمتم «الدرويش»:

ـ حتّى نبي الزور ينقلب نبيّ وحيّ إذا آمن بأنّه نبيّ حقّ!

15

أوّل ما فعلته سولة في حملتها لإفساد زواج ابن الأخت من خالته تمثّل في شائعة أطلقتها تقول أن سيدي محمود يستنكر هذه الزيجة لا للأسباب الدينيّة التي يتداول أمرها الكلّ، ولكن لسبب آخر أخطر شأناً في نظره وهو أنه: لا يحبّها! كما أشاعت أيضاً نقلاً عن سيدي محمود قوله بأنه إذا كان عليه أن يتنازل ليقبل هذا الزواج إنما يفعل

ذلك تلبيةً لرغبة جدّه فحسب. وقد ذهبت الجواري (المدرّبات على حَبْك الفتن) إلى جناح للاّ فاطمة ليسمعنها الشائعة في صياغة روائية مهينة، برغم أنها لم تفلح في استفزاز صاحبة الشأن، لأن للاّ فاطمة أنصتت للجواري ببرود، ثم علت شفتاها بسمة غموض.

ولكن سولة لم تستسلم، لأنّها ذهبت لتجتمع بسيدي محمود في المنشية في اليوم التالي لتقول له أن خالته أميرة حسناء ولا يعيبها شيء. ثم أضافت إلى هذا الثناء عبارة ذات معنى تقول:

ـ لولا بعض العيوب التي لولاها لصار الناس ملائكةً لا بشراً!

وقد اشتعل قلب سيدي محمود بالفضول كما توقعت سولة تماماً، فما كان منه إلاّ أن سأل بلهفة:

ـ وما هي هذه العيوب يا سولة؟

نظرت سولة في عينيه قبل أن تقول:

ـ أجبني على سؤال: هل أخفيتُ عن مولاي الصغير شيئاً في يومٍ من الأيام؟

أجاب الفتى باستحياء:

ـ كلاّ!

ـ حسناً. اليوم أيضاً لا أنوي أن أخفي عنك شيئاً.

انتظر سيدي محمود بلهفة، ولكن سولة الموهوبة تلكّأت قليلاً لأنها تعرف أن الانتظار أكثر مما ينبغي يصنع من الأكذوبة حقيقة. قالت أخيراً:

ـ الرائحة!

غزا الشحوب وجنتي العريس. هتف بلهفة أكبر:

ـ أية رائحة؟

سكتت سوله لحظات أخرى قبل أن تضيف:

ـ الرائحة الكريهة التي تنبعث من الفم!

ساد صمت. ولكن سولة مضت تحدّق في عيني ضحيّتها بحدقتي ملآنتين بروح التحدّي إلى أن تمتم الولد:

ـ لقد رأيتُ خالتي مراراً، ولكني لم أشتمّ من فمها الرائحة التي تتحدّثين عنها!

ـ هذا لأنها لم تتنفّس في وجهك، أو فلنقل لأنك لم تصر لها عريساً بعد فتنال الحقّ في تقبيلها في فمها!

ـ أمّي لم تحدّثني بهذا العيب!

ـ أمّك لن تحدّثك لأنها تريد أن تزفّك إلى أيّ أنثى حتّى لو كانت كلبة بعد فضيحتك مع للاّ حسنيّة!

ـ جدّتي لم تحدثني بهذا أيضاً!

ـ ومن قال لك أن جدّتك أقل حماساً من أمّك أو من جدّك لتزويجك من للاّ فاطمة؟

سكت الأمير لحظة. قال فجأة:

ـ هل من عيوب أخرى؟

حدّقت سولة في عينيه بحدقتيها الناريتين قبل أن تقول:

ـ هناك العادات السيئة التي تتعمّد الأمّهات إخفاءها عن الأغراب عندما يقررن تزويج بناتهن!

اعترض سيدي محمود:

ـ ولكنّي لست غريباً عن للاّ فاطمة ولا عن أمّها حتّى تُخفى عنّي مثل هذه العادات!

ـ ها أنت تخطىء!

ـ أخطىء؟

ـ أنت لا تعلم أنّك صرت غريباً عن خالتك وعن جدّتك وحتّى عن أمّك لا في اليوم الذي تقرّر فيه زواجك من خالتك فحسب، ولكن منذ اليوم الذي ارتديتَ فيه سروالاً واعتمرت عمامةً!

ابتسم الأمير فجأة. تسكّع في البستان خطوات. قال:

ـ أسْمِعِيني!

تقدّمت نحوه الجارية كأنها تريد أن تفترسه بعينيها:

ـ يروق لها أن تضع إصبعها في فمها لتمصّه كأنه قالب الحلوى!

تعجّب الفتى:

ـ تضع إصبعها في فمها لتمصّه..

ولكنه انطلق في ضحكة قبل أن يكمل العبارة. قال كأنه يحدّث نفسه:

ـ أظنّ أنّي أستطيع أن أجعلها تقلع عن هذه العادة عندما استبدل في فمها الإصبع بقالب.. بقالب الحلوى. ها ـ ها ـ ها..

ثم توقّف عن الضحك ليقول للجارية بلهجة ذات معنى:

ـ لماذا تكابرين يا سولة؟

استفهمت الجارية فأضاف:

ـ لماذا لا تعترفين بأنّك لا تلصقين العيوب بعروسي إلاّ بسبب الغيرة؟

ـ الغيرة؟

ـ بلى. أنت تخافين أن أهجر مخدعك عندما أُدْخِل عروساً إلى مخدعي!

افترسته الجارية بعينيها الشهوانيتين كأنها لبوة قبل أن تقول:

ـ مخدع الأسياد قدر الجواري، لأنّهن لم يخلقهن الله جواري إلاّ لإرضاء شهوات أسيادهنّ!

ـ حسناً، حسناً. أريدك الآن أن تعترفي بشيء آخر.

ـ وهو؟

ـ أريدك أن تعترفي بأن الزواج من الخالة عمل مثير!

ـ بل هو منكر!

ـ ربّما كان منكراً في عرف الدّين، ولكنه في عرف الحياة مثير!

ـ أنت تقول هذا لأنّك تتكلم بلسان الهوى ظانّاً أن المرأة لعبة!

عاد الأمير يضحك. قال:

ـ ما هي المرأة إن لم تكن لعبة؟

قالت سولة وهي تشيح بوجهها بعيداً لأوّل مرّة:

ـ المرأة قنبلة!

التفت إليها الأمير بفضول. ردّد:

ـ قنبلة؟

ـ بلى. المرأة قنبلة مميتة لا تختلف عن القنابل التي تلفظها مدافع القلعة تحيّةً لرسل الأستانة!

ـ ها ـ ها..

ـ ولكن قنابل القلعة تصيب الفضاء، أمّا المرأة فقنبلة لا تصيب إلاّ رجلها!

عمّ سكون. كانت الجارية تختلس إلى الأمير نظرة خفيّة في حين يعلو صدرها ويهبط من فرط الانفعال، وربما من فرط الغضب.

قال الأمير:

ـ ظننتُ أنّكِ سوف تحدّثيني عن الشامة عندما أقبلتِ اليوم، فإذا بكِ تتحدّثين عن العيوب!

استعجبت سولة:

ـ الشامة؟

ـ بلى، بلى. ما يثيرني في خالتي دائماً هو تلك الشامة التي تستقرّ على خدّها!

راقبته الجارية بدهشة. قالت:

ـ لم أسمع في حياتي برجلٍ يعشق امرأة بسبب شامة!

ـ وماذا يعشق الرجل في المرأة إن لم يعشق شامة؟ كيف يعشق الشَّعر، أم الفم، أم العينين، أم الصدر، أم الساق، إذا كانت كل النساء يشتركن في امتلاك هذه الأعضاء؟ أليس الأحرى أن نعشق في المرأة تلك الأشياء التي صارت حكراً على امرأة إذا قورنت بامرأة أخرى؟

تساءلت سولة بلهجة استخفاف تعمّدت ألاّ تخفيها:

ـ أيعقل أن ترى هذا الامتياز في الشامة؟

ـ ولماذا لا أراها في الشامة؟ ألا تظنين أن الشامة هي شِعْر المرأة مجسّداً في علامة، كما أن الأشعار هي شامة الرجل؟ أم أنّك تنكرين أن الأشعار هي ما يستهوي النساء في الرجال؟

سكتت سولة زمناً. اعترفت:

ـ لا أنكر أن الأشعار تستهوينا في الرجل كما استهوت التفاحة حوّاء!

تسكّع الأمير في البستان من جديد. قال:

ـ إذا كنتِ تعترفين بأن الأشعار هي بمثابة تفاحة حواء التي أخرجت سلالتنا من النعيم، فلماذا لا تكون الشامة على خدّ حوّاء هي الفاكهة التي أغوت آدم؟!

سكتت سولة. قالت بلهجة ضجر:

ـ لا أعرف لماذا تصرّ دائماً أن تمضي في تفسير الأشياء بعيداً!

ـ مهلاً، مهلاً. أمضي بعيداً لأني أريد أن أعرف. وعندما أتحدّث الآن عن التفاحة فإنما أفعل ذلك بوحي منكِ!

ـ بوحي منّي؟

ـ ألم تقولي منذ قليل أن الأشعار هي ما يستهوي المرأة في الرجل؟

لم تجب سولة فأضاف الأمير:

ـ هذا يعني أن الأشعار أيضاً خطيئة!

راقبته الجارية بغموض. أضاف:

ـ وإذا كانت الأشعار خطيئة، فلا شكّ في أن الشامة خطيئة مرّتين. أردتُ أن أقول أنها الخطيئة التي لا بد من اقترافها كي نبرهن أننا بشر، ولسنا أرباباً أو ملائكة!

تمتمت المرأة:

ـ لا أعرف ماذا تريد أن تقول.

ـ كل ما أردت أن أقول أن الشامة تستهويني!

أطلق ضحكة جوفاء. تساءل:

ـ هل يستطيع آدم أن يكون آدم، أو أن تكون حواء هي حوّاء لولا التفاحة؟

حدجته سولة باستهزاء فأضاف:

ـ سمعت شيخاً يقول أن الشامة لم تنبت على خدّ حوّاء إلاّ في اليوم الذي التقمت فيه التفاحة!

التفت إلى الجارية، تهدّج صوته عندما غمغم:

ـ الحقّ أني لا أعرف لماذا تستهويني الشامة. كلّ ما أعرفه أنّي لم أكن لأفكّر في الدخول على للاّ فاطمة لولا شهوتي إلى هذه الفاكهة!

16

يقال أن الأدهياء الذين اعتادوا أن يفلحوا يفقدون صوابهم فيما لو خانهم دهاءهم مرّة فأخفقوا. سولة أيضاً لم تصدّق أن الدهاء تخلّى

عنها فأخفقت. وأكثر ما أثار حنقها هو هوس هذا «الولد الأبله» ببدعة اسمها الشامة. وهو مأزق لم تقرأ له حساباً لأنه لم يخطر لها على بال. ويروي شهود العيان أن هذه الجارية عادت فاجتمعت مرة أخرى ببللاّ حلّومة وراء باب مغلق فأخفق أهل الجناح في معرفة ما دار بينها وبين مولاتها.

كل ما قيل أن سولة خرجت من ذلك الاجتماع شاحبة السيماء، مطفأة العينين، فاغرة الفم، فأيقنت الجواري، بل وحتّى الخدم، أن الداهية هُزمت حقّاً وعرش المجد الذي تربّعت عليه طويلاً قد تزعزع أخيراً، هذا إن لم يكن قد زال بالفعل، فما كان من أهل الحسد (الذين صبروا عليها كثيراً) إلاّ أن فرّكوا الأكفّ شماتةً دون أن يفوت هؤلاء أن يردّدوا تلك التميمة التي يروق لأمثالهم أن يلوكوها كلما شهدوا سقوط أحد الخصوم: «كما لكل جوادٍ كبوة كذلك لكلّ طاغية نهاية!».

وقد فرّكت هذه البطانة الأيدي مرة أخرى يوم أُعلن في القصر البدء في مراسم زواج الأمير سيدي محمود من الأميرة فاطمة، لأن هذه المراسم ما هي إلاّ البرهان الأخير على فشل سولة في مهمّتها؛ وفشلها في مهمتها يعني تخلّي الحظّ عنها. هذا الحظّ الذي يحسن لمريديه كثيراً، ولكنه لا يتخلّى عنهم إلاّ مرّة واحدة، لأنها المرّة الأخيرة.

ويبدو أن بطانة الحسَد هذه لم تخطىء. لأن فقدان الصواب كثيراً ما كان سبباً في ارتكاب حماقات كان بالوسع تجنّبها فيما لو احتكم إلى العقل. فبدل أن تستسلم الجارية إلى قدرها وتتوارى عن الأنظار

انتظاراً لفرصتها قامت بارتكاب حماقة مميتة يوم أعادت طبق اللحم المشوي إلى الأميرة فاطمة. ويبدو أن مَلَك الحظ لعب دوراً في حَبْك هذه المكيدة أيضاً، لأن الجارية التي حملت ذلك الطبق المشئوم لتضعه في يد الأمير نفسه ثرثرت في الطريق مع جارية أخرى فخرج سيدي محمود لقضاء الحوائج في تلك اللحظة ليترك سولة وراءه. وعندما أقبلت جارية للاّ فاطمة حاملةً كنز العروس الذي صنعته بيديها لتقدّمه هديّةً للعريس علامة محبّة (كما جرت العادة في مثل هذه الصفقات التي يسمّيها الناس زفافاً) لم تجد في البيت سوى سولة فوضعته في يدها. هنا ظنّت سولة أن الأقدار قررت أن تنصفها (لا أن تهلكها) فصمّمت أن توجّه ضربتها. حرّرت رسالة شديدة اللهجة باسم العريس نعتت فيها الأميرة بعبارة مشينة في قاموس أهل السلطات هي: «عديمة الحياء التي لا تكتفي بأن تستدرج ابن أختها الغرّ، ولكنها لا تخجل من أن تفتل به الشَرَك تلو الشَرَك لجرّه إلى مخدعها!». ثم بعثت بالمكتوب إلى العروس مع أحد الخدم مرفقاً بالطبق المشئوم.

بعدها شهد القصر قيام القيامة.

ولا أحد يعرف حتى هذا اليوم السبب الحقيقي وراء هذه القيامة. ويُروى أن للاّ حلّومة هي التي أشعلت الفتيل من وراء حجاب. بل ويُقال أنها هي التي أوحت لسولة باللجوء إلى إهانة الأميرة (بإعادة الطبق المشؤوم إليها) كسبيل وحيد للحيلولة دون إتمام الصفقة المنكرة.

كل ما عُرف بعدها أن عاصفة الغضب (غضبة الباشا والبك وبقية

الأمراء والأميرات وحتى للاّ حلّومة بالطبع) تحوّلت زلزالاً في ذلك اليوم فأفسدت كل شيء. أفسدت كل شيء بالطريقة التي أرادتها الداهية للاّ الكبيرة تماماً. فقد تقرّر بعد اجتماع عائلي عاصف في جناح الباشا غسل الإهانة بإلغاء الزيجة أوّلاً، ومعاقبة سيدي محمود على مسلكه المشين ثانياً، والاقتصاص من الجارية بطردها إلى تونس التي جاءت منها. ويقال أن قلب للاّ فاطمة لاَنَ أخيراً فحاولت أن تشفع لها، ولكن بلا جدوى.

في صباح اليوم التالي أقبل مردة الباشا لتنفيذ بنود الفرمان الصادر بحقّ المسكينة.

جرّدوها في البداية من ثياب جواري القصر المميّز وألبسوها أثواب الرعية. ثم جرّوها إلى المرفأ ليضعوها في قارب سبح بها عبر البحر عائداً بها إلى برّ تونس. وقد سمعت أحد هؤلاء المردة يحدّث رفيقه قائلاً أن مشيئة الباشا أن تعيدها من حيث أتت يوماً كما أعادت هي طبق المحبّة المشئوم إلى الأميرة. ولكن لم يكتب للشقية سولة أن تستمتع برحلة المنفى هذه، لأن الحظّ الذي خذلها استكثر عليها هذا القصاص أيضاً. فبعد إقلاع القارب بوقت قصير وَشوش أهل السوء في آذان أهل السلطان بمخاوف تذكّر باطّلاع المرأة على خفايا البلاط التي يستطيع داي تونس أن يستثمرها في خصوماته السياسية مع المملكة، فما كان من المردة إلاّ أن حرثوا البحر في أثرها. أدركوا القارب بالقرب من زوارة. هناك تقدّم منها أحد المردة ليقرأ لها فرماناً مزوّراً يقضي بالعفو عنها والعودة بها إلى القلعة دون أن ينسى هذا الداهية أن يخرج لها تلك الأثواب الملكية التي جرّدها منها في الصباح كبرهان على حسن النوايا!

عادت سولة إلى مرفأ الحاضرة، ولكن ربّ الحظوظ الذي تخلّى عنها قدّر لها أن تشهد هنا مفاجأة أخرى كانت الأخيرة في ملهاة حياتها المليئة بالمفاجآت. فقد تولّى أمرها ماردان آخران حالما خرجت من قارب المارد الذي استعادها. ثم أدخلوها إلى غرفة رئيس البحرية مع حلول المغيب. هناك أجلسوها في أريكة وثيرة كأنها أميرة حقيقية. ثم جلبوا لها المرطبات في البداية فخرجوا. ثم أقبل عليها أحد الخدم بأطباق الفاكهة. وبعد مضي حوالي الساعة أقبل خادم آخر يحمل طبقاً قال لها أنه طعام العشاء. وضعه أمامها ثم خرج. وكم كانت دهشتها عظيمة عندما أزاحت الغطاء عن الطبق فوجدت أنه نفس اللحم المشوي الذي بعثته للاّ فاطمة ليكون دليلاً منها على حبّ عريسها وأعادته هي إليها مصحوباً باللعنة. وها هي الآن تتلقّى الطبق نفسه ممهوراً برسالة تقول أن هبات أهل السلطان لا تعود أبداً إلى الوراء حتى لو كانت سُمّاً فكيف بها إذا كانت لحماً؟ وعليها اليوم أن تدفع خطيئة الأمس ثمناً جسيماً.

كانت قطع لحم الضأن المشوي مصفوفةً في قاع الطبق الفضّي بالطريقة نفسها التي صفّت بها بالأمس بعدد القطع الستّة نفسها. لم يتبدّل في الطبق شيء باستثناء إضافة غامضة تمثّلت في لفافة حرير استقرّت في قلب الطبق، بين قطع اللحم، بعناية.

مدّت يدها إلى اللفافة فوجدتها أنشوطةً ملوّنةً منسوجةً من الحرير. قلّبتها بين يديها بحثاً في ثناياها عن رسالة، ولكنها لم تعثر على أثر لرسالة. ولم يكتب لها أن تدرك أن الأنشوطة لم يكن لها أن تحوي رسالة (لأنها هي الرسالة) إلاّ بعد أن تقدّم المارد ذو العينين

المطفأتين كأنهما عينان من عيون الأموات لينتزع من بين يديها الأنشوطة. انتزع المارد الأنشوطة الحريرية المريبة ووقف فوق رأسها صالباً يديه المفتولتين على صدره بعد أن أومأ لها بتناول الوجبة.

بدأت سولة تناول وجبتها قبيل منتصف الليل، ولكنها لم تفلح في إنهاء هذا العشاء إلاّ بعد انقضاء وقت طويل بعد منتصف الليل ظلّ خلاله المارد منتصباً فوق رأسها كأنه شبح. ولكنه (عندما انتهت) تقدّم منها ببرودٍ يليق بالجان ليضع الأنشوطة الحريريّة الملوّنة في نحرها!

17

اقتحم سيدي محمود جناح للاّ حلّومة كما اقتحم خاله سيدي أحمد يوماً جناحها بحثاً عن سيدي محمود. ابتسمت له جدّته يومها ابتسامة تسامح ربّما لأنه لم يدخل عليها شاهراً نصلاً كما فعل خاله في ذلك اليوم.

أومأت له بالجلوس، ولكنه زفر في وجهها أنفاساً نارية قبل أن يحشرج بصوت تخنقه العبْرة:

ـ كيف سوّلت لكِ نفسك، يا جدّتي، أن تدفعي بها إلى هذا المصير؟

عادت الجدّة تبتسم في وجه حفيدها بسمة الاستسلام، وربّما اليأس، قبل أن تقول:

ـ لستُ أنا من دفع بها إلى هذا المصير!

صرخ الحفيد فوق رأسها:

ـ بل أنتِ بالتعاون مع كل الأبالسة الذين يسكنون هذه الأطلال الملعونة!

ثم أضاف بلهجة أخرى:

ـ كيف هان عليكِ أن تدفعي بها إلى أيديهم وأنت تدرين أنهم لن يتردّدوا في أن يفعلوا بها ما فعلوا؟

قالت الجدّة بلهجة لم يعرف عمّا إذا كانت تعبيراً عن تصبّر، أم تسامحٍ، أم تعبٍ من مكائد القصر:

ـ إذا كنتُ أنا من دفع بها إلى أيديهم حقّاً فلم أكن لأفعل ذلك لولا توقي لأن أفتديك!

هتف سيدي محمود بصوت عالٍ:

ـ تفتدينني أنا؟

ضحك باستخفاف قبل أن يضيف:

ـ تفتدينني يا جدتي بجريمة؟

أجابت الجدّة ببرود وهي تنظر في الفراغ:

ـ بلى. افتديتك بقربان تراه أنت جريمة!

ـ عن أيّ قربان تتحدّثين؟

ـ ألم ترتكب إثماً يا صغيري؟

تضاحك باستخفاف مرّة أخرى. ردّد:

ـ أنا ارتكبتُ إثماً..

غمغمت للاّ حلّومة:

- أنت ارتكبت الإثم، وسولة اشترته منك بالموت!

- ولماذا يجب على سولة أن تشتري منّي الإثم الذي تدّعين أنّي ارتكبته بذلك الثمن الفظيع؟

- لأن الآثام لا تُشترى إلاّ بالموت يا صغيري!

أطلق في وجهها ضحكة بلهاء. قال وهو ينحني فوق رأسها:

- أنت تتنكّرين اليوم في جبّة شيخ الطريقة يا جدّتي ظنّاً منكِ أنّك تستطيعين بهذه الحيلة خداعي!

تسكّع في البلاط خطوات. أضاف:

- أنتِ تنسين أني لم أعد طفلاً منذ زمن بعد يا جدّتي!

ولكن الجدّة تجاهلت لومه، وربّما لم تسمعه، لأنها عادت إلى سيرة الإثم:

- الإثم لا يُفتدى إلاّ بالموت، يا صغيري، لأننا بالإثم طُردنا من فردوس الله وصرنا سلالة دنيا، ولهذا فإن الموت هو الثمن الذي ندفعه كي نستعيد براءتنا الأولى. كي نستعيد فردوسنا المفقود يا صغيري!

- ها أنتِ تتحدّثين عن الفاكهة التي تعتلي شجرة الزّقّوم مما يعني أن سولة حدّثتك عن الشامة!

تضاحك ببلاهة جنونية مرّة أخرى. أضاف:

- اعترف لكِ الآن بأن الشامة هي السبب. لولا تلك العلامة المطبوعة على خدّ خالتي لما التفتُّ إلا للاّ فاطمة. ما كان يجب أن تنجبيها من بطنك بتلك الشامة! ها ـ ها ـ ها..

قالت الجدّة وهي تحدّق في الفراغ كأنها تقرأ وصاياها في لوح المجهول:

- أنجبتها من بطني مجبولةً بالعلامة لتصير لذوي القربى شَرَكاً، ولكنّي كَفَّرتُ عن سيّئتي بالفدية!

- بالفدية؟ ولماذا اخترتِ سولة لتكون لكِ في شراء السيّئات فدية؟

- لست أنا من اختارها لتكون فدية.

- من اختارها إذاً؟

سكتت الجدّة. أجابت بعد قليل:

- الأقدار!

- يروق لأشباح هذه الخربة أن يعلّقوا جرائمهم على مشجب الأقدار!

- أنت الإنسان الوحيد في هذه القلعة الذي يجب عليه أن يفرح بمصير سولة لا أن يحزن!

تطلّع سيدي محمود إلى جدّته باستنكار. سأل:

- لماذا عليّ أن أفرح بارتكاب جريمة منكرة في حقّ سولة؟

قالت للاّ حلّومة بلهجة كأنها اللامبالاة:

- لأنها طهّرتْك!

ثم أضافت:

- لقد وُلدتَ من جديد يا صغيري!

ضحك الحفيد ساخراً، فأكملت العرّافة التي تكلّمت في ذلك اليوم على لسان للاّ حلّومة:

ـ أنت منذ اليوم صغيري الذي عرفته يوماً. ألن يكفي سولة فخراً أنها (بهلاكها) وهبتك لي من جديد بعد أن أنكرتُك يوماً؟!

ثمّ استيقظت من شرودها لتقول:

ـ أردتُ أن أقول أن الواجب يقضي أن تلعنها في قبرها بدل استماتتك في الدفاع عنها!

ـ ولماذا ألعنها في قبرها؟

ضحكت المرأة بخبث لأوّل مرّة. قالت بذلك الضرب من السخرية الذي لا تتقنه إلاّ النساء:

ـ ألم تحرمك بحماقتها من الشامة؟

وقف الحفيد يرمق جدّته بحزن. قال:

ـ لم تحرمني سولة من الشامة.

سكت فتساءلت الجدّة:

ـ من حَرَمك من الشامة إذاً؟

ـ أنتِ!

استنكرت المرأة:

ـ أنا؟

ـ لست غرّاً إلى الحدّ الذي تظنّينه يا جدّتي!

خيّم سكون. خارج الأسوار سُمِعَ عويل امرأة. داخل السراي علت ضحكة أحد الأعلاج.

أضاف الحفيد:

ـ لو كنتُ أظنّ أنّك في الخفاء ضد هذه الصفقة لرفضتها بلا تردّد!

تخابثت الجدّة مرة أخرى:

ـ ترفضها برغم الشامة؟

ـ ماذا تقولين لو عرفتي أن الشامة مجرّد مزحة؟

ـ أشكّ أن تكون سيرة الشامة مجرّد مزحة!

سكت سيدي محمود. خطا إلى الأمام خطوة، عاد إلى الوراء خطوة. اعترف:

ـ حسناً. أعترف أن في قلبي مسّ اسمه الشامة، ولكني لا أحسب أنه من القوّة بحيث أضحّي في سبيله برضاكِ أو رضا جدّي.

سكت مرة أخرى. أضاف:

ـ أريد أن أقول أني ظننت أنّي أنا القربان الذي يضحّي برضا الله في سبيل مرضاة الأمّ وأمّ الأمّ!

ابتسمت الجدّة بغموض فأضاف الحفيد وهو يهمّ بالخروج:

ـ والآن ليس أمامك إلاّ أن تدخليها إلى مخدع أحد خدمكِ الأعلاج ما دمتِ ترين في شخصي جانياً في حين ظننت نفسي منقذاً!

القسم الثالث


Twitter: @alqareah

1

ما أن تخلّى الوباء عن المملكة حتّى لاح في عرض البحر شبح وباء آخر وصفه الباشا بعبارة: «الزائر الأكثر شرّاً من الطاعون» ما أن بلغه نبأ دخوله مياه بحر ليبيا المؤدية إلى الشواطىء، ففزّ من فراشه كالملدوغ ليرى بعينيه راية الإمبراطورية العثمانية ترفرف فوق هامة السفينة التي يقلّها قائد الأساطيل الملقّب باسم: «قومندان باشا»، فلم يجد الباشا في ذلك اليوم ما يعبّر به عن شؤمه سوى قوله: «هذا زائر لم يحدث أن نزل أرضاً إلاّ مرفوقاً ببليّة!». ثم أمر بإطلاق المدافع تحيّةً لراية الإمبراطورية، لا لزائر النحس. ولكن قائد أساطيل الإمبراطورية هذا تجاهل التحيّة باستعلاء، لأنه استكثر أن يرد عليها ولو بطلقة واحدة، فلم يجد الباشا مفرّاً من ابتلاع الإهانة. ويقال أنه رفع يديه إلى السماء بعدها طالباً من الربّ أن يجيره من نوايا زائر الشرّ الذي يزرع البلايا بقدميه. وكي يؤكّد للمعبود على حسن نواياه تكلّم بنذر بصوت مسموع واعداً أن يطعم ستّين مسكيناً، ويعتق رقبة ستة عبيد، ويعفو عن ستّة من سجناء النصارى فيما لو استنزل الربّ على رسول الشرّ ذاك صاعقةً، أو أغرقه في اليمّ ليطعم بدنه القبيح للحيتان، أو يصيبه بوباء، أو بطعنة غدر، أو بريح صرصر، أو بأيّة بليّة تعفيه من رؤية وجهه المجدور!

وكان يمكن لهذا الدعاء أن يثير سخرية الحاشية الظامئة دوماً لمثل هذه النوادر لو لم تتحقّق أعجوبة. ذلك أن «الشبح الكريه» (كما وصفه الباشا بعبارة أخرى) أقلع فجأة بعد ساعة واحدة فحسب من الدعاء الذي استنزله الباشا على رأسه قبل أن ينزل أرض المملكة ودون أن يعلم أحد سرّ هذا الانسحاب المفاجىء، فتابعته أنظار الكلّ، بما في ذلك الباشا نفسه، دون أن يصدّقوا. لم يصدّق الباشا عينيه أيضاً حتّى أنه أمر أعوانه أن يرسلوا خلفه قوارب الجوسسة التي يتنكّر ملاّحوها في أثواب صيّادي الأسماك للتيقّن عمّا إذا لم يكن هذا الانسحاب المشبوه مجرّد مناورة من المناورات الكثيرة التي جبلت عليها روح هذا الثعلبان!

تعقّبت القوارب سفن «القومندان» ليلتها ليعود له الجواسيس في صباح الغدّ ببشارتين بدل البشارة الواحدة. قالوا في البشارة الأولى أن صاحب النحوس غادر المياه الإقليمية متجهاً صوب الشرق حقّاً، ثم أضافوا في البشارة الثانية أن قائد أساطيل الإمبراطورية هذا تلقّى رسالة عاجلة من سلطان الأستانة تحثّه على التوجّه الفوري إلى الإسكندرية لقمع اضطرابات عنيفة نشبت بين المسلمين والنصارى في تلك الديار. ولكن البلبلة التي أثارتها زيارة قائد أساطيل الإمبراطورية إلى مرفأ طرابلس وانسحابه المفاجىء منه لم تهدأ برحيله. لأن شائعة انتشرت بين الناس تؤكّد أن «القومندان باشا» جاء حاملاً فرماناً سلطانياً من صاحب الأستانة يقضي بخلع الباشا وتعيين أحد أخلاف خليل باشا الأرناؤوطي بدله.

ولولا أحداث الإسكندرية المباغتة لشهدت البلاد تنصيب عاهل

جديد. هذا في حين أكّدت شائعة أخرى أن قائد أساطيل الإمبراطورية الأسطوري (الذي لا يكلّف من قبل السلطان إلاّ بالمهام الصعبة) أقبل إلى سواحل المملكة لتفقّد تحصيناتها البائسة تمهيداً لهجمة سوف تشهدها البلاد قريباً. وقد مال الناس لتصديق هاتين الشائعتين أكثر من ميلهم لتصديق الشائعة الثالثة التي تقول أن رسول السلطان الأسطوري جاء مطالباً برأس القرصان الذي ذاع صيته أخيراً والملقّب باسمِ جسيم هو: «التنّين» وذلك نزولاً عند إلحاح ملوك النصارى الذينَ أكّدوا للباب العالي أنه اتخذ من حصون طرابلس وكراً له.

أمّا الشائعة التي تردّدت بعد رحيل «القومندان باشا» بأيام وتحدّثت عن وجود ثأر قديم بين القومندان وعلي باشا يرجع إلى عهدٍ لم يتقلّد فيه «القومندان باشا» منصب قائد الأسطول، ولم يفز بعد بلقب باشا، فقد بلغت سمع الباشا أيضاً، ولكنه لم يعرها اهتماماً، بل سخر منها بعد أن ملأ شدقيه ضحكاً احتفاءً برحيل عدوّه، ثم أمر بإحضار قواريره المشبوهة، واستدعى أيضاً الملكة إستير، ولكنه نسى أن يأمر بإطعام الستين مسكيناً، أو يعتق رقاب الستة عبيد، أو يعفو على مساجين النصارى الستّة دون أن يعلم هو نفسه سرّ إصراره على دسّ الرقم «ستّة» المشئوم في ثنايا الوعد!

2

اشتكت نساء الحريم إلى للاّ حلّومة مراراً من عداوات الأمراء التي تسمّم حياة القصر. وكانت للاّ عويشة آخر من بكى بين يديها

قائلةً أنها الوحيدة التي تستطيع أن تضع حدّاً لهذا الكابوس. تنهدت للاّ الكبيرة يومها لتردّ على شكواها بشكوى:

ـ أنتِ لا تعلمين أن عداوات أبنائي وَرَم في قلبي!

ثم أضافت:

ـ إنها الورم الذي ابتليت به منذ زمن بعيد ولم أجد له علاجاً حتى اليوم!

قالت للاّ عويشة:

ـ لا أعرف كيف أعجزك أن تقنعي الباشا بحسم الأمر طوال هذا الزمان.

أطلقت للاّ حلّومة تنهيدة يأس جديدة لتقول:

ـ لا يروق للباشا أن يتدخّل في شيء، وأكثر ما يزعجه أن يُطلب منه حسم أمر حتّى لو تعلّق هذا الأمر بأخطر شأن من شؤون البلد!

سكتت لحظة قبل أن تضيف:

ـ لو كان الباشا يحسم الأمور لما انتهى الحال بالمملكة إلى ما ترينه اليوم.

تردّدت للاّ عويشة لحظة، ولكنها استعادت جرأتها عندما تذكّرت عبارة للاّ حلّومة الأخيرة. قالت:

ـ الكثيرون يقولون أن سرّ ترك الباشا الحبل على الغارب للأبناء إنّما يرجع إلى خوفه منهم!

استعجبت للاّ حلّومة:

ـ خوفه منهم؟

ـ بلى. يقولون أنه لن يطيب له أن يسود إذا لم يرق له أن يفرّق!

تبادلت المرأتان نظرة لم تدم طويلاً. قالت للاّ حلّومة وهي تشيح بوجهها بعيداً:

ـ لم أكن لأصدّق أن يبلغ به الحذر هذا الحدّ لو لم أخفق المرّة تلو المرّة في إقناعه بالتدخّل!

توسلت للاّ عويشة:

ـ لن يضيرك أن تحاولي مرّة أخرى.

ـ وهل تحسبينني أبخل بالمحاولة ألف مرّة لو لم يخيّب أملي في الماضي ألف مرّة؟

ـ عليكِ أن تقنعيه بأن مثال الأبناء هو الأب لا الأم. وإذا لم يتدخّل الربّان لإنقاذ الوضع فإن السفينة سوف تغرق بالكلّ لا بالأبناء وحدهم!

ـ أحسنتِ! إذا لم يتدخّل الربّان لإنقاذ الوضع فإن السفينة سوف تغرق بالمملكة كلّها!

ـ أريد أن أقول أن العيد الذي يطرق الأبواب فرصة إلهيّة يحسن بنا استغلالها!

ـ لقد حاولت أن أصلح ما بين هؤلاء الأشقياء في عيد العام الذي مضى فسخروا منّي أمرّ سخرية!

ـ لم يسخروا منكِ، ولكنهم سخروا من بعضهم البعض!

التفتت للاّ حلّومة إلى للاّ عويشة كأنها تذكرت شيئاً منسيّاً. قالت:

ـ ولكن أيعقل أن تكوني رسولاً من البك؟

لاحظت سيماء بلبلة في وجه للاّ عويشة فأوضحت:

ـ أعني: أيعقل أن تكون هذه رغبة البك؟

ـ ولماذا لا تكون رغبة البك؟

تساءلت للاّ عويشة، ثم أضافت:

ـ أنت أعلم الناس أن البك كان مع شقيقيه أكثر تسامحاً، في حين بحث شقيقاه عن أتفه الحجج لمناصبته العداء!

ـ أعترف أن حسن أكثرهم صبراً، ولكني لا أعرف لماذا يثير هذا الصبر شكوك الباشا!

ـ شكوك الباشا؟

ـ يخيّل لي أن الباشا لا يثق في نوايا البك!

ـ لا أظنّ أن البك في حاجة لإخفاء نوايا إذا كان هو البك، هذا إن لم نقل أنه هو السلطان الفعلي!

حدجتها للاّ حلّومة بنظرة ذات معنى. قالت:

ـ أن يكون السلطان الفعلي في عهد سلطان وهميّ سبب كافٍ لاستثارة الشكوك!

ـ لا أفهم..

ـ أنتِ تنسين رسل السّوء!

ـ رسل السوء؟

سكتت للاّ حلّومة فتساءلت الكَنَّة:

ـ أتقصدين «الملكة إستير»؟

سكتت للاّ حلّومة طويلاً قبل أن تجيب على سؤال كنّتها بسؤال:

ـ ومن في هذه الدنيا يستطيع أن يسمّم عقل الباشا غير «إستير»؟

3

قبل حلول عيد الفطر استقبل الباشا جيش الأمير يزيد سليل امبراطور مراكش مُكرهاً. ذلك أن أَبْ هذا المخلوق الكريه أسهم مراراً في إنقاذ الباشا من المجاعات المتوالية التي ابتليت بها المملكة في الأعوام الأخيرة إكباراً لشخص حسن بك الذي أفلح في أن يعقد معه أواصر صداقة حميمة، وكانت آخر هذه الهبات حمولة سفينة كاملة من القمح.

أمّا سبب نزول سليل الإمبراطور المعتوه هذا ديار طرابلس لمرّاتٍ متكرّرة فهو المنفى من أراضي مراكش المتخفّي تحت رايات الحجّ إلى بيت الله الحرام. فقد ملّ أبوه جرائمه المكرورة فطرده من البلاد بعد أن هدّده من حرمانه من المُلك إذا لم يتطهّر من آثامه بزيارة البيت لثلاثة مرّات متتالية كانت طرابلس في طريقه ضحيّة في كلّ مرة.

ففي المرّة الأولى عسكر على مشارفها بجيش يزيد تعداد جنوده عن الألف والخمسمائة مصحوباً بحريم يبلغ تعداد نسائه المائة من زوجات وجواري وإماء. كما اصطحب معه عدداً من العبيد والخدم لم يقل في تعداده عن عدد النساء.

هناك، بالقرب من ضاحية المنشية، بدأ الأمير أوّل فصول ملهاته بشنق أحد عبيده الأعلاج الذين استولى عليهم قراصنة والده عقب اختطاف مركب اسباني.

وفي اليوم التالي مَثَّل بعلج آخر كان قد اتخذه خازنداً في وقت سابق بعد أن اتهمه بعلاقة آثمة مع إحدى نسائه. كما علّق المحظية الشقية من قدميها في عمود عاريةً في شمس القيلولة بعد أن دَهَن بدنها بالعسل فهاجمتها أسراب الذباب حتّى هلكت.

لم يكتفِ بهذا ولكنه اقتحم حقول الفلاحين بجيشه الجرّار فخرّب المحاصيل، وقتل ثلاثة رجال حاولوا مقاومته، قبل أن يستولي على بناتهم. وكان من سوء حظّ قنصل فرنسا أن يخرج للنزهة في عشية ذلك اليوم مع بعض العسس فما كان من الأمير إلاّ أن استوقفه ليتسلّى باستهدافه بنيران غدّراته وهو يقهقه مخموراً بأعلى صوت. ولولا تدخّل عسس الباشا للقي المسكين مصرعه في ذلك اليوم إرواء لنزوة الأمير الجنونية.

أمّا القنصل الإنجليزي الذي يرتبط مع بلاده بعلاقات الودّ فقرّر أن يهديه هبةً أخرى تليق بمقامه الرفيع. فقد بعث له بشحنة سخيّة من الرؤوس البشرية المدسوسة في عدة صناديق خشبية وطلب منه أن يبعث بها إلى والده جلالة الإمبراطور في مرّاكش فلم يجد القنصل مفرّاً من استسلام الشحنة تمهيداً لشحنها على مركب إنجليزي كان يرابط بالميناء احتراماً لجلالة الإمبراطور.

ولكن الشحنة فاحت بفعل الحرّ في اليوم التالي بنتاناتٍ لا تطاق فأمر القنصل بتطهيرها بالسوائل المطهّرة بلا جدوى. بل تصاعدت منها عقب السوائل المطهّرة روائح صرعت القنصل بإغماءة فاضطرّ خدم القنصلية لإخراج الصناديق إلى المرفأ لتسليمها إلى ربّان السفينة في الحال. ولكن الربّان ارتاب في أمرها فأمر بفتحها تجنّباً للعدوى ضارباً بالتقاليد الدبلوماسية عرض الحائط. وكم كانت دهشة الربّان عظيمة عندما اكتشف فحوى هذه الصناديق التي لم تكن سوى رؤوس مخلوقات بشرية من كل الأجناس: زنوج وأعراب ونصارى. ذكور وإناث وحتّى رؤوس أطفال، دون أن يعلم أحد أيّ رسالة يمكن أن ينطوي عليها هذا الطلسم الفظيع!

لم يكتفِ الأمير بهذا الجنون، ولكنه أضاف في طريقه إلى الحج إلى سجلّه مأثرة أخرى. فقد نزل ضيفاً على مضارب زعيم الصحراء الوسطى سيف النصر فأكبره الزعيم واستضافه بكل سخاء. ولكنه فوجىء عندما استيقظ في اليوم التالي بأن ضيفه لم يتورع عن ارتكاب جريمة اختطاف كبرى بناته مدعياً أنه سيتزوّجها حالما يعود إلى ديار إمبراطوريته لينصّبها امبراطورة في اليوم الذي سيرث فيه الحكم عن أبيه العجوز!

ويُروى أن الباشا عقّب على هذه الانتهاكات قائلاً أن الإنسان لا يُذلّ إلا ببطنه، ولو لم يستعبد الإمبراطور المملكة بجوالق القمح لشاهد الناس رأس هذا الكلب معلّقاً على باب زنّاته منذ أوّل يوم نزل فيه هذا الشقيّ ربوع طرابلس!

4

في يوم العيد خَذَلَ الأبناء الباشا، ولكن حدسه لم يخْذُله. فمنذ استطاعت للاّ الكبيرة أن تنتزع من بين شفتيه الوعد بأن يتدخل لرأب الصدع بين الأشقّاء ووسواس الخطر لم يفارقه لا في رؤى يقظته ولا في كوابيس أحلامه. فما أن جلس على عرشه ليتلقّى تهاني العيد من أكابر المملكة وقناصل الدول الأجنبية حتّى اقتحم عليه الأبناء البلاط بهجمة همجيّة خنقت الأنفاس في صدره وأصابته بالدوار حتّى ترنّح وكاد يهوي من علياء العرش.

اقتحموا البلاط في غارة جماعية أطاحت بالأحراس الذين وقفوا في المدخل لتجريد المهنّئين من أسلحتهم قبل مثولهم بين يدي الباشا كما قضت المراسم منذ زمن بعيد. لم يكتفِ ثلاثتهم بهذا العدوان، ولكنّهم تقدموا نحوه مدججين بأسلحتهم يتبعهم أحراسهم المدججين أيضاً بأسلحتهم فأيقن في تلك اللحظة أنهم تنادوا في غيبتهم، ووحّدوا كلمتهم، وأتقنوا تدبير مكيدتهم، وانتهزوا فرصة العيد فأقبلوا للإجهاز عليه أخيراً!

عمّ في البلاط يومها السكون. ولم يعد الخلْق يسمع سوى رنين أسلحة الأمراء وأحراسهم فشلّت الدهشة كل من حضر حفل ذلك اليوم دون أن يجرؤ أحد حتّى على الاستفهام.

أمّا هو فقد أيقن أنهم جاءوا ليضعوا النصل في نحره ليكون قربانهم إلى الربّ في يوم العيد. ليكون أضحية العيد التي انتظروا أن يتقرّبوا بها منذ زمن بعيد. وهو أحق الناس بهذا القصاص لأنه تجاهل ما يقال من أن الآباء ما هم إلاّ قرابين الأبناء، لأن الآباء لا

يأتون بهم إلى الدنيا إلاّ ليخرجوا هم من الدنيا. لا يهبون الأبناء حياةً إلاّ ليفقدوا هم الحياة. لا ينجبونهم من بطون الأمّهات إلا لكونوا لهم بديلاً في نظر الأمّهات. ولهذا السبب لا بدّ أن يهلك الآباء فداءً لوجود الأبناء. لأن بذر النطفة في جوف الأنثى خطيئة ثمنها الموت حتّى في ناموس الوراثة. ودبّور النحل ليس عليه أن يطمع في أن يحيا بعد أن يؤدّي الرسالة. هو أيضاً اقترف هذا الفعل الآثم طلباً للذّة، ولم يدرِ أن المتعة هي الطعم الذي يستدرجنا به الخفاء كي يوقعنا في الشَرَك. كي يقودنا إلى الموت. والآن عليه أن يتلقّى على أيديهم القصاص تسديداً للدَّين.

أغمض عينيه وتمتم بالشهادتين قبل أن يضيف عبارة مجهولة سمعها الكلّ دون أن يفهموا لها معنى:

ـ عجّلوا!

انتظر أن يتلقّى الطعنة مغمض العينين، ولكنه تلقّى بعدها الرحمة بدل الطعنة. كأنّ الكلمة تحوّلت سرّ خلاص بعد أن شاء لها أن تكون درس قصاص. فقد اختفى إيماء الوعيد الذي تلامع في عيون الأشقاء فتقدّموا نحو العرش ليلثموا يد الأب. لثموا يديه الواحد تلو الآخر (أكبرهم سنّاً في المقدّمة، كما تقضي الأعراف، يليه أوسطهم، ثم أصغرهم سنّاً) ثم تمتموا له الأماني بطول العمر بصوت مسموع قبل أن ينسحبوا.

انسحبوا ولكن الفجيعة التي عاشها الباشا في ذلك اليوم لم تنسحب من قلب الباشا، بل رأى ما حدث كوابيساً في اليقظة وفي المنام إلى حدّ ألزمته الفراش. لزم الفراش ثلاثة أيام، وفي اليوم

الرابع هوى أرضاً عندما كان يعاند بدنه الثقيل في محاولة للخروج إلى الحمّام. هوى فغاب عن الدنيا في الحال. تمّ استدعاء الطبيب فأعلن أن الباشا قد أصيب بجلطة في الدماغ!

ما أن انتشر نبأ الخطر الذي يتهدّد حياة الباشا حتّى عمّت المملكة الفوضى. علا عويل النساء داخل أجنحة الحريم، وتدافع رجال الحاشية في الأروقة، وهرول العسس في كل مكان، وتزاحم الأكابر خارج أسوار السراي، وأقفل الباعة أبواب دكاكينهم انتظاراً للحرب التي ستنشب بين الأشقاء في حال غياب الباشا، وترحّم العقلاء على صاحب المملكة الذي لم يعرفوا إلاّ في ذلك اليوم أنه وهبهم أنفس كنز في الوجود (ألا وهو السلم) برغم أنه كثيراً ما حرمهم الخبز!

أمّا الأشقاء فقد أقبلوا على أبيهم مدججين بحرّاسهم وكامل أسلحتهم. هناك ناح سيدي يوسف كما تنوح النساء. ثم تناول سيفه وحاول أن يغرسه في صدره قائلاً أنه يفضّل أن يهلك بيده على أن يهلك بيد شقيقه البك الذي سيبطش به لا محالة فيما لو انقطعت أنفاس الباشا. ولكن سيدي أحمد أنقذه من الانتحار في آخر لحظة فكان عليه أن يدفع ثمناً غالياً لقاء هذه البطولة، لأن الأقدار (التي لا تغفر التدخّل في شئونها) قرّرت أن تستبدل القربان فتستنزل عليه القصاص الذي أرادته لشقيقه، ولكن منعه هو عن شقيقه!

5

قال «سيدي الفطيسي» يخاطب سيدي يوسف:

ـ لا تضمر!

ثم أضاف ما أن أبصر في عين الأمير استفهاماً:

ـ ما نضمره هلاك!

قال الأمير بعد صمت:

ـ سمعت أحد الأولياء يقول العكس!

ـ ماذا يقول؟

ـ لا نحيا إلاّ بما نضمر!

ـ أخشى أن يكون صاحب هذا القول صاحب زور لا صاحب ولاية!

عقّب سيدي يوسف ببرود:

ـ الناس يقولون أنّك أنت صاحب الزور!

ـ لن يضيرني ما يقوله الناس!

ـ ماذا يضيرك إذاً إن لم يُضِرْكَ ما يقوله الناس؟

سكت الفطيسي لحظة. قال:

ـ ما يضيرني هو أن تسيء بي الظنّ!

ابتسم سيدي يوسف بغموض. قال وهو يرنو إلى سماء المنشية العارية من السحب:

ـ ما أشبهك بي!

ردّد الشيخ:

ـ لو لم أشبهك، أو تشبهني، لما سرتُ في ركابك!

ـ حدّثني عن الضمير!

ـ الضمير؟

ـ ألم تقل منذ قليل أن ما نضمره سرّ هلاكنا؟

هرش الشيخ لحيته بسبّابته. في عينيه لمع ألق خبيث. قال:

ـ صاحب الضمير مخلوق جبان!

ـ جبان؟

ـ ليس جباناً فحسب، ولكنه مريض!

ـ مريض؟

ـ صاحب الضمير لا يفلح!

ـ وكيف السبيل إلى التنصّل من هذا الدّاء؟

أجاب «سيدي الفطيسي» بلا تردّد:

ـ بالحسم!

ـ وما الذي يمكن أن يعنيه الحسم في شرع إنسان مثلي؟

ـ الحسم يعني في شرع إنسان في حكمك كشف ما استخفى!

قال الأمير بلهجة استنكار:

ـ كشف ما استخفى؟

ثم أضاف إلى السؤال سؤالاً:

ـ ألا ترى أننا لا نهلك إلاّ بما نكشف؟

ـ يهلك من يكشف عن نواياه بالأقوال، لا بالأفعال!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أريد أن أقول: إفعل!

ـ أفعلْ؟

ـ إفعل قبل فوات الأوان!

سكت الأمير. تطلّع إلى جليسه بنظرة لم تخلُ من دهشة. قال:

ـ كثيراً ما يهيّأ لي أنّك تقرأ نواياي فهل أنت عرّاف أم شيخ طريقة؟

ابتسم الفطيسي. هرش لحيته بيده. قال:

ـ لن أخفي عليك: لست عرّافاً، ولست شيخ طريقة!

ـ من أنت؟

لم يجب الشيخ فعمّ صمت. في صفاء السماء لاح هلال وليد. في الأفق تخضّب الأفق بحمرة الغسق. في بساتين الضاحية ارتفع صياح الأنعام. قال الشيخ فجأة كأنه يستجيب لنبوءة:

ـ إذا تردّدت كثيراً هلكت وأهلكتنا معك!

التفت إليه الأمير. التقت نظراتهما. قال الأمير:

ـ لم أتردّد خوفاً، ولكن إكباراً لناموس السلف!

ـ لستَ من طينة تكبر الناموس، لأنك تعلم أن من آثر إكبار النواميس لن يحقّق مجداً!

زفر سيدي يوسف أنفاس إعياء. قال:

ـ أتظنّ أن المجد هو سرّ وسواسي؟

ـ ربّما كان السرّ في أمر أخطر شأناً من المجد!

ـ وهل في الدنيا أمر أعظم شأناً من المجد؟

هتف الشيخ بحماس:

ـ النبوّة!

ضحك الأمير بنبرة استخفاف. قال:

ـ اللهمّ أجرنا من النبوءات. ألم نتفق على أن نترك لك شئون النبوّة مقابل أن تترك لنا شئون العرش؟

تهكّم الفطيسي:

ـ تقول ذلك لأنّك تعلم أن عصر النبوءات قد فات، ولم يبق لنا في دنيانا سوى التطاول في. .

هدّده سيدي يوسف بسبابته ممازحاً:

ـ ها أنت تقتحم جداول الأغيار، فاحترس!

أطلق الأمير ضحكة، ولكن الشيخ لم يستجب للدعابة. قال بلهجة مريبة:

ـ منذ زمن بعيد وأنت تصوّب، وتنسى أن طول التصويب يجفل الطريدة!

سكت سيدي يوسف. نهض واقفاً. قطع في البستان خطوات. قال:

ـ أطلتُ التصويب لأني لم أرَ هذا الأمر إلاّ أدغالاً!

قال الفطيسي وهو يمسّد لحيته بأصابعه:

ـ أستطيع أن أشعل لك سراجاً في هذه الأدغال إذا شئت!

تبادلا نظرة ذات معنى، ولكن أحداً منهما لم ينبس.

6

استيقظ سيدي أحمد من إغفاءة القيلولة بفعل هرجة. تنصّت دون أن يهجر المخدع. سمع طرقاً خفيفاً على الباب. أطلّت للاّ حسنية من ضلفة الباب. نهض من هجعته ليتساءل بإيماءة فقالت أن العسس أخبروا أن سيدي يوسف أوقع أحد الأعوان في الأسر ثم أمر بجلده. تمتم:

ـ سيدي يوسف! سيدي يوسف! لا تحدث بلبلة في هذه القلعة إلاّ بسبب سيدي يوسف!

ثم التفت إليها ليسأل:

ـ مَنْ مِن أعواني اختار هذه المرّة لاستنزال القصاص؟

سكتت القرينة لحظة قبل أن تجيب:

ـ فائق زيّاني!

غمغم الأمير بعبارة مبهمة. قال أخيراً:

ـ دعوه يجلده إذا كان ذلك سيشفي غليله!

هجع مرّة أخرى. ولكن المرأة ما لبثت أن أوضحت:

ـ الحقّ أنه نال نصيبه من الجلد على أيدي عبيد سيدي يوسف، ولكنه استطاع أن يفلت من أيديهم فأمر سيدي يوسف بقتله!

فزّ الأمير من فراشه. هتف:

ـ أمر بقتله؟

ارتدى لباسه. تمنطق بحزامه. شدّ إلى خاصرته سيفه. تناول في يده غدّارة أيضاً قبل أن يخرج.

قبل أن يدرك الباب المؤدّي إلى جناح شقيقه اعترض سبيله الحرس. حاول أن يشقّ طريقه بينهم، ولكنهم احتكموا إلى أسلحتهم. تراجع إلى الوراء فيما فزّ من الزوايا أحراسه ليلتفّوا حوله. انتهرهم في اللحظة التي أطلّ فيها سيدي يوسف من مخبائه. ويبدو أن خروجه شجّع أعوانه أكثر من ذي قبل فهتفوا بصيحات الحرب. استوقفهم سيدي يوسف بإشارة من يده في حين تكلّم سيدي أحمد:

- بأيّ حقّ تأمر بقتل أحد أعواني دون إذني؟

أجابه سيدي يوسف باستكبار:

- وهل احتاج إلى إذنك لاستنزال القصاص بعبدٍ أخطأ؟

- فائق زيّاني ليس عبداً بل جندي برتبة ضابط يعمل تحت إمرتي!

- هذا ما تقوله أنت!

- بل هذا ما يقوله القانون.

- في هذه القلعة أنا القانون!

- هل يصير سيدي يوسف قانوناً في هذه القلعة من دون أهلها جميعاً؟

- إذا تساهل أهل القلعة مع عبيد القلعة بدعوى التسامح الكاذب فليس على سيدي يوسف أن يحذو حذوهم!

- ليس كل من دخل بوابة هذه القلعة عبداً!

- هذا ما تقوله أنت!

سكت سيدي أحمد. كان شاحب السيماء. مزموم البدن. ينتفض

ساعداه برجفة من حين لحين فتغزو وجنتاه حمرة من فرط الانفعال. قال:

ـ لا أعرف كيف تسمح لنفسك بانتزاع سلطان لم يمنحه لنفسه حتى صاحب السلطان في المملكة كلّها لا في القلعة وحدها!

كشف سيدي يوسف عن أسنانة في بسمة سخرية فتبدّى لسيدي أحمد في تلك اللحظة منفّراً إلى حدّ أغمض فيه عينيه لئلاّ يرتكب حماقة.

قال سيدي يوسف:

ـ لا تحاول أن تذكّرني بسلطان المملكة لأنّك تعلم أن يعقوب سوف يحميني منك كما حماني من غطرسات البك!

تساءل سيدي أحمد بلهجة تعجّب:

ـ يعقوب؟

أجاب سيدي يوسف ببرود:

ـ أجل. الباشا يعقوب وأنا يوسفه!

تفحّصه سيدي أحمد طويلاً، قال:

ـ أشهد أن يوسف منك بريء براءة الذئب من دم يوسف!

حدّق سيدي يوسف في عيني شقيقه لحظة. قال:

ـ أنت تقول هذا لأنّك تحسدني!

التقط أنفاساً ليضيف:

ـ كما حسدني حسن بك على هذا قبلك!

زفر سيدي أحمد أنفاس غضب. غمغم بعبارة مجهولة قبل أن يتكلّم بلسان الوضوح:

ـ لا أقول هذا حسداً (لأني لا أرى شيئاً يمكن أن تحسد عليه)، ولكنّي أقول هذا لأنك لم تدفع قرباناً يؤهلك لأن تتشبّه بيوسف!

استنكر الأمير بسؤال:

ـ لم أدفع قرباناً؟

ـ بلى. أنت لا تعرف ماذا تفعل بحياتك إلاّ أن تتنعّم. وعندما تملّ التنعّم لا تجد ما تفعله بوقت فراغك إلاّ اقتراف الآثام على طريقة أمير مراكش يزيد ثم لا تستحي بعد ذلك أن تتباهى بأنّك يوسف سليل يعقوب المدلّل ناسياً أن يوسف تألّم كي يشتري لقب «يوسف»!

تطلّع إليه سيدي يوسف بفضول طوال الرواية. تطلّع باهتمام إلى حدّ تبدّت فيه إحدى عينيه حولاء. وحتّى بعد انتهاء سيدي أحمد من تلاوة صحيفة الإدانة استمرّ في التحديق إلى بُعْد مجهول، ذلك البُعْد الذي أصابه بالحَوَل كما يبدو.

برطم أخيراً:

ـ لا أعرف ماذا تريد أن تقول.

ـ أردت أن أقول أنّك تحتاج إلى نصيب كبير جدّاً من الألم كي تجد طعماً لحياتك!

ـ أجد طعماً لحياتي؟

ـ بلى. لن تجد طعماً لحياتك ما لم تكفّ عن الشرّ. ولن تكفّ

عن الشرّ ما لم تعرف ماذا تريد. ولن تعرف ماذا تريد ما لم تعرف من أنت!

فقهقه سيدي يوسف بعصبيّة. صاح:

ـ في أيّ كتاب قرأت هذا الهراء؟

ولكن سيدي أحمد تمتم بأسى:

ـ أنت مخلوق شقيّ يا سيدي يوسف. والله وحده يعلم ما سيعانيه أهل هذه البلاد فيما لو سخرت منهم الأقدار وتوليتَ يوماً أمرهم!

غزت وجه سيدي يوسف سحابة غضب. هتف:

ـ احترس!

فالتقط رجاله هتافه وحوّلوه إلى صيحة حرب جديدة في اللحظة التي ظهر فيها الباشا في الردهة يسند يمناه أحد العبيد، وتسند يسراه خليلته زهرة. كان يرتدي قفطان النوم، يدس في حزامه خنجراً، يحمل بيده غدّارة، يعرج في سعيه، ويتنفّس بعسر لازمه منذ سقط صريع السكتة الدماغية الأخيرة.

أومأ سيدي أحمد لرجاله بالانسحاب إكباراً لحضور الباشا. ولكن الباشا لم يعر هذا الإكبار اهتماماً لأنه وجّه إليه أمراً صارماً:

ـ ألقِ بأسلحتك أرضاً يا سيدي أحمد!

عقلت الدهشة لسان سيدي أحمد. ثم أفاق من دهشته ليتولّى الدفاع عن نفسه:

ـ لماذا تأمرني أن ألقي بأسلحتي أرضاً يا مولاي في حين تتجاهل أسلحة سيدي يوسف، بل وأسلحة رجال سيدي يوسف؟

ولكن الباشا لوّح في وجهه مسدسه قائلاً:

ـ آمرك أن ترمي بأسلحتك حالاً ولا تمضي في امتحان صبري!

تطلّع سيدي أحمد إلى الأب. كان شاحباً. على شفتيه المفلطحتين زبد. أنفاسه تتلاحق كأنه ينوي أن يلفظها في نزع أخير. استشعر نحوه شفقة مجهولة فطأطأ. ثم مدّ يده إلى حزامه وسحب سيفه. ألقى به أرضاً، ثم أدخل يده في جيبه وسحب مسدسه. ألقى به أيضاً أرضاً. تمتم:

ـ إذا كنتَ تريد أن تضحّي بي بيد سيدي يوسف إكباراً لسيدي يوسف فها أنا أضع رقبتي العزلاء بين يديك إكباراً لك، لأنّك أنت الذي وهبتني الحياة وأنت الوحيد الذي يملك الحقّ في استردادها وقتما شاء!

ويبدو أن الباشا لم يسمع نداءه، لأنه توعّده بسبّابته قائلاً:

ـ أنت ترى أن إحدى قدمي في القبر برغم أن الأخرى ما زالت تدبّ في هذا القصر. وبرغم ذلك لا تستحي في أن تسمّم بقيّة أيامي، ولا تريد أن تدعني أموت بسلام!

انحنى سيدي أحمد أمام الأب صامتاً في حين أطلق سيدي يوسف ضحكة شماتة مكتومة!

7

يوم بلغ الشيخ الفطيسي نبأ ما حدث بين الأميرين اختلى بسيدي يوسف على انفراد ليسرّ له بوصيّة تقول: «من يذهب إلى الحرب لا

يبدّد ذخيرته في الهواء!». وعندما استفهم سيدي يوسف عن المعنى أوضح بعبارة أخرى تقول: «إذا خرجتَ في طلب بُغْيَة لا تتسكّع!». سكت الأمير فأضاف الشيخ بلهجة أخرى: «ما فعلته مع سيدي أحمد طيش من شأنه أن يلهيك عن البُغْيَة، وربّما أسهم في فضح أمرك قبل أن تضرب ضربتك!»، فقال الأمير: «لا أخفي عليك أني أطلقت عليه رصاصة من فوهة بندقية عندما كنّا في نزهة لمطاردة الغزلان في سهل الجفارة، ولكنّي أخطأته!».

حدّق الشيخ في عينيه قبل أن يستفسر: «هل ساورته بشأنك شكوك؟». أجاب سيدي يوسف: «لا أظنّ!»، فتمتم الشيخ: «هذه خطيئة أخرى!». استغرب الأمير: «خطيئة؟». قال الشيخ بعد لحظة صمت: «إذا أطلقتَ النار على عدوّ فيجب أن تتيقّن لا من إصابته فحسب، ولكن من إصابته إصابة مميتة. هذه أوّل وصيّة في عُرف العداوة!».

سكت الأمير لحظات. قال: «ذهبت إليه في بستانه بالمنشية لأصلح خطائي، ولكني وجدته مسلّحاً فقبّلتُ يده وعدتُ أدراجي!». تأمّله الشيخ الفطيسي طويلاً قبل أن يقول: «حسناً فعلت إذْ قبّلتَ يده!». ساد بينهما بعدها صمت دام أمداً إلى أن قال الأمير: «لقد ذهبتُ بالأمس إلى الأمّ وكاشفتها برغبتي في الصلح، فما كان من المسكينة إلاّ أن أطلقت زغرودة فرح!».

تمتم الشيخ: «الزغرودة فأل في حسابك لا في حسابه، صدّقني!». ولكن صوت سيّدي يوسف تهدّج عندما تكلّم: «آهٍ لو تدري المسكينة ماذا أخفي له في عبّي!» فقاطعه الشيخ: «لا تكشف

ما تخفيه حتّى لنفسك، لأنك تعلم أنها لن تطلق عندئذٍ زغرودة فرح، ولكنها ستطلق صرخة نواح تكون فألاً لحسابه هو لا لحسابك أنت!».

ساد الصمت مرّة أخرى. قال الأمير: «لقد اتفقنا أن نجتمع في جناحها بعد الغد على أن نُقبِل إلى بيتها أعزلين من السلاح!». تابعه الشيخ بفضول. شجعه بهزّة من رأسه، ثمّ تمتم: «هذا حسن. ولكن لا يجب عليك أن تذهب إلى هناك قبل أن تعدّ له ما استطعت من قوّة!».

قال الأمير بعد لحظة صمت: «لديّ إحساس غريب بأنّي سأفلح هذه المرّة!». هلّل الشيخ بسيمائه، ثمّ كبّر بلسانه قبل أن يضيف سيدي يوسف: «ولكنّي لا أعرف لماذا أستشعر حزناً كلّما تخيّلت الدنيا مسرحاً يخلو من حسن بك!». حذّره الفطيسي قائلاً: «إيّاك أن تحزن قبل أن تفلح!». ولكن الأمير قال بنبرة إنسانٍ يعاني من داء السويداء: «هبني تمكّنت من البك. هبني زحزحت سيدي أحمد. هَبْني نلت العرش ودانت لي الدنيا. ألن يبقى لي بعدها إلاّ أن أفقد؟». ضحك الشيخ بصوت منكر. ضحك طويلاً. قال أخيراً: «الوسوسة رذيلة تليق بمعشر النساء لا بأهل البطولات. والرجل الذي ينال ليس الرجل الذي يضرب الأخماس في الأسداس ليستبق الأحداث، ولكنه الرجل الذي يحوّل حلمه معبوداً، ويؤمن به إيمانه بربّه، ويرى في التفكير في الفقد جبناً ما لم ينل، فأين أنت من هذا؟». سكت سيدي يوسف فأضاف الشيخ: «لو شغل الناس أنفسهم بكابوس النهاية هل لهم أن يستمتعوا بأيام البداية؟». قال

الأمير: «ولكن لماذا يقال أن الأحزان قدر الإنسان؟». هبّ الشيخ في وجهه: «هراء! الأحزان قدر البلهاء. أنت تحزن لأنك لم تفلح في دفن ذلك الدّاء الذي يسمّيه الناس ضميراً. الحزن الذي يسبق الأفعال التي تبدو لنا خطيئة دائماً رسالة مسرّبة من حضرة الضمير، فاحترس!».

احتجبت أشجار البستان بعتمة المساء. من الشمال هبّت أنسام رطيبة مشبعة برائحة البحر. في جداول الحقول ارتفع غناء الجنادب الجماعي. بين الجليسين خيّم صمت.

8

أقبل على البك رسول للاّ حلّومة ليقول أن يوسف في جناحها بالانتظار فتأهّب البك للخروج. نزع سيفه ووضعه بجواره على الأريكة، ثم تجرّد من غدّارتيه أيضاً، فيما كانت للاّ عويشة تقف قبالته وترقب عمله. قالت وهي تنظر بعيداً:

ـ لا أعرف كيف تستطيع أن تثق بسيدي يوسف!

رمقها بنظرة عابرة. قال:

ـ ثقتي بالله لا بسيدي يوسف!

كانت للاّ عويشة تعقد يديها حول صدرها، تتطلّع إلى أعجوبة البحر الذي يتبدّى من النافذة فتغيب في المدى الأزرق بعيداً بعيداً. قالت:

ـ أتعرف ما معنى أن نثق بالله؟

حدجها البك ثم ابتسم، ولكنه انشغل بارتداء حلّته فلم يُجب.

قالت:

ـ أن نثق بالله يعني ألاّ نثق بأحد!

شيّع إليها البك بصراً. قال باسترخاء:

ـ أظنّ أني سمعت أحدهم يردّد هذه العبارة!

سكت لحظة ثم أضاف فجأة:

ـ إن لم تخذلني الذاكرة فهو سيدي أحمد!

ولكن للاّ عويشة لم تعد من سرحتها. تساءلت:

ـ هل تدري لماذا؟

منحها البك بسمة بدل الجواب، فأضافت:

ـ ألم يحذرنا المولى بألاّ نرمي بأنفسنا إلى التهلكة؟

انتهرها البك:

ـ لا يجب أن تذهبي بعيداً!

ثم أضاف بلهجة اعتذار:

ـ لا تنسي أني أذهب لأسلّم أمري بين يدي أمي!

احتجّت للاّ عويشة:

ـ وما يدري للاّ حلّومة ما يدبّره سيدي يوسف لك وحتّى لها؟

اكتأب البك، ولكن الأميرة لم تمهله:

ـ لا تنسَ أني امرأة؟

تمتم حسن بك:

ـ ماذا تقولين؟

أجابت للاّ عويشة بغموض دون أن تعود من غيبتها المجهولة:

ـ ترى المرأة بقلبها ما لا يراه الرجل بعينيه!

تطلّع إليها البك بفضول. قال:

ـ لا أجد مبرّراً للمبالغة!

سكتت للاّ عويشة فساد صمت مريب. انشغل البك بارتداء نياشينه في اللحظة التي سمع فيها نشيجاً مكتوماً. شيّع بصره نحوها فرأى كيف ارتجّ منكباها بشدّة. اكتأب مرّة أخرى قبل أن يتوجّع:

ـ أووه. .

ثم أضاف:

ـ من يراكِ يجزم بأني ذاهب في حملة لإخضاع عصاة!

عاد فاستدرك بإضافة:

ـ بل لم يحدث أن ودّعتيني على هذا النحو حتّى عندما خرجت لتأديب قبائل سيف النصر!

ساد صمت. الأميرة أيضاً سكنت في وقفتها، ولكنها استمرّت تتشبّث بالبحر. وبرغم احتجاب بطنها المنفوش إلاّ أن الحمولة التي تخفيها في جوفها لم تغب عن بصر البك فقرّر أن يجود عليها برشوة:

ـ ما أجملك!

لم تستدر. لم تنبس. لم تستجب، فأضاف:

ـ أنت أجمل نساء المملكة لا بحسنك وحده، ولكن بحِمْلك، بحكمتك، وحتى بوساوسك!

لم تستدر. لم تنبس. لم تستجب، ولكنه عندما تأهّب فوجىء بها تلتفت فجأة لترتمي تحت قدميه. تشبّثت بساقيه بكلتا يديها وطفقت تلثم طرف سرواله وحذاءه وتتمتم بفجيعة:

ـ لا تذهب! لا تذهب! بجاه زنوبيا لا تذهب! بجاه وريثك الذي يتململ في بطني!

كانت تبكي. ترتجف. تستجدي، فوقف مشلولاً بفعل الدهشة. انحنى فوقها. احتضنها. تمتم في أذنها:

ـ لا أجد مبرّراً لكل هذا!

فما كان منها إلاّ أن التحمت به كأنّها تخشى أن يفرّ إلى الأبد. همست في أذنه:

ـ إذا كان لا مفرّ من الذهاب فلا تتجرّد من كلّ سلاح!

مسّد على شعرها بيده. استنكر:

ـ يأتي سيدي يوسف أعزلاً ويأتي البك مدجّجاً! ماذا سيقول عنّي الناس؟

ـ لا أصدّق أن سيدي يوسف سيأتي أعزلاً. أنت تجهل سيدي يوسف ولا تصدّق أن المرأة ترى بالقلب ما لا يراه الرجل بحدقة العين!

سخر منها بضحكة وهو يتخلّى عنها لينتصب واقفاً. في تلك اللحظة استغفلته لتضع في جيبه مِدْيَة قبل أن تهمس لنفسها:

ـ لا أفعل هذا يا ربّي إلاّ ليطمئن قلبي!

في الخارج صَرف العسس وعبر الدهليز الملفوف بالظلمة وحيداً. ولكن الدهليز أفضى إلى ساحة مضاءة بشبّاك مشرف على الأسافل الغربية حيث تستلقي المدينة. من هذه النافذة يبدو في البعد البحر أيضاً. توقّف ليتطلّع من النافذة. كان وحيداً بلا عسس وبلا أعوان. بلا سلاح أيضاً لأوّل مرّة. لم يستشعر خطراً بقدر ما استشعر خفّةً. ربّما لم يكن ذلك الإحساس خفّة، بل ضرباً من امتلاء. امتلاء في القلب، ولكنه خواء في البدن. فهل هذا ما يسمّيه الأدهياء حريّة؟

تذكّر هواجس للاّ عويشة فاكتأب. تساءل عمّا إذا كانت المرأة رئيّة بالفطرة كما تقول. والحقّ أن كل الناس يستطيعون أن ينقلبوا أنبياء عندما يقترب الخطر. فهل من الحكمة أن يطمئن إلى الشقيّ يوسف بعد كلّ الدسائس الدنيئة التي نالها على يديه؟ بالأمس القريب أقبل عليه بسيماء غريبة. كان مشوّشاً بهمّ مّا، غائباً عن نفسه وعن الناس. وعندما سأله عن مصابه ارتبك قبل أن يتلعثم بجواب غامض. ثم هَوَى ليلثم يده. لثم يده وانفضّ كأنه يفرّ من المكان فراراً.

للاّ عويشة قالت أن الإيمان بالله يعني ألاّ نثق بأحد. وألاّ نثق بأحد يعني أن نشكّك في نوايا الكلّ. والتشكيك في نوايا الكلّ يعني ألاّ نتسامح مع أحد. فهل هذا عدالة؟ قد يستطيع الإنسان الوحيد الذي يحيا معتزلاً في الصحراء أن يعتنق هذه الوصيّة، ولكن كيف يستطيع أن يعتنقها إنسان قرّر أن يكسب ثقة الناس؟ كيف يستطيع أن يعتنقها ذلك الإنسان الذي قرّر أن يتولّى أمر الناس؟

في الخارج، فوق سطوح المنازل، تزاحمت أسراب الطير. كان فوجاً من العصافير المهاجرة التي اعتادت أن تقبل على السواحل من الشمال. حطّت على أحد السطوح ولكنها ما لبثت أن فزّت فزعاً. فزّت في فرارٍ جماعيّ فتبدّت في الفضاء مثل سحابة من فرط كثافتها. بعد قليل شاهد صقراً يحلّق على ارتفاع منخفض. ويبدو أن شبح هذا الطائر هو الذي أفزع سرب العصافير.

بدأ الصقر يعلو. علا ثم علا حتى اخترق سحابة العصافير. اخترق السرب ولكنه لم يتنازل أبداً لينال من الطير صيداً. تذكر مسلك الصقر الذي يأبى إلاّ أن يلقّن الخليقة درساً في الزهد لأنه لم يتنازل يوماً ليقتنص عصفوراً أو سنونوة حتّى لو هلك جوعاً. لا يكتفي هذا المكابر بهذا العفاف، ولكنه يأبى إلاّ أن يلقّن الخليقة درساً آخر في التسامح. فقد رأى مراراً كيف يروق للغربان أن تهرع إليه لتنازعه. ولكنه لا يستجيب لاستفزازاتها أبداً. أبسبب هذه الخصال يا ترى راق للقدماء أن يتخذوه معبوداً؟

ما أحوجه أن يستعير مسلك الصقر الذي لا يموت جوعاً برغم العفاف، ولا يُهزم برغم التسامح!

10

هرعت للاّ حلّومة لاستقباله. قالت وهي تضع يدها في جيبه:

ـ لا أحد منكما يستطيع أن يتخيّل فرحتي بكما في هذا اليوم. أنتما لن تصدّقا شعوري لأنكما لم تجرّبا ما معنى أن يكون الإنسان أمّاً. كأنّي والله لم ألدكما إلاّ اليوم!

ولكنّها توقفت عن ثرثرتها فجأة لتخرج من جيب البك تلك المدية الصغيرة التي دسّتها له للاّ عويشة خفيةً. تساءلت باستنكار:

ـ ما هذا؟

ثم أضافت بلهجة لوم:

ـ ألم يبلّغك رسولي بوجوب التحرّر من هذه الأنصال الكريهة؟!

ارتبك البك. قال:

ـ لست أنا من دسّه هناك. صدقيني!

ولكن الأم لم تصدّقه. رمقته بشك قبل أن تضيف:

ـ أيعقل أن يحترم ابني الأصغر مشيئتي، ثم ينتهكها ابني الأكبر؟

ألقت بالمدية على المنضدة، ثم أضافت:

ـ ها هو سيدي يوسف ينتظر. لقد أقبل عارياً من الأعوان ومن السلاح. جاء طاهراً من الضغينة كما وعد!

نهض سيدي يوسف من جلسته. انحنى أمام البك بإكبار. ثمّ تقدّم ليلثم يده بمراسم إجلال استثارت في نفس شقيقه إحساساً خفيّاً، إذا لم يكن ندماً فهو يقيناً اشمئزاز لن ينتج إلاّ عن الزور الذي كرهه كما لم يكره شيئاً في دنياه. ففي حركة سيدي يوسف اشتمّ رائحة افتعال. والافتعال في موقف كهذا لا بدّ أن ينذر بشرّ. والشرّ في حياة البلاط لم يكن يوماً سوى مكيدة!

ولكنه تنكّر للحدس لأنه اختار أن يدسّ رأسه في الرمل على طريقة النعام ويكذّب. اختار أن يكذّب النبوءة التي لا تخطىء ربما إيماناً منه بأن الأوان في كل الأحوال قد فات، ولم يبقَ له الآن إلاّ أن يسلم زمام الأمر للقدر.

فجأة انهار سيدي يوسف باكياً. ركع تحت قدميه. زحف على البلاط في حركة مفاجئة لا تصدّق، ثم تشبّث بقدميه كما تشبّثت بهما للاّ عويشة منذ قليل. بكى بدموع حقيقية وهو يلثم حذاءه بشفتيه. في تلك اللحظة أجهشت الأمّ أيضاً في نوبة بكاء. وقف بينهما ذاهلاً. لم يعرف عمّا إذا كان عليه أن يأخذ بيد شقيقه الذي يتشبّث بساقيه ويغسل حذاءه بدموعه، أم يهوّن على الأم التي ارتفع بكاؤها الآن وكاد يتحوّل عويلاً.

أخيراً غمغم سيدي يوسف:

ـ أغفر لي! اغفر لي خطاياي، لأنك إذا بخلت عليّ بالغفران فسوف أقتل نفسي!

اقتحمت إحدى الجواري المكان استجابةً لعويل مولاتها على ما يبدو، ولكن للاّ حلّومة انتهرتها بشدّة وهي تكفكف دموعها فاختفت الجارية. تمالكت الأم نفسها قليلاً، ولكن قلبها ما لبث أن خذلها مرّة أخرى فانهارت من جديد. ألقت بجسدها فوق بدن سيدي يوسف وانتحبت بحرقة. رآهما البك جِرْمين بائسين مكوّمين تحت قدميه فاستشعر وجعاً لا يطاق. لم يستشعر ألماً، ولكنه استشعر إثماً. قال لنفسه أن مجرم لا يختلف عن القتلة إذا كان قد فعل ما سبّب لهذين المخلوقين كل هذه الآلام. وعليه أن يكفّر عن آثامه هذا اليوم قبل الغد. عليه أن يكفّ قبل كل شيء عن التشدّق بالتسامح، لأنه لو تحلّى بالتسامح حقاً لما تجاسر على إيذاء ذوي القربى. لما تجاسر على الإساءة إلى إمام، بل إلى إمامين من أئمّة ذوي القربى: الأمّ والشقيق!

عليه أن يغسل آثامه قبل كل شيء بالذهاب في زيارة إلى البيت. بلى، بلى. عليه أن يذهب إلى مكّة أوّلاً. ثم يعود ليعتزل. بلى، بلى. عليه أن يعتزل لا السلطة وحدها، ولكن الدنيا كلها. لأن ما قيمة سلطان نعذّب به الأغيار بدل أن نحسن به للأغيار؟ ما جدوى حياة نشقي بها ذوي القربى بدل أن نسعد بها ذوي القربى؟

في تلك اللحظة كان سيدي يوسف قد نهض ليعيد للاّ حلّومة إلى الأريكة. أجلسها هناك ثم التفت إلى البك. كانت دموعه ما تزال تجري على خدّيه، والمخاط يتدلّى من منخريه. خاطب شقيقه بالقول:

- أعرف أنك لا تصدّقني. ولو كنتُ مكانك أيضاً لما صدّقت. ولا أعرف كيف أبرهن لك على توبتي إلاّ بالقسَم على المصحف الشريف!

همّ البك بأن يتكلّم، ولكن سيدي يوسف لم يمهله، هتف بأعلى صوت:

- غانم! إليّ بالمصحف يا غانم!

اقتحم المكان أحد العبيد. كان زنجيّاً داكن السواد إلى حدّ تلامعت فيه بشرته من فرط السواد. جاء يحمل بين يديه جراباً بائداً. وضعه بين يدي مولاه ثم انتظر فيما شلّت الدهشة للاّ حلّومة لمرأى رجل في جناح الحريم!

أمّا سيدي يوسف فتناول الجراب. دسّ يديه في الجلد البائد ليخرج من جوفه المصحف المنتظر. ولكن لا البك ولا للاّ حلّومة رأيا في يدي سيدي يوسف مصحفاً، لأن شللاً أصابهما عندما أبصرا

في يديه جرمين منكرين أبدعهما إبليس يوماً ليقدمهما لعدوّه الإنسان دميةً مميتةً. ولكنّهما قبل أن يفيقا من ذهولهما كان سيدي يوسف قد استجاب لنداء عدوّ الإنسان وبدأ يضغط على الزناد. ضغط مرّة، مرّتين، ثلاثاً.

ترنّح البك منذ الطلقة الأولى، ولكنه لم يقع. قبض بيده على جنبه الأيسر حيث استقرّت الطلقة الأولى وخطا نحو الخصم. ولكن الطلقة الثانية أصابته في صدره. لم يسقط أيضاً. ترنّح، ثم تقدّم خطوة أخرى. تراجع القاتل بفزع فضغط على الزناد من جديد. فزّ الدّم من بطن البك. أطلق أنيناً رهيباً في اللحظة التي استيقظت فيها الأمّ من ذهولها فألقت بنفسها على بدنه لتحميه. ولكن سيدي يوسف لم يتوقّف عن معزوفته الجنونية. بل استمرّ في مداعبة الوتر. لامس بأصبعه زناد إحدى الغدّارتين فغنت الآلة لحنها المميت. أصابت الطلقة يد الأمّ ففزّ الدّم. ولكن البك دفعها عنه فسقطت المسكينة أرضاً. أدرك البك المنضدة حيث استقرّت المدية الصغيرة التي دسّتها له للاّ عويشة في غفلة منه لتكون له تعويذة. تناول المدية وهجم بها على العدوّ. ولكن سيدي يوسف احتمى من السلاح بذراعيه فأصابه النصل بجرح. أصيب بالجرح ولكنه لم يتوقف عن الضغط على الزناد، لأنه تعلّم من ناموس الصيد في الصحراء أن الطريدة لا تصمد طويلاً إذا نزفت كثيراً. وبالفعل ترنّح البك وانهار أخيراً. انهار ليسقط تحت قدميه فزأر سيدي يوسف في وجهه:

- إروِ هذين القدمين بدمك ثمناً للدموع التي سفحتها على قدميك منذ قليل!

ثم أطلق على رأسه طلقة أخرى. انتصب ليأمر عبده الفظيع:

ـ تستطيع الآن أن تنحره بنصل السيف!

تقدّم مخلوق الظلمات من الجسد الذي كان ما يزال يتنفّس حتّى تلك اللحظة حسب روايات كتّاب الحوليات. جرجره من يده خارج الدار في اللحظة التي حشرج فيها بعبارة زعزعت للاّ حلّومة لتصير لها كابوساً إلى الأبد:

ـ أشكرك يا أمّاه على هديتك الأخيرة لابنك البكر!

بكت الأم لحظتها بدموع الدّم. بكت للاّ حلّومة بدموع الصمت لأن الصمت وحده يستطيع أن يعبّر عن تلك الفجيعة التي يعجز أن يعبّر عنها اللسان ويأبى أن يعبّر عنها الدمع. ولكنها رفعت عين اللعنة إلى سيدي يوسف لتغمغم:

ـ لماذا قرّرت أن تفعل هذا في بيتي؟ لماذا؟

أطلق سيدي يوسف ضحكة غريبة قبل أن يجيب:

ـ وأين أستطيع أن أناله إن لم أَنَله في حضنك؟

11

في مقهى «الأعمدة الأربع» اتخذ درويش الأجيال (كما أطلق عليه البعض) مجلسه مبكّراً فأقبل عليه صاحب المقهى حاملاً طبقاً يحوي فنجانين من القهوة التركية الخالية من السكّر. قال الدرويش:

ـ الحمد لله الذي أحيانا حتّى شهدنا مهزلة أخرى!

قدّم له صاحب المقهى فنجان القهوة واحتفظ بالآخر لنفسه. قال:

ـ لا أعرف يا مولانا كيف تسمّي هذه القيامة مهزلةً!

قال الدرويش بعد أن ارتشف من قهوته:

ـ تستطيع أن تسمّيها قيامةً، تستطيع أن تسمّيها طاعوناً جديداً، ولكنها في عرف الخفاء مهزلة في كل حال!

زفر صاحب المقهى أنفاس إعياء قبل أن يقول:

ـ هي قيامة حقّاً. أما الطاعون فلن يكون إلاّ سيدي يوسف هذا!

رشف من فنجانه جرعة قهوة قبل أن يضيف:

ـ التجّار أخفوا السلع حالاً كي يبيعوها لنا بأضعاف أثمانها غداً. الناس امتشقوا أسلحتهم خوفاً على أنفسهم حتّى من جيرانهم. الكثيرون هاجروا إلى الضواحي. والبعض الآخر فرّ إلى الجبل. كل هذا بسبب نزوة من صبي ظمآن إلى السلطان!

أطلق صاحب القلنسوة البيضاء آهة شجن. في عينيه تألقت سيماء غامضة كأنها الوجد، أو ربما الحنين إلى الزمان الضائع. قال:

ـ خطيئتكم أنكم رأيتموه صبيّاً. وخطيئة الباشا أنه رآه يوسفاً، وها هي الأيام تبرهن أنه يخفي ممسوساً!

ـ أعوذ بالله!

ـ هذا منطق الظلال التي تثقل بدن الأرض. أمّا الأقدار فقد دسّت فيه رسالتها!

تمتم صاحب المقهى:

ـ صدقت. ربّما قررت الأقدار أن تجعله لنا قصاصاً على تلك الآثام التي اقترفها أبوه!

تساءل الدرويش:

ـ عن أي آثام تتحدّث؟

ـ ألم ينقل عنه عبيده لعناته التي صبّها على رأس عدوّه «قومندان باشا» ليجعلها نذوراً سرعان ما نسى الوفاء بها ما أن انجلت الكربة؟

عقّب صاحب البياض:

ـ نسيانه النذر ما هو إلاّ الوثيقة التي أراد أن يثبت بها أنه إنسان!

ـ ماذا يريد مولانا أن يقول؟

ـ كل إنسان ينسى الوفاء بالنذر ما أن تنجلي الغمّة!

همس صاحب المقهى لنفسه:

ـ عليه اللعنة!

سمعه الدرويش فانتهره:

ـ إيّاك أن تسبّ حاكماً حتّى في سرّك!

أوضح صاحب المقهى:

ـ أردت أن أتساءل: لماذا علينا أن ندفع نحن الحساب في هذه الحال؟

سكت الدرويش لحظة. قال:

ـ صدقت. الرعايا هم كبش الفداء دائماً. إذا حنث الحاكم بعهد أو خالف القَسَم فالناس هم أوّل من ينال القصاص!

ـ هل هذا عدالة؟

ولكن الدرويش لم يجب. قال بعد قليل:

ـ لم يؤلمني البك في تلك المذبحة بقدر ما آلمني الكاهية الأكبر!

هزّ صاحب المقهى رأسه أسفاً. قال:

ـ لا أعرف كيف يأمر ذلك السفّاح باغتيال شيخ كان لأبيه بمثابة أب لمجرّد استفهامه عن صرخة سمعها في جناح الحريم!

ـ السرّ في ناموس القتل. الإنسان لا يحتاج إلاّ إلى الضحية الأولى. فإن نالها تعطّش لسفك المزيد من الدماء. أخشى ما أخشاه أن مصّاص الدماء هذا لن يرتوي من الدم بعد اليوم!

ـ صدقت. ألم يتوعّد أرملة الكاهية بالقتل خنقاً فيما لو تجرّأت على البكاء على فقيدها لأن الغيب سوف يفسد عليه حفل الطرب الذي دبّره في بستان المنشية ابتهاجاً بمصرع البك؟

قال الدرويش:

ـ ليته اكتفى بهذا، ولكنه أمر بخنق جارية للاّ الكبيرة لمجرّد توسّلها سيدي أحمد أن يعيد النظر في أوامر شقيقه الجائرة التي تقضي بتجريد أبناء البك من ثياب الأمراء وإلباسهم لباس الرقيق!

تمتم صاحب المقهى:

ـ الويل لليتامى!

ثم أضاف:

ـ سمعت بالأمس زغرودة في حارة اليهود، وعندما استفسرت عن سرّها قيل لي أنها احتفاء بعودة ميزلتوب!

ساد صمت. غمغم الدرويش:

ـ في زمان كهذا حقّ لنا أن نحسد الخلاّن الذين رحلوا!

رمقه صاحب المقهى فرأى في عينه بللاً. تساءل:

ـ هل يحنّ مولانا لفراق خلّه القديم؟

أجاب الدرويش بعد لحظة صمت:

ـ لم أعرف لفراقه حنيناً، لأنه في رحيله أخذ معه قلبي!

توجّع صاحب المقهى بأنين وجع، في حين أضاف صاحب البياض:

ـ أنا هنا غريب منذ زمن بعيد!

تمتم صاحب المقهى:

ـ لم يكن عسيراً أن أدرك هذا.

خيّم صمت. همّ صاحب المقهى أن ينصرف، ولكنه سمع لحناً. سمع المريد القديم يترنّم بلحن مرزكاوي لم يسمعه منه يوماً. لحن شجن شجيّ لم يسمعه من حنجرة أنسيّ يوماً. زعزعه اللحن فبكى. جرت الدموع على وجنتيه وهو يتمايل إلى جوار ذلك الجنّ كالمجذوب. ولكن اللحن انقطع فجأة. انقطع اللحن فهوى قلبه. استشعر ضياعاً لا يطاق فتمتم:

ـ غنِّ! غنِّ! بربّك غنِّ!

ولكن الدرويش لم يغنِّ فازدادت العزلة عمقاً والصمت طغياناً. عاد يحشرج:

ـ استحلفك أن تغنّي! لماذا لا تغنّي؟

لم يستجب المريد القديم للنداء فاستدار نحوه. مدّ يده بلا إرادة وهزّه من منكبه الأيسر فما كان من الجليس إلاّ أن تداعى. تداعى ليهوي جانباً. هوى نحوه فاعترضته المنضدة. هتف بوجل:

ـ مولانا!

تناول رأسه بين يديه فاكتشف أن الرجل قد رحل.

في تلك اللحظة كبّر المؤذن في مئذنة جامع درغوت المجاور، فيما زحفت على المدينة غياهب المغيب.

غولديفيل (الريف السويسري)

نوفمبر 2006م

مؤلفات ابراهيم الكوني

1 ـ الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974م.

2 ـ جرعة من دم (قصص) 1983م.

3 ـ شجرة الرتم (قصص) 1986م.

ـ رباعية الخسوف 1989م.

4 ـ البئر (رواية).

5 ـ الواحة (رواية).

6 ـ أخبار الطوفان الثاني (رواية).

7 ـ نداء الوقواق (رواية).

8 ـ التبر (رواية) 1990م.

9 ـ نزيف الحجر (رواية) 1990م.

10 ـ القفص (قصص) 1990م.

11 ـ المجوس (رواية) الجزء الأول 1990م.

12 ـ المجوس (رواية) الجزء الثاني 1991م.

13 ـ ديوان النثر البرّي (قصص) 1991م.

14 ـ وطن الرؤى السماويّة (قصص) 1991م.

15 ـ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992م.

16 ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير) 1994م.

17 ـ الفم (رواية) 1994م.

18 ـ السحرة (رواية) الجزء الأول 1994م.

19 ـ السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995م.

20 ـ فتنة الزؤان (رواية) 1995م.

21 ـ برّ الخيتعور (رواية) 1997م.

22 ـ واو الصغرى (رواية) 1997م.

23 ـ عشب الليل (رواية) 1997م.

24 ـ الدمية (رواية) 1998م.

25 ـ صحرائي الكبرى (نصوص) 1998م.

26 ـ الفزاعة (رواية) 1998م.

27 ـ الناموس (الجزء الأول) 1998م.

28 ـ في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999م.

29 ـ سأسِرٌّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999م.

30 ـ أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999م.

31 ـ سأسرٌّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلْبال، 1999م.

32 ـ سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلَّب، 1999م.

33 ـ وصايا الزمان 1999م.

34 ـ نصوص الخلق 1999م.

35 ـ ديوان البر والبحر (نصوص) 1999م.

36 ـ الدنيا أيام ثلاثة (رواية) 2000مم.

37 ـ نزيف الروح (نصوص) 2000م.

38 ـ أبيات (نصوص) 2000م.

39 ـ بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) 2000م.

40 ـ رسالة الروح.

41 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 1 أوطان الأرباب 2001م.

42 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 2 أرباب الأوطان 2001م.

43 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 3 أرباب الأوطان 2001م.

44 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 4 (المقدمة في ناموس العقل البدئي).

45 ـ بيان في لغة اللاهوت (ملحمة المفاهيم) جزء 5

46 ـ منازل الحقيقة 2003م.

47 ـ أسطورة حب إلى سويسرا 2003م.

48 ـ لحون في مديح مولانا الماء 2002م.

49 ـ البحث عن المكان الضائع (رواية) 2003م.

50 ـ أنوبيس (رواية) 2002م.

51 ـ الصحف الأولى (أساطير ومتون 2004م).

52 ـ مراثي أوليس (رواية 2004م).

53 ـ صحف إبراهيم (متون 2005م).

54 ـ المحدود واللامحدود (متون 2002م).

55 ـ ملحمة المفاهيم (موسوعة البيان) ج6، 2005م .

56 ـ ملكوت طفلة الربّ (رواية) 2005.

57 ـ لون اللعنة (رواية) 2005م.

58 ـ هكذا تَأَمَّلَتْ الكاهنة ميم (متون) 2006م.

59 ـ ملحمة المفاهيم ج3، (موسوعة البيان) ج7، (2006م).

60 ـ نداء ما كان بعيداً (رواية) 2006م.

61 ـ في مكانٍ نسكنه.. في زمانٍ يسكننا (رواية) 2006م.

62 ـ يعقوب وأبناؤه (رواية) 2007م.

مؤلفات إبراهيم الكوني النظرية

63 ـ نقد ندوة الفكر الثوري 1970م.

64 ـ ثورات الصحراء الكبرى 1970م.

65 ـ ملاحظات على جبين الغربة 1974م.


Twitter: @alqareah

الفهرس

J A C O B & H I S S O N S

رواية
NOVEL



يعقوب وأبناؤه

◆ لقد قرأت روايتك الأخيرة (نداء ما كان بعيدًا) ، وما زلت مصابة بالذهول ! ما هذا الكتاب العظيم ؟ أنت دائم الاختراق لذاتك ، وما زلت قادرًا على تخطّي القمم الّتي أخذتنا إليها [..] لا تستطيع كلمات قليلة أن تصف إعجابي الكبير .. أنت حقًّا كاتب عظيم .. ولا بدّ أنّ اللغة العربيّة فخورة بك يا صديقي الرائع .. والإنسانيّة أيضًا . كلّ الحبّ ◆

هدى بركات

مقتطفات من رسالة إلى المؤلّف


ISBN 9953-36-968-2
9 789953 369686



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨
http://www.airpbooks.com